

محمد عبد الحميد الحمد

صابئة حرّان
وإخوان الصّفا

صابئة حرّان وإخوان الصفا

* صابغة حرّان وإخوان الصّفا

* تأليف: محمد عبد الحميد الحمد

* الطبعة الأولى ١٩٩٨

* جميع الحقوق محفوظة للناسر ©

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:

* الأهالي للتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

١ - ٢٩٩ ح م د ص ٢ - ١٨٩١٣٥ ح م د ص ٣ - العنوان

٤ - الحمد مكتبة الأسد

محمد عبد الحميد الحمد

صابئة حرّان
و
إخوان الصّفا

الأهالي

الباب الأول الحرانية - تاريخ وعقيدة

- الفصل الأول - حران في مسارها التاريخي.
- الفصل الثاني - الصابئة - الحرانية والمندائية.
- الفصل الثالث - أهم قواعد العقيدة الحرانية.
- الفصل الرابع - أهم الشعائر والطقوس والعادات.
- الفصل الخامس - أعياد الصابئة واحتفالاتهم.

الفصل الأول

حران في مسارها التاريخي

التسمية والتاريخ القديم:

حران من المدن الهامة، في تاريخ الفكر البشري، إلا أن تسميتها وتاريخها، كانا مجهولين لدى مؤرخي السريان والعرب، حتى اكتشاف الرقم الطينية في العصر الحديث.

ذكر ابن جبير، عندما زارها في ١٨ حزيران عام ١١٨٥م، أنها بلد اشتق اسمه من هوائه^(١) وقال عنها ياقوت الحموي: «يجوز أن يكون اسم حران، من فعلان من الحر، والنسبة إليها حرناني. وقيل سميت بهاران، أخي إبراهيم عليه السلام، لأنه أول من بناها فعربت، فقليل حران^(٢)».

وقال عنها الطبري في تاريخه: «إن نوحاً خطها، عند انقضاء الطوفان، وخط سورها بنفسه وفيها كانت منازل الصابئة^(٣)». ولكن أبا الفرج ابن العبري قال: «إن الذي بناها هو (قينان) على اسم هاران ابنه^(٤)».

إن ما ذكره المؤرخون السابقون هو أقرب إلى الأسطورة من التاريخ الحقيقي، الذي أشارت إليه اللقى الأثرية، التي حددت معنى «حرانو» أي «الطريق». لأنها كانت على الطريق الملكي القديم، طريق الحرير والمسلك المحاذي لخط العرض ٣٦°. وقد وصفها الجغرافي اليمني الهمداني: «أنها قصبة بلاد آثور، وملتقى النهرين، والجزيرة والشام. وأهلها أصحاب أدب، وحكمة، وعلم بالنجوم، وخبرة بالعلوم التعليمية، وأصحاب قياس للكواكب، ولهم ذكاء وفطنة^(٥)».

وعن موقعها قالت الصابئة المندائية في كتابهم الشهير «حران كوئي» أي حران السفلى «إنهم كانوا يعيشون في جبل (المادي) حيث الينابيع الساخنة في الشتاء، والباردة في الصيف، وهذا الجبل يمتد إلى حران^(٦)».

إن أقدم ذكر لحران في الرقم الآشورية، ورد في خبر أن شلما ناصر الثالث احتلها سنة (٨٥٧ ق. م) وجلب إليها جالية آشورية، واختلطت بشعبها الآرامي، والعربي

وابتنى بها قصرأ، ومعبداً لإله القمر (سين)، وجعلها ولاية تابعة له^(٧). وقد نال معبدها شهرة في العالم القديم فعرفت المدينة به وسميت (شارا)^(٨).

كانت معيشة أهل حوران تعتمد على اقتصاد مركب من إنتاج زراعي، كالحبوب بأنواعها، والزيتون والثمار والقطن والكتان، وعلى تربية المواشي (الأغنام والبقر)، وعلى التجارة البعيدة فمنها تحمل الموازين والزجاج ونسيج الكتان والصوف والشعر، وإليها تجلب بضائع الهند، والصين وفارس وروما وتدمر والبتراء. وكان للمعبد والكهانة إيراد عظيم - لهذا دعيت في الكتابات السريانية «مدينة الوثنية والأعراب»^(٩).

لِمَ اشتهرت حوران بالمدينة الوثنية؟

إن كلمة وثني Paganus، كانت تطلق على الفلاح المتعلق بديانته الوثنية.

ثم صارت في العهد المسيحي، تطلق على كل من يعتنق الفكر الوثني.

بعد احتلال الاسكندر المكدوني لحوران عام ٣٣٦ ق. م. أسكن فيها جالية مكدونية. ودعيت المدينة باسم (كاران)، وصارت مركزاً للفكر الهيليني، فدعيت حوران (بهلينبوليس). ثم امتزج الفكر الهليني بالفكر الكلداني (عبدة النجوم) وبالكهانة اليونانية، وبتعاليم فيثاغورس. ورغم ذلك لم يشتهر منها سوى (بابا الحراي) الذي ذكره ديونسيوس ابن الصليبي (توفي ١١٧١) في كتابه الرد على العرب، لأنه اعتبره عربياً، وسماه نبي حوران وأتهمه بالكهانة، ونسب إليه أقوالاً كثيرة منها قوله: «بعد زمن طويل سيحيى اسم كبير من الشمال ويقيم داخل عزوز (يعني بذلك مدينة العزى حوران) وكل من لا يتبع كلامه يتحكم فيه الخراب»^(١٠).

ومن الكهنة الذين عاشوا في حوران مدعي النبوة الكسندروس (توفي ١٧٠)، الذي نال شهرة واسعة، في الامبراطورية الرومانية، في كشفه «طوالع الغيب». سألته الإمبراطور ماركوس أورليوس (١٦٤ - ١٨٠) عن هاتف غيب، عندما شرع في حملته على سكان جرمانيا. فأشار عليه بإلقاء أسدين في نهر الدانوب، لتحقيق النصر، وكان الكسندروس يجيب على الأسئلة التي يتلقاها داخل المعبد، ويرد عليها بهاتف صوتي، يخرج لهم من خلف الجدران بأنابيب فخارية ركبت ضمن الجدران. كان الهاتف يكلف كثيراً من المال، ومع ذلك ترى الناس، يتوافدون على حوران من المدن البعيدة، في الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية.

كان الفيلسوف الافلوطيني جميليكوس (عاش حوالي ٣٣٠ في حوران) ممتهنأ هتافات الغيب الكلدانية وبنى معبداً في هيرابوليس (منبج)، يتخلله أشباح نورانية،

الباب الأول

وموسيقى غير مألوفة، وتماثيل تصدر منها حركة، ضمن جو مفعم بالبخور، ودخن النباتات العطرية، مما يوحى بالرهبة والخشوع لم يتأثر المعبد الكبير في حران، رغم الحظر الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين الثاني سنة (٣٥٧ م). أصدر أمراً يقضي بوضع حد لقيام رجال البلاط الإمبراطوري باستشارة مصادر الوحي، والعرافين ومفسري الأحلام، وصار الموظف يعذب إذا وجه إليه مثل ذلك الإتهام^(١١). كانت مهنة الكهانة، من الأمور التي افتخر بها ثابت بن قرة الحراني، عند ذكر أجداده قال «لمن تجلت الألوهية الملقنة الكهانة، والمعلمة المستقبلات إلا لمشاهير الصابئة»^(١٢).

عندما أسلم القاضي محمد به عيشون الحراني (المتوفي ٣٠٠ هـ/٩١٢ م)، كتب كتاباً اتهم به كهنة حران بخداع الناس، إذ كانت في المعبد سرايب تحت الهيكل، فيها أشخاص للأشخاص العلوية، ومن خلفها تظهر أنواع الأصوات، وفنون اللغات، بحيل قد اتخذت، ومنافع قد عملت، تتكلم السدنة من وراء الجدران، فتجري الأصوات في تلك المنايف، والمخاريق إلى الصور المجوفة، والأصنام المشخصة، فيظهر فيها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان، فيصطادون به العقول/ ولابن عيشون القاضي قصيدة طويلة، يذكر فيها مخاريقهم على العوام. مطلعها: ^(١٣)

إن نفيس العجائب بيت لهم في سرداب
تعبد فيه الكواكب أصنامهم خلف غائب

لِمَ دعيت حران بمدينة الأعراب؟

من الأوهام الشائعة أن العرب وفدوا إلى أرض الجزيرة، وجنوب سفوح طوروس، مع الفتوحات الإسلامية. والحقيقة أن العرب سكنوا هذه البلاد، منذ أواسط الألف الثالث قبل الميلاد. فمن استقر منهم في الأراضي المرتفعة، سمي (بالآرامي)، ومن سكن الأودية، والأغوار سمي (بالكنعاني)، ومن ظل يتجول في البوادي، متنقلاً خلف إبله أو أغنامه، سمي عريباً. إبراهيم الخليل (عليه السلام) عندما توجه من حران (فدان آرام)، سمي بالآرامي نسبة إلى تل الفدان (فدان آرام تقع غرب حران بحوالي ١٠ كم)، وسمي حفيده يعقوب بن اسحق بالآرامي التائه، عندما هاجر من أرض كنعان إلى فدان آرام.

جاء في الحملات الآشورية أن تفلّات فلاصر الأول (١١١٦ - ١٠٩٠ ق. م) عبر نهر الفرات، حوالي ٢٨ مرة، احتل خلالها (ست مدن)، في سفوح جبال البشري، وغنم من أهلها، ومن حلفائهم العرب، غنائم كثيرة، حملها إلى عاصمته آشور^(١٤)،

وفي هذه الوثيقة دلالة على العيشة المشتركة، بين الآراميين والعرب، وبالتالي تقاربهم الثقافي واللغوي. كان المؤرخون اليونان يطلقون على عرب الجزيرة اسم عرب الرها، وفي سنة ١٩٧٠ كشف الأثري البريطاني جورج سيغال في خرائب سوق مطر (الشمال الشرقي من حران)، تمثالاً نذرياً مقدماً إلى الإله (سين) القمر، من حاكم ديار وائل علماً أن التمثال مؤرخ بعام (١٦٥) م.

وحتى الوقت الحاضر سكان هذه المناطق (حول الرها - أورفا) هم من قبائل، قيس بن عيلان، الذين أسسوا منذ عام ١٣٢ ق. م. أمانة الرها، وكان أول ملك منهم يدعى (الأبجر أريو)، أي الأسد بالآرامية، وقد اتخذ له شعاراً ثالث حران المقدس «الهلال والنجمة (الزهرة) والشمس». نقشها على نقوده^(١٥).

تزخر المؤلفات السريانية، بذكر العرب في حران، يذكرهم أيشوع العمودي في تاريخه، أنه عندما وصل الإمبراطور جوليان ابن أخي الملك قسطنطين، إلى حران في الرابع من شباط سنة ٣٦٢ م، أعلن ارتداده عن المسيحية، وعودته إلى الوثنية، وأصدر مرسوماً بحرية الأديان، ابتهج أهل حران، ومن حولها من الأعراب، فقدموا له تاجاً ذهبياً، وخضعوا له، متوسلين قبول هديتهم فاستقبلهم الإمبراطور بفرح عظيم، واصطحبهم معه في حملته، على بلاد فارس ولكنه قتل بسهم طائش، وصاح عند موته «أيها الجليلي لقد غلبتني». من هنا يسميه المسيحيون جوليان المرتد «البزناط» بينما يسميه العرب وأهل حران «أوسيوس» أي المؤمن والتقني^(١٦). قال أيشوع العمودي «كان العرب رماة بارعين، وعندما قتل الإمبراطور في صيف ٣٦٣ م، انقلب البدو وأصبحوا عدائين تجاه الرومان»^(١٧).

وعندما زارت الراهبة (ايجيريا) حران في ٢١ نيسان من عام (٣٦٣ م)، قالت: في مدينة حران، لم أجد مسيحيين، عدا بعض رجال الاكليروس، والرهبان الأتقياء الساكنين، هناك لأن السكان، كانوا جميعاً من الوثنيين وهم يكرمون قبر لابان بن بنوئيل بن ناحور أخي إبراهيم الخليل، وكانت قبورهم على بعد ميل واحد من المدينة^(١٨). وقد ذكر ياقوت الحموي هذه القبور على لسان الشاعر المصري ابن النبيه قال: مررت مع الملك الأشرف بن العادل بن أيوب، في يوم شديد الحر، بظاهر حران، على مقابرها، ولها أهداف طوال علي حجارة كأنها الرجال القيام وقال لي الأشرف: بأي شيء تشبه هذه؟ فقلت ارتجالاً: ^(١٩)

هواء حرانكم غليظ مكدر، مفرط الحرارة

كأن أجدائها جحيم وقودها الناس والحجارة

وصف المؤرخ البيزنطي مارسيلنوس إميانوس (٣٣٠ - ٤٠٠) العرب حول حران والرها بقوله: «لم يقبض، أي منهم سكة محراث، ولم يزرع شجرة على الإطلاق، بل لم يسع أي منهم إلى العيش، من الحراثة، بل كانوا يتجولون فوق سهوب، لانهاية لها، لايت لهم، ولاسكن ولا قانون، ولقد رأيت العديد منهم يجهلون القمح والخمر»^(٢٠)، وكان الأعراب يمارسون الطقوس الوثنية. وقد أصدر أسقف الرها الملكي إمبرسيوس منشوراً بإبطال عادة الضرب على النحاس المرافق لحسوف القمر لأنه طقس وثني، فيه تمجيد الإله سين^(٢١).

روى القديس جيروم، عن الراهب ملكي، عندما أسره الأعراب سنة (٣٩١) قال: «كانوا البدو يقبضون على الرهبان، فيرغمونهم على عبادة الأوثان، وهم من أبناء إسماعيل، يركبون الخيول والجمال، ويضعون أطواقاً حول شعورهم الطويلة، وأجسامهم شبه عارية، ويلبسون الجلايب، والكنانات تتدلى من أكتافهم، وأقواسهم غير مشدودة، ورماحهم طويلة، وكانوا يسعون وراء كل غنيمة»^(٢٢).

هاجم الشاعر السرياني إسحق الأنطاكي الأعراب، وجهاء بلدته (حورا) عام ٤٥٧م لأنهم كانوا وثنيين يؤمنون بالكهانة، التي تدعي معرفة الأشياء الخفية، قال «نبت غصن، من كرمة الهلاك، إنها حران الجديدة، نشأت على أرضنا. ادعى المتكهنون، فيها معرفة الأشياء لكنهم لم يتكهنوا بأن مصيرها بأيدي قطاع الطرق، وأن زوجاتهم، ستصبحن غنائم في بيوت الغرباء»^(٢٣).

كان الشاعر مار يعقوب السروجي (٤٤٢ - ٥٢١)، يطلق على (حران العش الوثني)، وكانت حران تزخر بالأصنام العريية، لذا كتب محاورة شعرية، عن سقوط الأصنام، قال: إن أبولو قاد حران إلى الضلال بواسطة (سين) إله القمر، وبعل شمين (رب السموات)، وبار محرى، ومار كلابه (إله نهر الجلاب أو نهر المبديين)، وترعائا (الزهرة) وعزلات الإلهتين (العزى واللاة)، ولم يكن هناك مكان مرتفع خالي من سكب الخمر للآلهة، التي كان الشباب يقدمون لها، بأعداد غفيرة، الضحايا والقرابين، كما كانت العذارى تذبح للأصنام الإثوية، وكان الكهنة يلبسون كتاناً أيضاً، مغزولاً، بشكل بديع، ويتدثرون بالقلانس الجميلة»^(٢٤).

هذه الملابس هي نفس الملابس التي شاهد المأمون كهنة حران يرتدونها سنة ٢١٨هـ ٩٣٣م/ وقد أثارت انتباهه، وسألهم عن معتقدتهم.

حران في العهد الراشدي:

حاصر عياض بن غنم الأشعري (توفي ٢٠ هـ ٦٤٢ م)، حران سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م، عدة أيام بعد فتحه للرقعة، فخرج إليه، مقدموها من الحرانية، وقالوا له: ليس بنا امتناع عليكم، ولكننا نسألكم أن تمضوا إلى الرها، فما صالحت عليه، فعلينا مثله^(٢٥).

وقد حفظ لهم المسلمون هذه المنة فتركوهم يعيشون بحرية، حسب تقاليدهم الخاصة. على أن يؤدوا الضريبة المفروضة عليهم^(٢٦). قال الواقدي: إن عياضاً دعاهم ثبتهم اللهم على دينهم، ولاتمكن من بلدهم عدواً^(٢٧). أظن أن هذا الدعاء لاصحة له وإلا فكيف، يدعو عياض، ملّة مشركة بالثبات على ذلك الدين الباطل.

قال الطبري صالح أهل حران، ماصالح عليه أهل الرقة^(٢٨). وقال البلاذري (يحيى بن جابر) المتوفي ٢٧٩ هـ حدثني داود بن عبد الحميد بن عمرو بن ميمون بن مهران وهو من أهل الرقة، قال: إن كتاب عياض لأهل الرها هو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب، عياض بن غنم، ومن معه من المسلمين لأهل الرها. إني أمنتهم على دمائهم، وأموالهم، وذرائعهم، ونسائهم، ومدنيتهم، وطواحينهم. إذا أدوا الحق الذي عليهم، وأن يصلحوا جسورنا، ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون^(٢٩).

وجعل عليهم، عياض الجزية، جريباً وديناراً، على كل جمجمة على من جرت عليه الموس. وجعل عليهم لأرزاق المسلمين، من الخنطة، لكل رجل مدين، ومن الزيت ثلاثة أقساط، مع استضافة، من نزل بهم من المسلمين ثلاثاً^(٣٠).

كان أهل حران يجيدون العربية والآرامية، بل كان لسانهم أفصح اللهجات الآرامية^(٣١) وهذا الأمر أهله لأن يكونوا أكثر أهلية للتعاون مع الحكام الجدد، أصبحت حران مقراً للولاة العرب وقصبة ديار مضر، وأصبح الوليد بن عقبة بن أبي معيط أول وال على العرب، وأصبح نظيره حبيب بن مسلمة، على عجم الجزيرة، وحروبها وكان يقيم في الرقة.

بينما كان الوليد يقطن عين الرومية (عين عيسى) بين حران والرقة، وكان يتعاطى الخمرة فصرفها عمر من الخدمة عام ٢١ هـ ٦٤٣ م. وولي بدلاً منهما عمير بن سعد الأنصاري (توفي ٢٦ هـ) كان رجلاً متديناً حليماً واسع الصدر عامل أهل الذمة من العرب وغيرهم بالتّي هي أحسن وعندما سأله بنو تغلب أن يأذن لهم في الجلاء

والالتحاق بأرض الروم. استأذن الخليفة عمر بن الخطاب، فصالحهم على دينهم، على أن يضاعف عليهم الصدقة كي لا تفرض عليهم الجزية^(٣٢).

شعر أهل الذمة في الجزيرة بالأمان، في العهد الراشدي، ولدينا شهادة من جاثليق النساطرة إيشو عتياب الجذالي (٦٤٧ - ٦٥٧) قال: «إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا - كما تعرفون - إنهم ليسوا أعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا، ويقربون قسيسينا، ويمدون يد العون إلى كنائسنا، وأديرتنا وضمن كلامه حديثاً للرسول (من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة). وإنه أعطى عهد الأمان لجميع النصارى كافة»^(٣٣).

كثيرة هي الكتب والنصوص التي تحدثت عن الحرية الدينية في العهد الراشدي، جاء في كتاب المسعدي «وتعززت الأمور بفضل الله تعالى، وطابت قلوب النصارى، وأهل الذمة في مملكة العرب، ثبتها الله ونصرها»^(٣٤).

جاء في نص سرياني لكاتب مجهول «صار كثير من أبناء القبائل العربية، يأتون إلى حران ويسجلون أسماءهم في الديوان ويسلمون دون إكراه طمعاً في المناصب الدنيوية»^(٣٥).

حران في العهد الأموي:

كانت القبيلة العربية الكبيرة تغلب، تسكن في أرض الجزيرة، وفي بادية الشام، وهم الذين قيل عنهم «لو أن الإسلام قد تأخر، لأكلت تغلب العرب» وهم الذين قاوموا جيوش المسلمين، في عين الورد (رأس العين)، وفي حمص. ولكن عمر بن الخطاب خطب ودهم. وفي العهد الأموي قال بعض الفقهاء، مستندين على فتوى لعبد الله بن عباس، قال: «عن نصارى تغلب. لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم، فهم ليسوا منا ولا من أهل الكتاب»^(٣٦). هذه الفتوة لا صحة لها، فتغلب هي كبرى القبائل العربية التي لا يستهان بها، وكانوا مخلصين لديانتهم المسيحية. ذكر ابن العبري أن محمد بن مروان والي الجزيرة في حران بعث في طلب معاذ شيخ بني تغلب، وطلب منه الدخول في الإسلام، فلما أبى ألقى به في حفرة، من الوحل ثم أحضره وجلده، ثم أمر بقتله»^(٣٧). طلب الوليد بن عبد الملك، من شمعة شيخ بني تغلب، أن يسلم فرد عليه: لا والله لا أسلم كارهاً، أبداً ولا أسلم طائعاً كما شئت. فغضب الوليد من قوله. واقسم على أن يرغمه على أكل لحمه. فأمر بقطع قطعة من لحمه، وشويت بالنار، وأطعمه إياها، وبقيت آثار الجرح ظاهرة في جسمه تشهد ببسالته»^(٣٨).

بينما كان الشاعر الأخطل التغلبي مسيحياً يدخل على عبد الملك بن مروان وفي عنقه صليبه، ولقبه (شاعر بني أمية) إلا أن الوليد أعرض عنه، وظهر في شعره ألمه النفسي، وتشكيته.

كان الحرانية، يمارسون في مدينتهم وقراهم التجارة والحرفة والزراعة، في حقولهم الممتدة، على ضفاف نهري الجلاب (نهر الميدين)، ونهر البليخ، في قراهم المشهورة مثل ترعوز، وصلمسين (صنم القمر)، لعلها حصن مسلمة، وبيت باتين (عباطين) على الحدود السورية التركية كانوا يزرعون مختلف الغلال من حبوب وأشجار مثمرة، بالإضافة إلى شجرة التوت، التي طوروا زراعتها، من أجل تربية دودة الحرير^(٣٩)، والقطن والكتان والقنب لصناعة الحبال والثياب والأعشاب الطبية، التي كانوا يتاجرون بها إلى المدن البعيدة^(٤٠).

ظلت حران والجزيرة، تنعمان بالاستقرار الاقتصادي، طيلة العهد الراشدي، وفي العهد الأموي قام الخليفة عبد الملك بن مروان بالإصلاح الضريبي الأول، في الإسلام، عندما أرسل إلى أخيه محمد بن مروان، المقيم في حران، الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري، ليقوم بمسح أراضي الجزيرة، وتقدير الضريبة. أصدر الوالي محمد بن مروان، أمراً إلى كل رجل أن يعود إلى قريته، ليسجل اسمه في الديوان، وملكيته من كرم وزيتون وحقل ومواشي، ثم حسب متوسط دخل الفرد وطرح منه نفقة الطعام والشراب، ولباس الأعياد، وبعده قرر على كل رجل بالغ أربعة دنانير، وعلى كل (١٠٠) جريب زرع، مما قرب من المدينة، مسيرة يوم ديناراً، وعلى كل (١٠٠٠) أصل كرمة أو زيتون مما قرب من المدينة ديناراً وعلى كل (٢٠٠٠) أصل كرمة أو زيتون، مما بعد ديناراً^(٤١).

كيف نظر أهل الدمة لهذا الإصلاح الضريبي؟

اعتبره البطريق مار ديونيسيوس التلمحري (٨١٨ - ٨٤٥)، أصل كل البلايا والشُرور التي أصابت المسيحيين^(٤٢). ولكن المؤرخين المختصين بالنظام الضريبي يرونه أخف وطأة مما كان سائداً في الحكم البيزنطي البائد^(٤٣).

حران في العهد العباسي:

أصبحت الرقة قصبة ديار مضر ومقر والي الجزيرة، كان الخليفة المنصور (١٣٧ هـ - ١٥٨) يظهر لأهل حران المودة، وكان يعمل بنصائح عبد الملك بن حميد الحراني كاتبه، ثم تولى من بعده الكتابة، سليمان بن مخلد الحراني، الفيلسوف وصاحب

الباب الأول

صنعة الكيمياء والتنجيم وقد استولى على عقل المنصور، حتى قالت العامة: «إنه سحر أبا جعفر». مما اضطر الخليفة إلى قتله متهماً إياه بالخيانة عام ١٥٣ هـ / ٧٧١ م^(٤٤).

عندما بنى الخليفة المنصور مدينة الرافقة (١٥٤ هـ ٧٧٢). هاجر كثير من أهل حران، إلى الرقة، وأسلم بعضهم فنشطت الحرف اليدوية، كصناعة الزجاج، وحلج القطن ونسجه، وصناعة الموازين، فعمرت الأسواق، بالتحف والطرائف، كصناعة الحلبي والسيوف، ونسج البرود، والعقاير والبراهم الطبيّة.

وفي عهد الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩)، تولى الكتابة إبراهيم بن ذكوان الحراني، وفي زمن الرشيد اتهم في دينه مما أسخط الرشيد عليه سنة ١٨٤ هـ على أثر ظهور قضية مايسى (بقضية الرأس)، وقبض على أمواله ثم أرسله بعد شفاعة يحيى بن خالد البرمكي، إلى البصرة وصار كاتب سليمان بن أبي جعفر المنصور^(٤٥).

وأثناء الإضطرابات التي حدثت في الجزيرة، أيام الخلاف بين الأمين والمأمون (١٩٦ - ٢٠٤). أعلن الحرانية، احتفالانهم وطقوسهم، علناً دون خفاء، قال ماردونيوسيوس التلمجري إنه شاهد في سنة (٨١٣)، أثناء رئاسة عمرو بن طيبا (٨٠٠ - ٨١٧) للحرانية، أن الوالي إبراهيم القرشي، سمح لهم أن يحتفلوا بأسرارهم علانية، في ٢٠ نيسان، فاطمأنوا وجللوا ثوراً بحلل ثمين، وتوجوه بالزهور، وعلقوا جلاجلًا في قرنيه وطاقوا به في طرقات حران، بالأهازيج وآلات الطرب، ثم قربوه لآلهتهم^(٤٦).

كان الحرانية، يعرفون قبل زمن الخليفة المأمون، بالحرانية أو الخنوفون، أو الكلدان، وعندما مر المأمون في عام ٢١٨ هـ ٨٣٣ م، بحران لفت انتباهه زي كهنتهم الغريب، فسألهم عن ديانتهم وأرشدتهم أحد المسلمين إلى اسم الصابئة، إحدى الديانات التي ذكرها القرآن الكريم. وفي هذه الفترة (٢٠٤ - ٢١٨) نشطت الحرف والصناعات العلمية كالموازين والاسطرلابات قال ابن النديم «كانت الآلات تعمل في حران، ثم نبشت وظهرت ولكنها ازدادت واتسع للصناعات العمل في الدولة العباسية منذ أيام المأمون إلى وقتنا هذا (سنة ٣٧٧ هـ ٩٨٨ م)^(٤٧) وقد شاهد ابن النديم، عند بعض علماء بغداد، ذات الحلق التي أمر المأمون بصنعها، وصنعها له علي بن عيسى الحراني الإسطرلابي تحت إشراف خلف المروزي ومن اشتهر من الصناعات الحرانية في مدينة الرقة جابر بن سنان البتاني الرقي، وفراس بن الحسن الحراني، وأحمد بن إسحق الحراني^(٤٨).

أظهر بعض الحرانية إسلامهم ولكنهم ظلوا ييطنون ديانتهم، وقد أشار أبو عروبة الحسن بن محمد بن أبي معشر الحراني (٢٢٥ - ٣١٨)، صاحب كتاب الجزيرة الذي أسلم، وحسن إسلامه، فنبه إلى خطورة سلوك الصابئة الحرانية، الذين يظهرون الإسلام تقيّه، وظلت نساؤهم على دين آبائهن، وكانت الديانة الحرانية، تؤخذ عن طريق الأم. فحُرِّمَ على من أسلم من الحرانية الزواج بنساء حرانيات. وكان ذلك التحريم سبباً في نقصان عددهم.

وفي مطلع القرن الرابع الهجري، هاجرت بعض العائلات إلى بغداد، وبعضهم إلى المغرب العربي والأندلس، وفي تلك الأقطار البعيدة انفرط عقدهم، وأسلموا، ولم يبق منهم أحد في مطلع القرن السادس الهجري.

بنية حران المعمارية:

نشأت حران في سهل فسيح وعلى بعد عدة كيلومترات منها، ترتفع بعض الجبال القليلة الارتفاع.

كانت بيوت الفقراء، قبب من اللبن المجفف، بينما بيوت ذوي اليسار والتجار من الآجر والخشب، لأن استخدام الخشب باهظ التكاليف ولكل دار باحة سماوية.

أما عن شكل المدينة، قال عنها أبو الريحان البيروني «حران مدينة منسوبة إلى القمر، وهي على صورة الطيلسان»^(٤٩) والصواب إنها مدينة مستطيلة ويقطعها شارعان متعامدان من الشمال إلى الجنوب، والآخر من الشرق إلى الغرب، وفي مركز تقاطعهما يوجد المعبد، والقصر وساحة البيع والشراء، وعنهما تتفرع الشوارع، والأزقة وهذا الشكل استقر عليه البناء في المرحلة البيزنطية.

يحيط بالمدينة سور حجري، من الحجارة المنحوتة في نهاية من المتانة والقوة^(٥٠). يتخلل السور ثمانية أبواب في كل جهة بابان.

وعندما زارها ابن جبير سنة (١١٨٥) وجدها كثيرة الخلق، واسعة الزرق، جمعة المرافق، على أحفل ماتكون المدن، وتكثر في المدينة، الآبار المالحّة، التي يطلق عليها في الشتاء مياه نهر مجراه بالجهة الشرقية، بين سورها، وجبانتها ومنبعه من عين على بعد من البلدة، فيبقى الماء الحلو فوق الماء المالح، لا يختلط فيه، حتى نفاذه في نهاية فصل الخريف^(٥١). وكانت الآبار (الجباب) والصهاريج رائجة وكانت فوهاتنا من الرخام المحكم الخרט، وتزود الآبار بأنابيب من الفخار، التي تحمل مياه المطر أو من مياه النهر إلى البيوت^(٥٢).

وحول البلد حقول مزروعة بالحبوب والأشجار المثمرة والكرمة والزيتون. قال المقدسي: «ومن حران يجلب القبيط (ناطف الخرنوب) وعسل النحل، في دنان كبيرة والقطن والموازين واللوز والسمن والخيل والحياد^(٥٣). واليوم مدّت أقيّة حديثة لسقاية سهول حران، من مياه سد أتاتورك، على نهر الفرات.

أهم المنشآت المعمارية في حران:

معبد هيكل الصورة الذي أصبح الجامع القديم:

استولى عياض بن غنم على هذا المعبد، وحوله إلى مسجد جامع، ولا زالت أثاره. قال عنه ابن جبّير «كان في غاية التقانة والتنظيم. وقد جُدد أكثر من مرة، حتى صار درة في الحسن. له صحن كبير فيه ثلاث قباب على أسوار من الرخام، وتحت كل قبة، بئر عذبة، وفي الصحن أيضاً قبة رابعة عظيمة، قد قامت على سوار من الرخام، دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام، عظيم الحجم، دوره خمسة عشر شبراً. هذه القبة من بنيان الروم، وأعلاها مجوف، كأنه البرج المشيد، يقال أنه كان مخزناً لعدتهم الحربية. والجامع المكرّم مسقوف بجوائز الخشب، وجداره المتصل بالصحن الذي عليه المدخل مفتوح كله أبواباً عددها تسعة عشر باباً، تسعة يميناً وتسعة شمالاً، والتاسع عشر منها باب عظيم وسط هذه الأبواب بهي المنظر كأنه باب من أبواب المدينة الكبرى، وبقيّة الأبواب على شبه أبواب مجالس القصور»^(٥٤).

وبالقرب من هذا المسجد قصر الأمانة وأسواق المدينة، فعلى يساره يقع سوق الجزارين، وعلى يمينه يقع سوق النسوان، ثم بقية الأسواق حوله، وهي منتظمة عجيبة الترتيب، مسقوفة كلها بالخشب، فلا يزال أهلها في ظل ممدود، فتخترقها كأنك تخترق داراً كبيرة الشوارع، وقد بني عند كل ملتقى أربع سكك، أسواق منها قبة عظيمة مرفوعة مصنوعة من الجص هي كالمفرق لتلك السكك»^(٥٥).

أما القصر الذي بناه نابونيدس (٥٨٦ ق. م) فلا أثر له وإنما بقي أنقاض قصر الأمانة، الذي بناه مروان بن محمد (الحمار) بجانب المسجد الجامع.

معبد بيت أنطاكية:

هو الذي تزعم الصابئة، أن الذي بناه، سقلا ييوس إله الطب. وهو المعبد الذي بناه

المكدونيون على أثر فتح الإسكندر المكدوني لحران. وكان بالقرب من سوق الجزارين، وقد شاهده المسعودي سنة ٣٣٢ هـ ٩٤٤ م، وقال عنه: «هو معبد الصابئة ومحفلة السري، وقد كتب على بابه، قول لأفلاطون، ترجمه له مالك بن عقوب الحراني «من عرف ذاته تأله». وكان هذا المعبد معظماً عند الصابئة الحرائية، زاره ثابت بن قرة قبل توجهه إلى بغداد. وقد ذكر الخارث بن سنان بن سنباط الحراني وهو من ملكية النصاري «قال: إن للصابئة، رموزاً وأسراراً، يخفونها وقرابين يقربونها من الحيوانات، ودخن يبخرون بها»^(٥٦).

نعم إن الصابئة الحرائية هم فرقة فيثاغورية، كانوا يتعبدون سرّاً، ولهم إشارات للتعارف بينهم منها «النجمة الخمسة»، وهي علامة الصلبة. كما قال عنهم لوسيان السمساطي (١٢٥ - ١٩٢) وهو من مؤيديهم كانوا يلبسون الثياب البيض، ويمشون حفاة الأقدام لزهدهم بالحياة^(٥٧). قال ابن شداد في كتابه الأعلان الخطيرة «وأخذ عياض هيكلمهم العظيم، وجعله جامعاً، وعوضهم عنه بالهيكلم الآخر، الذي ظل بأيديهم، إلى أن أسلمت كل الطائفة، فهُدم هذا المعبد وتُرب عام ٤٧٩ هـ، وهدمه محمد بن الشاطر، قبل تسليمه للملك شاه السلجوقي.

أبواب مدينة حران:

للمدينة ثمانية أبواب في كل جهة بابان:

الجهة الجنوبية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ - باب الرقة: في الزاوية الجنوبية الغربية من السور، كان هذا الباب أثناء زيارة المسعودي للمدينة مغلقاً وهو مقابل «مصبتا» عين الذهبانية، أو عين العروس جنوب تل أبيض، قال ابن جببر: ولها بقبليها نحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك فيه عين جارية لأينا إبراهيم الخليل، ولسارة ومتعبداً لها^(٥٨).

وباب الرقة في الوقت الحاضر مفتوحاً للمارة وهو الشارع الرئيسي في أنقاض حران الحالية شاهده في سنة ١٩٩٠ مفتوحاً للمارة.

٢ - باب بغداد: يقع في الطرف الجنوبي الشرقي من السور، وكان قديماً يدعى باب ترعوز (الزهرة)، ويسميه السريان (ترعيل) أي باب الله، وهو يقابل آثار قرية باب الهوى، شرق تل أبيض. وبالقرب منه قبر مكشوف، يزوره الناس اليوم، ويدعونه

الباب الأول

الشيخ أبي خيوط، ربما كان للشيخ الزاهد (سلمة الحراني). قال عنه ابن جبير «كان رجلاً صالحاً عليه سيماء عباد الله المقرين».

الجهة الشرقية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ - باب الماء: ويقع في الزاوية الشرقية الجنوبية، وهو مقابل (دير كاذا) التي تعني بالسريانية (ها هنا)، ويقول عنه الحرانية، أن صنم الماء الذي يقال أنه هاجر إلى الهند وقال إنه لن يدخل حران وسيبقى هاهنا، وبني الدير تخليداً لرحيله، وترقباً لحجيئه.

٢ - باب فندق الزيت: ويقع مقابله قبر إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس قبض عليه مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ومات بالطاعون في حبسه سنة ١٣٢هـ. وهو مزار يزوره الناس ويقدمون له النذور. وقد قال عنه الشاعر سديف بن يمين المقتول سنة (١٤٦ هـ ٧٦٣م) وكان شديد التعصب على الأمويين:

قد كنت أحسبني جلدأ فضعضني قبر بحران فيه عصمة الدين

الجهة الشمالية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ - باب النسر: كان عليه رسم نسر ملكي وبه كان يتفاهل الحرانيون. لأن حران قال عنها بطليموس طولها (٣٠' ٧٢°)، وهي في الإقليم الرابع، ولها شركة في العواء (٩°). ولها النسر الواقع كله. ولها بنات نعش، كلها تحت (١٣°) من السرطان يقابلها مثلها من الجدي بيت ملكها، ومثلها من الحمل بيت عاقبتها، ومثلها من الميزان (٩°) والنسر تسمية أطلقها العرب على المجموعة الكوكبية (النسر الواقع)، التي تضم ألمع النجوم، في النصف الشمالي من الكرة السماوية، وكان يرمز بالنسر لآلهة النصر المجتحة.

جاء في تعليم (مار إداي) توبيخاً لأهل الرها «تعبدون النسر كالعرب والقمر كالآخرين - يقصد أهل حران - جيرانكم الذين هم مثلكم» (٦٠)، وكان باب النسر مقابل الرها.

٢ - باب التبن: وهو مقابل الرض، الذي تجمع فيه محاصيل الحنطة (البيادر) قبل دراستها، ثم هو مكان لبيع التبن أيضاً في حران.

الجهة الغربية:

يوجد في هذه الجهة بابان:

١ - باب الفدان: يوجد في الزاوية الجنوبية الغربية من السور. وهو مقابل تل الفدان (فدان آرام) على بعد ١٠ كم من حران، وفي ظاهره بقايا كنيسة بنيت تكريماً للقديس هيلديوس، الذي قتله الملك الفارسي شاپور الثاني (٣١٠ - ٣٨٠) عندما احتل حران سنة (٣٥٩) م. قال ابن العبري رغم حب المهدي للسحر والعرافة والقدر أشهر الاضطهاد للحرانية في موضع يقال له «الفدان الكبير» وكان غاصباً بهم^(٦١).

٢ - باب يزيد: في الزاوية الشمالية الغربية من السور، بالقرب منه تربة الزاهد العابد أبي البركات حيان بن عبد العزيز، وقربه مسجد حيان، وهو مزار عامر بالمصلين، ويؤمه السواح أيضاً.

المراجع:

- ١ - رحلة ابن جبير ص ١٩٧ دار التراث بيروت ١٩٦٨.
- ٢ - معجم البلدان - مادة حران - ياقوت الحموي دار صادر بيروت ١٩٥٥.
- ٣ - تاريخ الرسل والملوك ج ١١ ص ٢١٣ الطبري.
- ٤ - مختصر تاريخ الدول ص ١٧ ابن العبري. دار المسيرة ١٩٨٦.
- ٥ - صفة جزيرة العرب ص ٣٦ الهمداني، مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣.
- ٦ - الصابغة المندائية ج ١ ص ٤٤ الليدي دوراور ترجمة نعيم بديوي بغداد ١٩٨٧.
- ٧ - تاريخ سورية ج ١ ص ٢٢٧ أسد الأشقر.
- ٨ - الطب العربي ص ٤٤ أدوارد جورج براون ترجمة أحمد شوقي حسن القاهرة ١٩٦٦.
- ٩ - الموسوعة الإسلامية - مادة حران.
- ١٠ - تاريخ الأدب السرياني منذ نشأته حتى الفتح الإسلامي ص ٤٠ د. كامل مراد دار المقتطف القاهرة ١٩٤٩.
- ١١ - أرها المدينة المباركة ص ٥٧ سيغال، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا، دار الرها، حلب.
- ١٢ - تاريخ الزمان ص ٤٩ ابن العبري.
- ١٣ - مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٨ المسعودي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد كتاب التحرير القاهرة ١٩٦٦.
- ١٤ - الآراميون ص ٩٩ دوبونت - سومير ترجمة البيرابونا بغداد ١٩٦٢.
- ١٥ - تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ج ١ ص ٨٥ مار يعقوب. دمشق ١٩٥٢.
- ١٦ - التثبية والإشراف ص ١٢٤ المسعودي تحقيق اسماعيل عبد الله الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
- ١٧ - الرها المدينة المباركة ص ١٧٥ سيغال ترجمة جبرا يوسف جبرا حلب ١٩٨٨.
- ١٨ - المجلة البطريركية العددان ١٥٤ و ١٥٥ رحلة الراهية ايجيريا ص ٢٣٢ دمشق ١٩٩٦.

- ١٩ - معجم البلدان مادة حران.
- ٢٠ - الرها المدينة المباركة ص ١٧٣.
- ٢١ - تاريخ الكنيسة الانطاكية المارونية ج ١ ص ٢٩ الخوري عبد الله الشبايبي بيروت ١٩٠٠.
- ٢٢ - الرها المدينة المباركة ١٧٥.
- ٢٣ - الأدب السرياني ص ١١٢ د. كامل مراد دار المقتطف القاهرة ١٩٤٩.
- ٢٤ - الرها المدينة المباركة ص ٢١١.
- ٢٥ - فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٣٩ تحقيق عبد الله أنيس الطباع دار النشر للجامعيين بيروت ١٩٥٧.
- ٢٦ - كتاب المجلد ص ٦١ متى بن عمر والطبرهاني اعادت نشره دار المثنى - بغداد.
- ٢٧ - فتوح الشام ج ٢ ص ٨٣ للواقدي القاهرة ١٩٥٥.
- ٢٨ - تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٣ والاعلان الخطيرة لابن شداد ج ١ ص ٤٢.
- ٢٩ - فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٤٠ تحقيق عبد الله عبارة بيروت ١٩٥٧.
- ٣٠ - المصدر السابق ص ٢٠٧.
- ٣١ - الفهرست ص ١٤ ابن النديم تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٧١.
- ٣٢ - فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٥٠.
- ٣٣ - أخبار بطارقة كرسي المشرق - من كتاب المجلد ص ٥٤ - ٥٥ تأليف عمرو بن متى تحقيق هتريكوس جسيموندي - طبع روما ١٨٩٦ نشر دار المثنى بغداد.
- ٣٤ - أحوال نصارى بغداد ص ٧١.
- ٣٥ - الرها المدينة المباركة ص ٢٥٥ سيفال ترجمة يوسف جبزا حلب ١٩٩٠.
- ٣٦ - البلاذري ص ٢٥٠.
- ٣٧ - أهل الزمة في الإسلام ص ٩٧ ترتون ترجمة حسن حبشي دار المعارف بمصر ١٩٦٧.
- ٣٨ - كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٣ الاصفهاني.
- ٣٩ - كتاب الأيام الستة ص ٩٢ مار يعقوب الرهادي ترجمة صليبا شمعون - دار الرها حلب ١٩٩٠.

- ٤٠ - المصدر السابق ص ١٠٢.
- ٤١ - كتاب الخراج ص ٢٣ - ٢٤ لأبي يوسف.
- ٤٢ - الجزية والإسلام ص ١٠٦.
- ٤٣ - قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٣٣ ول ديورانت - دار المعارف - القاهرة.
- ٤٤ - كتاب الوزراء ص ١٣٤ الجشهياري تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
- ٤٥ - المصدر السابق ص ٦٨.
- ٤٦ - تاريخ الزمان ص ١١ ابن العبري، نقله إلى العربية اسحق أرملة دار المشرق ١٩٨٦.
- ٤٧ - الفهرست لابن النديم ص ٣٤٢.
- ٤٨ - المصدر السابق ص ٣٤٣.
- ٤٩ - الآثار الباقية ص ٢٠٥ البيروني. تحقيق أدوارد سخاو
- ٥٠ - المصدر السابق ص ٢٠٥.
- ٥١ - رحلة ابن جبیر ص ١٩٩.
- ٥٢ - مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٩ كتاب التحرير عدد (١٧٧) القاهرة ١٩٦٦.
- ٥٣ - أحسن التقاسيم ص ٧٨ المقدسي.
- ٥٤ - رحلة ابن جبیر ص ١٩٩.
- ٥٥ - المصدر السابق ص ١٩٩.
- ٥٦ - مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٥ للمسعودي.
- ٥٧ - قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٨٢.
- ٥٨ - رحلة ابن جبیر ص ١٩٩.
- ٥٩ - ياقوت الحموي معجم البلدان مادة حران.
- ٦٠ - الرها المدينة المباركة ص ٦٥.
- ٦١ - تاريخ الزمان ص ١١ ابن العبري.

الفصل الثاني

الصابئة الحمرانية والمندائية

التسمية والأصل:

قيل إن أصل كلمة صابئة في العربية جاءت من الفعل «صبأ». لقولهم: صبأت إذا خرجت من شيء إلى شيء آخر. والصابئون هم الخارجون من دين إلى دين آخر^(١). كان مشركوا قريش، يطلقون على محمد وأتباعه، في بدء الدعوة اسم «الصبأة». قال المقرئزي: إن سهيل بن عمرو. صاح يا آل غالب... أثاركون محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون غيركم وأموالكم؟^(٢).

لقد عدّ القرآن الكريم «الصابئة» بين طوائف المؤمنين. قال تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى، ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (سورة المائدة: ٦٩).

وفي الآرامية جاء اشتقاق كلمة «صابئة»، من الفعل (صبا) أو (صبع) الذي يعني الإغتسال أو الإرتماس بالماء الجاري، ولا زالت كلمة صابئة تطلق على «المغتسلة» في جنوب العراق وغرب إيران. وفي العربية «صبع يده في الماء، أو الزيت غمسها».

قال محمد بن إسحق النديم (توفي ١٠٢١): وبنواحي دست ميسان، قوم يعرفون «بالمغتسلة» وهم يطلقون على أنفسهم اسم «المندائية»^(٣). لأن كلمة مندائي، تعني العارف منه الفعل الآرامي (مدعا)، أي عرف وعلم.

وأشار علي بن الحسين المسعودي (المتوفي ٩٥٧) إلى الفرق بين الحمرانية، والكيمارية الذين ديارهم بلاد واسط والبصرة من أرض العراق^(٤). وقد أشار ابن سعيد المغربي، إلى أن أهل البطائح (قرب البصرة) معظمهم من الكلدان ويسمونهم الصابئة^(٥).

كان السريان يطلقون اسم الكلداني، على الصابئي الوثني. وبهذا الوصف نعت مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) جيرانه أهل حران (بالكلدان أو الحنوفون) ويعني بذلك أنهم وثنيون. قال القس بطرس نصري الكلداني «وصار اسم الكلدان كناية عن الماهرين في علم الهيئة، وملاحظة النجوم، وبعد ذلك استعير الاسم للدلالة على

صابئة حران هم اخوان الصفا

العرافين والمشتغلين في الكهانة والفأل المحرم وصار الاسم يشير إلى عبدة الأوثان، من الاسم اليوناني «باجانوس Paganus الذي هو بمعنى الوثني»^(٦).

كان السريان يطلقون على حران «عش الوثنية» لأنها بقيت محافظة على الفكر الهلنستي الوثني، وكانت النحلة الحرانية مزيج من الفلسفة الفيثاغورية، والأفلاطونية الحديثة كما كانوا مزيجاً من الآراميين واليونان. قال عنهم المسعودي: «ولهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة إلا أنهم حشوية الفلاسفة وإنما أضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة، لأنهم يونانيون، وليس كل اليونانيين فلاسفة، والفلاسفة حكماؤهم»^(٧). كما أشار إلى نزعتهم الهرمسية أو الأفلاطونية المحدثة بقوله: «وقد نبه بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى، وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله، وإن كل ما يحدث في هذا العالم، إنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله، فعظموها وقربوا لها القرابين، لتتفعهم فمكثوا على ذلك دهرًا. وأمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا أصناماً وتمائيل على صورها وأشكالها وبنوا لكل صنم بيتاً، وهيكلًا مفرداً، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب»^(٨) التي يقدمون لها القرابين الحيوانية، والبخور الخاص بها لأن هذه الكواكب هي التي توهبهم طول الأعمار وظهور المياه وغرضها.

الحرانية والمندائية في الفكر الإسلامي:

أطلق المؤرخون المسلمون اسم الصابئة على الطائفتين الحرانية والمندائية. وكل ما قالوه إن الصابئة قسمان:

أحدهما: القائلون بالهياكل وهم عبدة النجوم، والآخرون: القائلون بالأشخاص وهم عبدة الأصنام.

ثم جاء أبو سليمان السجستاني فقال: إن الحرانية هم المعروفون بالصابئة وكانوا يسكنون مدينة حران، ويتخذون أصناماً على مثال الهياكل السبعة^(٩)، وعن المندائية أو المغتسلة قال الزمخشري في كشافه «الصابئون هم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية، وعبدوا الملائكة وبقاياهم في جنوب العراق».

إن الصابئة المندائية: قوم موحدون لله وكما كانوا خليطاً من الآراميين والفرس كذلك كانت ديانتهم مزيجاً من الفكرين اليهودي والمناوي لطول إقامتهم في (دست ميسان).

الباب الأول

وإن كانوا هم ينكرون أي صلة أو علاقة لهم باليهودية أو المانوية، ويقولون عن أنفسهم طبقاً لذكرياتهم في كتابهم المسمى (حران كوثا): أنهم هاجروا من أرض كنعان إلى شمال سورية على أثر حروب بينهم وبين اليهود فهاجروا إلى حران، واستقروا مدة من الزمن، ثم هاجروا إلى بطائح البصرة، من مدينة حران ومن جبال (ماداي) حيث الينابيع الساخنة في الشتاء، والباردة في الصيف، ولازال يجري بالقرب من حران نهر الميدين (نهر الجلاب)^(١٠) وحتى عام ١٩٩٠ قبل جفاف عين عروس كان هناك نبع كبريتي يستحم فيه الناس في الشتاء للاستشفاء من أمراضهم الجلدية والعصبية.

ويؤكد المندائيون عدم صلتهم باليهودية والمجوسية والمسيحية يقولون في كتابهم (كنز رابا): بسم الله المتعالي... لا أمارس طقوساً بالنار، وليست يهودياً ولا مسيحياً ولكنني أمارسها بالماء الجاري الطاهر، الذي وهبه الله، من أجل طهارة البشر ومنحهم الحياة^(١١).

بل وينكر المندائيون أي صلة لهم بالخرانية كمذهب ديني يقول المندائي حين خروجه من التعميد بالماء الجاري: «بسم الله المتعالي... إني خرجت من الماء الجاري، والطاهر بروح طاهرة، وأديت مناسك التعميد. نحمد الله ونعبده عبادة خالية من الأجرام السماوية، وإن الشمس نور مسخر لنا، وهي فاقدة لأية قدرة وعبادتها باطلة^(١٢). بل وينكرون علي الخرائنة سجودهم للأصنام، يقول كتابهم (الكنز رابا) «ولا تسجدوا للشياطين، والأصنام وآلهة الكذب»^(١٣).

ومن المفكرين والباحثين في النحلة المندائية الباحث العراقي عبد الرزاق الحسيني كتب عنهم دراستين:

قال في الدراسة الأولى: إنهم عبدة الكواكب. ووجد بينهم وبين الصابئة الخرائنة، ثم قال في الدراسة الثانية: بعد أن اطلع على كتبهم وحقيقة شعائهم «إنهم قوم يؤمنون بالخالق، جل شأنه، وأنه واحد أزلي، لا أول لوجوده، ولا نهاية، منزّه عن المادة، لا تناله الحواس، ولا يفرضي إليه مخلوق، وأنه لم يلد، ولم يولد، وهو علة وجود الأشياء، ومكونها ولا يختلف إعتقادهم في الخالق عن اعتقاد المؤمنين^(١٤). وأن الله يفصل بينهم وبين يوم القيامة لقوله تعالى «إن الذين آمنوا، والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (سورة الحج: ١٧).

صابئة حرّات هم اخوان الصفا

إن المندائية طائفة مؤلهة يتبعون وصايا نبي الله يحيى عليه السلام ويقدسون الماء الجاري ويتعمدون به.

الصابئة في الدراسات الحديثة:

أعني بالدراسات الحديثة، ماكتبه المستشرقون حول الصابئة، وقد انقسموا إلى قسمين:

- طائفة منهم نفت أية علاقة بين المندائية والحرانية.
- والطائفة الأخرى قالت بوجود علاقة بينهم.

أولاً - الطائفة الأولى:

ومنهم المستشرقون الأوكرانيي خولسون. قال: إن الحرانيين لم تكن لهم وحدة مع المندائيين لأن الحرانيين عبدة كواكب، بينما يغض المندائيون عبدة الكواكب^(١٥). ومن وافقه على رأيه المستشرق أوليري، الذي اعتبر أن الصابئة الحقيقيين، هم المندائية في جنوب العراق ولا علاقة لهم بخران. وإلى هذه الطائفة من المفكرين أضمت صوتي وأدلي بالحجج التالية لنفي العلاقة بين الحرانية والمندائية.

١ - اختلافهم في بناء المعابد:

يسمي المندائية معبدهم (بالمندى)، وهو عبارة، عن كوخ من القصب، منصوب على شاطئ نهر جار أو نبع ماء جار حي وباب المندى متجهة نحو الجنوب، ومحراه نحو الشمال (نجم القطب) لاعتقادهم أنه المكان الذي يحكم فيه، على أعمال الناس بالصلاح، أو الفساد يوم القيامة.

ومعابد المندائية خالية، من أي تمثال أو صنم لتقدّسهم الماء الحي الجاري. وفي المندى يمارسون صلواتهم العلنية بعد تعمدهم بالماء الجاري، وفيه يعقدون قران زواجهم، وفيه يقدمون القرابين في الأعياد. جاء في كتابهم (الكنز رابا): كل من صنع تمثلاً، أو صنماً أو جسماً ليعبده من دون الله، تكتوي شفاهه ويداه بنار حامية، ويتمنى الموت ولكن الموت لا يدركه^(١٦).

بينما بنى الحرانية، معابدهم الحجرية، على الطرز المعمارية للمعابد الوثنية الرومانية، وأقاموا فيها هياكل وتمائيل للكواكب السبعة، وفيها يمارسون صلواتهم بصورة سرية. حكى عنهم الحارث بن سنان بن سباط الحراني، وهو من ملكية النصارى ذو معرفة،

الباب الأول

ودراية بمذاهب القوم. قال: «إن لهم هياكل على أسماء الجواهر العقلية، أو الكواكب فمن ذلك هيكل العقل، وهيكل النفس أو الصورة، وهذه مدورات الشكل وهيكل زحل (مكعب) وهيكل المشتري (هرم)، وهيكل المريخ (مستطيل)، وهيكل الشمس (مربع)، وهيكل عطارد (مثلث)، وهيكل الزهرة (مثلث في جوف مستطيل)، وهيكل القمر (مثن الشكل)، وكانوا يقدمون لها القرابين، والبخور في أعيادهم»^(١٧).

إن الاختلاف في بناء المعابد، كان استجابة لشروط المناخ والجغرافية، حيث المناخ المعتدل المائل إلى الحرارة، والمياه المتدفقة باستمرار والفيضانات التي تدمر معالم الحياة، على شواطئ نهر دجلة والفرات. إن الديانة المندائية هي من رواسب الديانات القديمة، التي تكونت في بلاد ما بين النهرين، منذ الألف السابع قبل الميلاد. بينما كانت الديانة الحرائية هي مزيج من الديانة السورية التي تؤله النجوم وقد امتزجت بالفكر الفيشاغوري والهرمسي اليوناني.

٢ - اختلافهم في طقوس الصلاة:

الصلاة هي عماد الدين في كل ديانة. وتسمى الصلاة «البراخة» أي المباركة، وتسبق عند الصابئة (بالرشامة) أي الوضوء. يتلو المصلي المندائي قبل غسل يديه، ووجهه ورجليه، «بسم الله المتعالى... واسم الملك مندا وهي، الملك المقرب من عرش الله. السلام عليك، أيها الملك (برباوس) أيها الطاهر الجاري. نويت الصلاة لله الواحد الأحد، وعليك السلام (يابرباوس) أيها الملك المقرب من العرش، ويا حارس الحياة الجارية»^(١٨).

يصلي المندائي ست صلوات ثلاث في النهار، وثلاث في الليل. أما الحرائية فالمفترض عليهم من الصلوات في كل يوم ثلاث. أولها - قبل طلوع الشمس بنصف ساعة، أو أقل لتتقضي، مع طلوع الشمس، وهي ثماني ركعات وثلاث سجعات في كل ركعة. والثانية - إنقضاؤها، مع زوال الشمس، وهي خمس ركعات، وثلاث سجعات في كل ركعة.

والثالثة - مثل الثانية إنقضاؤها عند غروب الشمس.

وصلواتهم النافلة هي بمنزلة الوتر عند المسلمين، ثلاثة في كل يوم. الأولى في الساعة الثانية من النهار، والثانية في الساعة التاسعة من النهار، والثالثة في الساعة الثالثة

من الليل (التوقيت بالعربي اليوم ١٢ ساعة يبدأ من طلوع الشمس في الساعة الأولى والغروب الساعة الثانية عشرة) ولا صلاة عندهم إلا على ظهور^(١٩).

٣ - طقوس قبول الحدث في الديانتين:

يتجلى الاختلاف واضحاً بين الديانتين المندائية والحرانية، في شعائر قبول كل منهما للحدث في استلام مبادئ الديانة.

كيفية عمادة طفل عند المندائية:

العقيدة الأساسية عند المندائية «كل من تعمد بالمعمودية يسلم» وهي بالآرامية «إنش صابي بمصبته شلمي». وفي هذه المقولة تنعكس كل عقيدتهم.

- يحضر الطفل قبل العماد مع كفيله «الاسكنداء» إلى الكاهن «الترميذة»، ومعهما غصن أخضر من الآس، ووعاء مليء بالماء (الكباش)، وفيه خاتم من نحاس أصفر، وطيور أبيض من حمام، ويتوجه الجميع إلى شاطئ النبع، أو النهر الجاري.

- يؤدي الحدث المراد تعميده «الرشامة» أي الوضوء، وهو داخل الماء الجاري، ووجهه نحو الشمال، بينما يقف «الترميذة» نحو القبلة، ثم يلف الغصن، على شكل إكليل يضعه، على رأس الحدث، ويده عصا من الزيتون، «مركنه» ويقوم الكاهن بالأدعية، بعد أن يسأل الطفل عن اسمه في العماد، «ملواشه» ويحدد الساعة والشهر الذي ولد فيهما الطفل المعمد.

- ثم يبدأ الترميذة بالدعاء «البوثة» ويضع على رأس الطفل قطعة من القماش الأبيض فوق إكليل الآس، ثم يضع في خنصر يد الطفل أو الحدث الأيمن الخاتم. مكتوب عليه بالآرامية «الشوم ياور» ومعناه «الله المعين». ويظل هذا الخاتم بيده مدى الحياة ثم ليقيم معه.

- ويردد الطفل المتعمد، أو وكيله «أنا المعمد (فلان بن فلانة) قد غطست في الماء الجاري الطاهر والمقدس، وتعمدت كتعميد (بهرام) ابن الأجداد الكبار، وإن تعميدي هذا سيحفظني من شر الشياطين، ويعدني عنها، ويزيد إيماني ليذكرني دائماً، اسم الله الكبير والعظيم، واسم الملك (منداهي)، الملك العظيم، ثم يغطس في الماء الجاري، ثلاث مرات، وهو متوجه نحو الشمال^(٢٠).

ثم يتوجه الحدث أو كفيله نحو الكاهن، ويقول: أنا وبقدرة من الله والإتكال عليه، وبكامل رغبتي، وحررتي، دخلت الماء الجاري، وتعمدت استناداً لعاداتي، وقبلت

الباب الأول

الطهارة، ولبست لباس الدين الطاهر، ووضعت الإكليل المقدس النوراني على رأسي، ويشهد هذا الماء الجاري على أعمالي الحسنة.

- ثم يأخذ الكاهن قليلاً من الماء براحتيه ليسقي المتعمد.

- ثم يغمس الكاهن يده بزيت السمسم ويمسح على وجه المتعمد، ويطلب المغفرة له ولوالديه، ثم يأخذ منه (الكشط) العهد والميثاق.

- ثم يشرع الترميدة، بذبح الطير، وهو يدعو «عليك اسم الله، واسم ملكا مندادهي الملك المقرب من عرش الله».

- وعندما يتم الفداء، عن المتعمد يقول الكاهن: «ليباركني اسم الله المتعالي واسم ملكا مندادهي المقرب من عرش الله، إني أديت عمل الذبح، بسكين حديدي بأمر من الله، وإنه غافر لذنوبي»^(٢١).

- ثم يقدم الترميدة، الخبز المقدس (البهثا)، المكون من القمح والملح والماء، ويقدم معه بعض فاكهة الموسم، كالجوز والتمر والرمان والبصل، وطير الحمام ليأكل منها الحدث المتعمد.

- ثم يقدم للمتعمد لباس الرسته (المكون من خمس قطع) ثوب أبيض وعمامة بيضاء وحزام صوفي (الهريانة)، وسروال أبيض (شلوار)، وشال أبيض تلفح به الرقبة).

- ثم يبارك الترميدة، الكفيل، والحضور ويحرق البخور (السندلوس) ذو الرائحة الزكية.

كيفية اطلاع الحدث على أسرار المذهب عند الحرائية:

الديانات السرية والمذاهب المغلقة، تهيء أفرادها قبل استلامهم مبادئ الدين في طقوس خاصة بهم، ومن تلك الديانات وأصحاب المقالات (الحرائية).

وفي رسائل إخوان الصفا وصف دقيق لكيفية استلام الحدث لدينه. قالوا:

- يحضر الفتى ومعه كفيله، في يوم معلوم، يجمع رئيس الكهنة، فيه كل الأحداث الذين يودون «سماع السر». في الصباح الباكر من يوم الأحد. فيعزى أحدهم، ويقبض على عضده، كاهنان ثم يدخلانه، وهو مشدود العصابة على عينيه. ويمشي القهقري حتى يصل إلى (قدس الأقداس) في المعبد. فيدخل ويطبق الباب، والسرّج تنقد، والحجامر تدخن بأنواع البخور والدخن العطرة.

يقول الكاهن: أتحب أن تدخل في ديننا، وتسمع ملائكتنا؟.

يجيب الحدث: نعم.

الكاهن: إن أقمت على ديني، وحفظت سري، فإن رأسي، يبقى عالياً، وإكليلك ثابتاً.

يخاطب الكاهن الكفيل: أتكفله على إقامته على ديني وحفظ سري؟.

الكفيل: نعم!

- يضع الكاهن الحدث على بساط أمام المائدة، والفتى على جانبه الأيسر، ويتلو على رأسه أسماء الملائكة وهي (٨٧) اسماً على رأسهم (جرجاس). ثم يتابع الكاهن كلامه: طوباك إذا صبرت من أهل الاستماع، لهذه الأسرار فإن الله يطهرك. ويتناول سكيناً من الحديد ليذبحه... فيتقدم الكفيل، ويقدم خاتمه رهناً عنه. ويقول: إنه سيحفظ المناسك، ويقيم على الدعوة ويكتم السر. فيعيد الكاهن الخاتم إلى الكفيل، ويأخذ بدلاً عنه الديك، وهو يقول: «إني أقبله نفساً بدل نفس، وأندبه بين يديّ الشمس، المحبة للنفوس وجرجاس. ويقوم بعملية ذبح رمزية على عنق الحدث وهو يتمتم: يا جرجاس، اقبل هذه الذبيحة، وارك هذا الغلام لأبوية.

- ثم يحمي على السراج خاتماً من حديد، ويكوي يد الطفل اليمنى مكرراً ذلك (٩٩) مرة. ثم يكويه، ببعض عيدان الطرفاء، كياً لطيفاً، على صدره وجبهته ثم يلبسه ثياباً بيضاء، وخفاً من جلود القرابين الطاهرة، ويشد وسطه بعمامة بيضاء، ويعطيه فصاً من ملح على صورة مثلث، رمزاً لهيكل عطارده»^(٢٢).

في عملية الذبح والفداء إعادة للموروث الآرامي القديم عندما افتدى إبراهيم الخليل ابنه بكبش (بذبح عظيم) وأما استبداله بالديك، فلأن سقراط قال موصياً عند موته «اذبحوا عني ديكاً في الهيكل، فإنه نذر علي».

٤ - اختلافهم في عقيدة الحشر والمعاد:

الديانة المندائية، ديانة موحدة، تؤمن بخلود الروح، وبالحشر والمعاد. عندما يموت الإنسان، تبقى روحه، تحوم حول القبر ثلاثة أيام، ثم تحاسب في اليوم الثالث قبل أن تنطلق في عروجها نحو السماء السبع، وفي اليوم السابع، ترتفع نحو السماء الأولى وفي اليوم الثلاثين تصل إلى السماء السابعة، وفي اليوم الخامس والأربعين، تصل إلى مكان الحشر. (آلاما ايتاهيل). المكان الذي توزن به الحسنات والسيئات، ويحكم على

الباب الأول

الأرواح. إما الثواب أو العقاب. وتظل تنتظر، حتى يوم القيامة ليعود إليها جسدها، وتستقر بالجنة (الماد نهورا) أو جهنم (المادهشوخا).
- أما في الديانة الخرافية، فإن النفس خالدة أيضاً. ولكن النفس بعد الموت تحل في جسد آخر (تناسخ) إذا كانت ذات أعمال سيئة في الحياة الدنيا، وتظل تبدل أجسادها حتى تتطهر من الأدرا، بالمعرفة الإلهية، فإذا تطهرت النفس ارتفعت إلى عالم القدرة (عالم الأفلاك)، وتظل تنتظر يوم الحساب لتنعم برؤية البارئ سبحانه.

٥ - وفي الديانتين اختلاف في الدفن وتوجيه القبور:

فالمندائيون تتجه قبورهم (القاورا) شمال - جنوب. وللقر في الأعلى شكل دائري، ويوجه الوجه باتجاه الشمال. وتدفن مع الميت، قطعة من الخشب، ويضعون في فمه حصاة صغيرة، أو قليل من التراب، ويدفن مع الميت خاتم العمادة.
أما الخرايون فقبورهم تتجه (غرب - شرق) ويكون الرأس باتجاه الغرب والوجه نحو الأعلى باتجاه الشمال الشرقي، ويدفن مع الميت متاعه، وثيابه وخاتمته. وخواتمهم عليها تماثيل منحوتة على حجارة صغيرة (ومعظم فصوص الخواتم من العقيق). ولقبور الخرافية شواهد طويلة على شكل التماثيل.
وفي كلا الديانتين (الخرافية والمندائية) لا يظهرون الحزن على الميت فاللطم والبكاء محرمان.

٦ - اختلافهم في عقيدة خلق العالم:

للمندائية أسطورة حول خلق العالم مفادها:
أن العالم تم خلقه على ثلاث مراحل:
المرحلة الأولى: استغرقت ستة آلاف روبان (أي مايعادل ستين مليون سنة) وفي هذه المرحلة لم تكن الأرض في البداية جامدة ولا باردة وليس لها حدود واضحة ولم يكن عليها أثر للحياة وال عمران.
المرحلة الثانية: استغرقت ستة آلاف روبان أيضاً. وفي هذه المرحلة بردت الأرض وغطى سطحها مياه آسنة متعفنة، خرجت منها كائنات صغيرة.
المرحلة الثالثة: استغرقت ستة آلاف روبان. في هذه المرحلة خلق الله الملائكة والسموات السبع ثم خلق الله بعد مائة ألف سنة (آدم) فهاجمته كائنات شريرة فناداه

الله، يآدم تقدم وكن صاحب هذه الأرض. وهبط الملاك (ملك اهيول زيوا) ووضع على رأس آدم إكليلاً من الآس وهو رمز النور والطهارة.

ثم تضطرب أسطورة خلق آدم الذي هبط في جزيرة سرنديب. وتقول الأسطورة إن الله أخذ من طين الأرض، وضع هيكل آدم ثم تغلغت (نشمتة) في الجسم واستغرق ذلك (٣٥٦، ٤٤٥) سنة. ثم دب الفساد في الأرض بعد آدم فظهر آدم شتيل ليعيد العدالة للمجتمع البشري ثم خلق له من نفسه حواء، لتكون له زوجاً ومؤنساً، وانطلقا في الأرض، وعاشا على الزراعة، ثم صارت حواء تنجب توأمين ذكراً وأنثى، ثم أرسل الله ستين شخصاً من الملائكة مع أسرهم ليتزوجوا مع البشر ليكثر العالم، وكانت تعاليم آدم الأولى هي مضمون كتاب الكنز رابا.

ثم أرسل الله لآدم ملكين، قبضا روحه، وعرجا بها إلى السماء. ثم أرسل الله بعد (٢١٦) ألف سنة، رجلاً صالحاً مؤمناً يسمى (رام)، تسانده زوجته (رود) استطاع أن يعيد الهدوء إلى البشرية، وأزالا الحقد والكفر وعدم الطاعة والفقر، وأقاما العدالة.

ثم ظهر رجل مؤمن آخر، بعد مرور مائة ألف عام، ظهر (شوربامي) ترافقه زوجته (شرحيل) واستطاعا قيادة الناس، بعون الله، ولكن بعد مرور (٩٢) ألف سنة تفشت الشرور وساد الجهل وعم الفساد، فأرسل الله (نوحاً) تسانده زوجته (تورثيا)، وأمره أن يصنع فلكاً طوله (٣٠٠) ذراعاً وعرضه (٥٠) ذراعاً، وارتفاعه (٣٠) ذراعاً، وكان الفلك من شجر السنديان. ثم أئذره أن يأخذ من كل الحيوانات، من كل زوجين اثنين. وأمطرت السماء (٤٢) يوماً وليلة حتى غطى الماء أركان الكرة الأرضية بما فيها قمم الجبال، وطافت السفينة على سطح الماء (أحد عشر شهراً)، ثم رست إلى جانب جبل (قاردن)، عندما أعلنت له الحمامة البشارة، بحملها غصن الزيتون.

أخرج (نوح) الحيوانات من السفينة، ونشرها في الأرض، وصنع مما تبقى عنده من الحبوب طعام (العاشورية). وكان لنوح أربعة أولاد هم: (شوم بن نوح) أي سام. يعده الصابغة جد هم الأعلى، وهو الذي ولد قبل الطوفان، أما أولاد نوح الثلاثة (يام وحام ويافث) فقد ولدوا بعد الطوفان.

في هذه الأسطورة دليل على امتزاج ثقافة بلاد ما بين النهرين بثقافة فلسطين، لأن اليهود قد تأثروا بعد السبي، بالفكر الكلداني بعد عام (٥٨٤ ق. م)، وعندما دونت التوراة، كانت مزيجاً من المعتقدات، التي تأثرت بها المندائية فيما بعد^(٢٣).

أسطورة خلق العالم عند الحمرانية:

إن أسطورة خلق العالم عند الحمرانية، أقرب إلى الفكر اليوناني، إنها نظرية هرمس الحكيم في خلق العالم. قال مار يعقوب الرهاوي لقد ورد في كتب الحمرانية الذين يقولون إن السماء والأرض والشمس والقمر وسائر الكواكب هي أزلية غير مخلوقة، وهي آلهة وأرباب، وهم سادة هذا العالم، ومولوه اهتمامهم. وقبل خلق العالم، كان يرفرف فوقه روح الله. ويقولون في البدء كان كل شيء ظلاماً ومياهاً قبل أن يكون هناك آلهة وبشر وكان الروح يرفرف فوق المياه السائلة. قال الروح: فخلقت هذه كلها، وضعت لهم أسماء وأرضاً وأبراجاً، صورت فيها تماثيل، جعلتها وجهاً لمسيرتهم ثم خلقت (بعل)، أولاً وبعده (مارود)، سيداً للآلهة ومن ثم البقية، وجعلت الشمس والقمر سلاطين على الليل والنهار، وهكذا جاء كلامهم مطابقاً للحق^(٢٤).

- ثم يتكلم الصابغة عن خلق آدم ونوح وإبراهيم طبقاً لما جاء في التوراة وليس كما ورد عند المندائية.

ثانياً - الطائفة الثانية:

من الباحثين الذين قالوا بوجود علاقة بين المندائية والحمرانية.

أكدت الباحثة الانكليزية الليدي دراوير التي عاشت فترة طويلة في جنوب العراق تدرس التراث المندائي. قالت: في جملة ما أورده المؤلفون العرب من روايات يوجد بها قدر لا بأس به من الحقيقة، وهو أن لدى الحمرانيين ما يشتركون به مع الصابغة المندائية، الذين يسكنون أهوار جنوب العراق^(٢٥).

ثم ذكرت الليدي دراوير اشتراك النحلتين، في أن النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية، وأرواح ثانوية، لأمر ملك النور، وإنها تتحكم بمصائر البشر، ويصاحب هذه الأرواح الخيرة أضدادها من الأرواح الشريرة. ففي فلك الشمس، ينتصب (شامش) إله الخير النافع، ورمز الخصب والخضرة، ومعه الروح الشرير المهلك (أدوناي) إله الظلمة مع أرواح نورانية أخرى حارسة، وتوصلت الليدي إلى أن اعتقاد كلا الطائفتين، يقوم على ثلاثة أمور جوهرية، والصواب أنه لا اتفاق بين الطائفتين في الأمور التي ذكرتها الليدي دراوير.

١ - الماء الجاري (يردنا) رمز الحياة العظمى:

للماء في المذهب المندائي دور هام فمن يعتمد، يقترب من الله ليغفر ذنوبه، ويحفظه من الأرواح الشريرة. وبالماء الجاري، يتم دخول الحدث إلى المذهب، ويحق له دخول المندى. وشعارهم (من يعتمد بالمعمودية يسلم).

أما الحرائية فهم وإن كانوا يقدسون الماء الجاري، مسكن الأرواح الخيرة، إلا أن الخلاص عندهم يرتبط بالمعرفة الآلهية، وعلى التجربة الروحية، التي من خلالها يتحد الفرد بالإله، الكامل ويصبح مثله. ولا دور للمياه والعمادة في خلاصهم كما هو الحال عند المندائية.

٢ - خلود الروح (نشمتا):

كل الديانات تقول بخلود الروح. كان المندائيون يرون أن للروح صلة بأرواح أسلافها، بل إن الروح تعيش على صدقات الأهل والقرايين التي تقدم للموتى (الوفاني) قبل انتقالها إلى عالم القدرة (عالم الأفلاك).

أما الحرائية، فالروح عندهم لا تتأثر بالصدقات، لأنها تنتقل من جسد إلى جسد آخر وتعاني قبل أن تتطهر. وإن القرايين، التي تقدم للآلهة تفيد الأحياء لا الموتى.

كتب ثابت بن قرة الحرائي رسالة عن النفس بعد الموت قال فيها: إن من يتصرف تصرف البهيمية في الحياة، فإن نفسه حالة في جنة الحيوان. وهذا الاعتقاد استفاده ثابت من الفكر الفيثاغوري. قيل أن فيثاغورس مرّ بقوم يضربون كلباً فعرف من عوائه أن صوته يشبه صوت صديق له مات منذ مدة. فصاح بهم كفى^(٢٦).

٣ - الخنوع لما يقول الكهنة الموكلون بالكتب المقدسة:

يخضع الصابئة لرؤسائهم الذين يقومون بحل قضاياهم بدلاً من السلطة الزمنية. فهم يعمدون الأطفال، ويعقدون القران ويطلقون النساء، ويكفنون الموتى، ويترحمون على الميت، من خلال اعتمادهم على الكتب المقدسة. وأهم هذه الكتب عند المندائية.

١ - كتاب الكنز رابا: وفيه أحكام الدين المندائي، وأسطورة خلق العالم، ترجم الكتاب إلى الألمانية عام ١٩٢٥ من قبل المستشرق ليدزبارسكي.

الباب الأول

- ٢ - كتاب سيدرا أونشمتا أي كتاب الروح، وفيه كيفية إقامة الشعائر الدينية. ترجمته إلى الانكليزية الليدي دروار.
- ٣ - كتاب أدراشا أديها أي تعاليم يحيى، يحتوي على وصايا أخلاقية. منها:
 - يكمن سر السعادة، في أن لاتكون كذاباً أو منافقاً.
 - من يعمل خيراً، يرى خيراً.
 - الويل لعالم لم يُعَلِّم شيئاً، من علمه للآخرين.
- ٤ - كتاب التعميد (سيدرا مصبوثا) ترجمته الليدي دروار إلى الانكليزية.
- ٥ - كتاب العبادات (ايناني) يتضمن كيفية الصلاة والصوم، وكيفية الطهارة.
- ٦ - كتاب الزواج (مسكتتا)، يحتوي على شعائر الزواج، وشروط الطلاق.
- ٧ - سفر ملواشه (الاسم النجمي للعماد). وفيه تحديد لطالع الغيب وتحديد أفضل أوقات العمادة، والزواج والسفر، والطبابة، وهو مجموعة تعاليم لقارئ الحظ (كصوما) وتحذير من عمل الساحر (كلدايا).
- ٨ - كتاب حران كوئيا، أي حران السفلى، فيه ذكريات الصابئة المندائية وهو أقرب إلى القصص الخرافية. فيه ذكر لحكمائهم السبعة. وتنقلهم من أرض فلسطين إلى حران ومنها إلى بلاد ما بين النهرين. وفي الكتاب ذكر وصول العرب إلى العراق، زمن رئيسهم (انش بن دنقا) الذي تفاوض مع سعد بن أبي وقاص، وأخذ منه عهد الأمان، وأدوا الجزية، عند جبل (أرساي)^(٢٧).
- ولا زالوا إلى اليوم يدعون في صلاتهم «أيها المسلمون لاتراجعوا عن عهدكم، الذي عاهدتم الله عليه»^(٢٨).
- غاية القول: إنه لاصلة بين مذهبي الصابئة المندائية والحرانية. فالمندائية حصاد ثقافة بيعة فقيرة في معطياتها الحضارية. لذا لم يكن لهم أي تأثير على الشعوب المجاورة.
- وعلى العكس من ذلك فالحرانية وريثة ثقافة عريقة فيها من حضارة الكلدان والآراميين واليونان والعرب، وعنهم ظهر كبار أمثال ثابت بن قرة الحراني وأبو روح الصابي ومحمد بن جابر البتاني المعروف لدى الغرب ببطليموس العرب، وأبي إسحق الصابي شيخ كتاب عصره.

قال العلامة حسين مروّ: «لعب علماء مدرسة حران دوراً بارزاً في نقل الفلسفة والعلوم اليونانية إلى العربية».

متى أطلق على الحرانية اسم الصابئة؟

الحرانيون لا علاقة لهم بالصابئة، وكان أهل الرها يطلقون عليهم أسماء متعددة منها (الكلدان والخنوفون والحرانيون) ولم يذكر بين تلك التسميات اسم الصابئة. وهذه التسمية أطلقت عليهم في القرن الثالث الهجري. عندما اجتاز الخليفة المأمون سنة ٢١٨ هـ ٩٣٣م مدينة حران. فقتله الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرانيين وكان زيهم ليس الأقبية، وشعورهم طويلة، بوفرات كوفرة قرّة جد سنان بن ثابت. فأنكر المأمون زيهم، وقال لهم: من أنتم من أهل الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانية. فقال: أنصاري أنتم؟ قالوا: لا... قال: فيهود أنتم؟.. قالوا: لا. قال: فمجوس أنتم؟ قالوا: لا.. قال: لهم، أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمعوا في القول. فقال لهم المأمون: فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان وأصحاب الرأس أيام الرشيد والدي. وأنتم حلال دماؤكم ولا ذمة لكم. فقالوا: نحن نؤدي الجزية. فقال لهم: إنما نأخذ الجزية، ممن خالف الإسلام من أهل الأديان، الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه. فأنتم لستم من هؤلاء فاختاروا أحد أمرين:

- إما أن تنتحلوا دين الإسلام.

- أو أن ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه. وإلا قتلتمكم عن آخركم. فإني أنظرتكم إلى أن أرجع من سفري هذه. ورحل المأمون يريد بلاد الروم. فماذا حدث بعد ذلك للحرانية؟ إنهم غيروا زيهم، وحلقوا شعورهم، وتركوا لبس الأقبية. وتنصر كثير منهم، ولبسوا الزنانيير، وأسلمت منهم طائفة. وبقي منهم شرذمة، على حالهم وجعلوا يحتالون ويضطربون، حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه. فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون به وتسلمون من القتل. فحملوا إليه مالاً عظيماً من بيت مالهم الذي أحدثوه منذ أيام الرشيد لهذه الغاية أعدوه للنوائب، قال لهم الشيخ: إذا عاد المأمون وسألكم عن دينكم فقولوا له: نحن الصابئون، فهذا اسم دين ذكره الله في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به». هذه أول إشارة إلى واقعة تاريخية هي انتحال الحرانية لاسم الصابئة. ومن انتحل منهم الإسلام وخشي العودة، والارتداد عن الإسلام أعلنوا الإسلام، واتخذوا الأسماء الإسلامية غطاء، وهذه هي التقية عند الحرانية، أو الصابئة الجدد، وكانوا

الباب الأول

يضمرون ديانتهم سرّاً كما فعل آباء محمد بن جابر بن سنان البتاني، وهو ابن أخت ثابت بن قرة الحراني. وقد أئى البتاني تسمية زيجه العظيم إلاً باسم (الزيج الصابيء).

عندما خضع أهل حران، للحكم الإسلامي، كان اسمهم الحرانية. قال مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) في كتابه الأيام الستة «عندما اطلع على كتاب هرمس الحكيم وهو من كتب الحرانية المقدسة قال عنهم: وهؤلاء القوم عند الناس لهم أسماء مختلفة منها الكلدان والحرانيون والختوفون^(٣١). لم يذكر اسم الصابئة بين تلك الأسماء.

أما الكندي فإنه دعاهم بالصابئة، وقد نقل أحمد بن الطيب حكاية عنه: «إنه نظر في كتاب يقره هؤلاء القوم وهو مقالات لهرمس في التوحيد لابنه على غاية من التفاتة في التوحيد لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه، مندوحة عنها، والقول بها^(٣١) وهؤلاء القوم دعوا إلى الله وإلى الحنفية التي يتسمون بها^(٣٢).

طوائف الحرانية:

انقسم المؤرخون حيالهم فالفيلسوف أحمد بن الطيب بن مروان السرخسي (قتل ٢٨٦ هـ ٩٠٠) صديق ثابت بن قرة الحراني. قال عنهم: «دعوة هؤلاء القوم كلهم واحدة لافرق بينهم وستهم وشرائعهم غير مختلفة. جعلوا قبيلتهم واحدة، بأن صيروها لقطب الشمال في سفرة العقلاء، قصدوا بذلك للبحث والحكمة، ودفعوا ما ناقض الفطرة، ولزموا فصائل النفس الأربع، وقالوا إن السماء يتحرك حركة اختيارية وعقلية^(٣٣).

ولكن أبا سعيد وهب بن إبراهيم النصراني، وهو من عاشر القوم وسكن معهم ذكر أنهم يفرقون إلى طوائف عدة ذكر منها ابن النديم طائفتين:

طائفة الروفسيين:

بما أن الديانة الحرانية، تؤخذ عن الأم. فالاختلافات بين الحرانية نلحظها ونلمسها من لبس حلي نسائهم. فنسأؤهم لايلبسن ولايتحلين بذهب البتة، ولايلبسن خفاً أحمر، وإذا خرجن من بيوتهن خرجن محجبات متلثمات بخمر سود، يغطين بها رؤوسهم. إلا أن جلايبهن السوداء كانت مطرزة بخيوط حريرية ملونة، وكانت هذه الطائفة تقرب للإله في كل سنة خنزيراً في أعياد تموز الصيفية.

صابئة حزان هم اخوان الصفا

طائفة الربانيين:

كان الرجال في هذه الطائفة، يلزمون بيوتهم، وفيها يمارسون حرفتهم المختلفة، وهم يحلقون رؤوسهم بالمواشي أو النورة وحتى النسوة المترهبات، منهن يحلقن رؤوسهن. هذه الطائفة تأخذ بتعاليم هرمس المصري، قال إخوان الصفا عن الحرائية:

«إنهم أخذوا علومهم عن السريان، والمصريين على حسب نقل الصنائع والعلوم في البلدان وبما يحدث لها من السياسات والأديان»^(٣٤).

المراجع:

- ١ - الموسوعة الإسلامية مادة الصابئة ص ٨٩ - كتب المادة كارادي فو - القاهرة.
- ٢ - كتاب امتاع الاسماع ج ١ ص ٦٧ المقريري تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة.
- ٣ - الفهرست ص ٣٨١ ابن النديم.
- ٤ - مروج الذهب ج ١ ص ١٦٥ المسعودي.
- ٥ - كتاب الجغرافيا ص ٨٩ ابن سعيد المغربي.
- ٦ - ذخيرة الأذهان ج ١ ص ٣٥ القس بطرس نصري الكلداني الموصل ١٩٠٥.
- ٧ - المسعودي ج ١ ص ٤٦٨.
- ٨ - المسعودي ج ٢ ص ١٦٩.
- ٩ - تاريخ الفلاسفة والحكماء ص ١٥ ابن جلجل تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩٥٥.
- ١٠ - الصابئة المندائية ج ١ ص ٣٣ الليدي دراور ترجمة نعيم بديوي وغضبان الرومي بغداد ١٩٨٧.
- ١١ - الصابئة المندائيون ص ٨١ سليم برنجي دار المدى دمشق ١٩٩٦.
- ١٢ - المصدر السابق ص ١٨٨.
- ١٣ - المصدر السابق ص ٤٣.
- ١٤ - مجلة العربي عدد ١١٢ عام ١٩٦٨.
- ١٥ - الليدي دراور ص ٢٧.
- ١٦ - سليم برنجي ص ٢١٦.
- ١٧ - المسعودي ج ١ ص ٤٦٥.
- ١٨ - سليم برنجي ص ٢٢٦.
- ١٩ - البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٢ ابن المطهر المقدسي تحقيق كليمانت هيوار دار المثنى، بغداد.
- ٢٠ - سليم برنجي ص ١٨٧ - ١٨٨.
- ٢١ - المصدر السابق ص ٢٣٧.

صابئة حزان هم اخوان الصفا

- ٢٢ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٨٣.
- ٢٣ - سليم برنجي ص ٥٩.
- ٢٤ - كتاب الأيام الستة ص ١٠٩ مار يعقوب الرهاوي ترجمة جورج صليبا دار الرها حلب ١٩٩٠.
- ٢٥ - الليدي دراور ص ٢٧.
- ٢٦ - تاريخ العلم ج ١ ص ١٤٨ جورج سارطون القاهرة.
- ٢٧ - سليم برنجي ص ٨١.
- ٢٩ - الفهرست ص ٣٨٥.
- ٣٠ - الأيام الستة ص ١٠٠.
- ٣١ - الفهرست ص ٣٨٤.
- ٣٢ - المصدر السابق ص ٣٨٣.
- ٣٣ - المصدر السابق ص ٣٨٨.
- ٣٤ - المصدر السابق ص ٣٨٩.

الفصل الثالث

أهم قواعد العقيدة الحرائية

الحرائية ديانة عرفانية سرية:

رأينا في الفصل السابق، أنه لاعلاقة للحرائية بالصابغة المندائية، لأن الحرائية ديانة عرفانية سرية وهي خليط من أفكار فيثاغورية، واعتقادات شعبية غلفت بطابع الحكمة الهرمسية.

اختلف الباحثون حول تحديد شخصية هرمس الحكيم، الذي كان قبل الطوفان، الذي تدعي الحرائية حكمته^(١) أهو هرمس المصري.. أم هرمس البابلي؟. لقد وُحِدَ اليعقوبي بينهم^(٢) واكتفى بالقول «هرمس المحموده آثاره المرضية أقواله الذي يعد من الأنبياء الكبار، وهو الذي وضع أسماء البروج، والكواكب ورتبها في بيوت، وبيّن تعديل الكواكب وتقويمها»^(٣) وهو الذي تدعوه الحرائية «نبي الله أدريس» الذي قال عنه القرآن الكريم «ورفعناه مكاناً علياً» لأنه صعد إلى فللك زحل ودار معه ثلاثين سنة، حتى شاهد جميع أحوال الفلك، ثم نزل الأرض فبنى بيتاً لزحل في مكة وأخبر الناس بعلم النجوم، ووصف الباري سبحانه «بالحكمة والحياة والوجود» من أجل ذلك دعي عندهم بهرمس المثلث الحكمة^(٤).

كان هرمس الحكيم يدعو لإقرار توحيد الله، وحظر النفس عن الشهوات، والأمور المحبوبة بأسرها وترك الرخصة في كل شيء منها، للوصول إلى إدراك الحقائق. قال عنه مار يعقوب الرهاوي إنه مصري الجنسية، وكان اليونانيون يحبونه كثيراً وقد سأله أحد مواطنيه المصريين المدعو (أوزيريس) حول تكون الشمس، فكان جوابه «إنها ظهرت بعناية الله، سيد الكل فكلامه هذا كان كلام قديس»^(٥).

كان الحرائية يعدونه من أنبيائهم، كعازيمون وأفلاطون، الذي ينسبون إليه معظم حكمتهم وكان يقول: «إن معرفة صانع العالم (الباري سبحانه) يحتاج إلى بحث وفكر شديد، وإذا ماكشفنا الغطاء عن حقيقته استحال علينا نقل هذه المعرفة إلى الآخرين.

من هنا نجد أفلاطون لجأ إلى التشبيهات الأسطورية ليقرب معرفة الباربي إلى أذهان الناس، من أجل هذا عدّه ثابت بن قرّة الحرائبي من نحلة فيثاغورس، لأنّه قال مثله بخلق العالم، وصدوره عن الواحد، وإن كان يعتقد بخلوده^(٦) أي بخلود العالم.

إن لتفاعل الثقافتين اليونانية والمحلية، في حران أثر في تكوين ديانة تقول بمبدأين للعالم (النور والظلمة)، نادى بها الفيلسوف برديصان الراوي (١٥٤ - ٢٢٢) وجري من وقتها تناقض بين الحرائية والديصانية، بصورة مطلقة على مستوى الكلمات أو مستوى الأشياء^(٧) ولكنهما اتفقتا حول مصدر الشر في هذا العالم فهما مجمعتان على أن الطبيعة هي أساس سقوط الإنسان في الخطيئة، حينما اتصلت النفس الخالدة بالعالم المادي (جسد الإنسان الفاني)، وإن الخلاص لن يتم إلا بخلع ربقة هذا الجسد للعودة إلى النور الأزلي.

كان الحرائية يخاطبون المبتديء في الدين: «هل لك أن تدخل في هيكل عاذيمون حتى ترى الأفلاك يحكيها لك أفلاطون، وهي أفلاك روحانية لا مايشير إليه المنجمون. وذلك أن علم الله يحيط بما يحوي العقل من المعقولات والعقل محيط بما تحوي النفس من الصور، والنفس محيطة بما تحوي الطبيعة من الكائنات، والطبيعة محيطة بما تحوي الهيولى من المصنوعات، فإذا هي أفلاك روحانية محيطات بعضها ببعض»^(٨).

من النص السابق نرى أن لحرائية عقيدة تلفيقية تعتمد على فكر أفلاطون الهرمسي في الصدور أكثر من علاقتها بفكر أفلوطين. وما أروع مقاله عنهم المسعودي «إنهم حشوية الفلاسفة وإنما اضفناهم إلى الفلاسفة إضافة سبب لا إضافة حكمة والفلاسفة حكماؤهم».

من المؤكد أن تعاليم هرمس الحكيم كتبت في الشرق في القرن الرابع الميلادي أثناء الصراع المرير والضاري بين المسيحية والوثنية، في صياغة محكمة كي يقبلها الوجدان الشعبي الوثني والمسيحي معاً. وأثر تعاليم أفلوطين فيها واضح جداً حتى أنه ليصعب علينا التفريق بين تعاليم هرمس الحكيم وتعاليم التاسوعات لأفلوطين.

كانت حران مركزاً ثقافياً مهماً في قلب العالم القديم عاش فيها (أفلوطين). وعلم فيها تلميذه يامبليخوس الكالخيبي (توفي ٣٢٥) وعندما أرسل أحدهم من الاسكندرية يسأله عن موضوع ما كتب إليه «إذا طرحت مسألة فلسفية، فإننا سنحكم فيها وفق نهج هرمس الحكيم الذي استعمله أفلاطون وفيثاغورس في الماضي لضبط فلسفتهم»^(٩). وكان يامبليخوس أحد معلمي الفكر الأفلاطوني الحديث.

أهم تعاليم هرمس الحكيم:

كان الحراية يعظمون تعاليم هرمس، بل هي محور عقيدتهم، التي كانوا يعلمونها في معابدهم ومدارسهم. وكانت تلك التعاليم، تقوم على فكرة الجدول الأفلاطوني الصاعد والنازل في مدارج المعرفة السبع، وقد كتبت في تكثيف فلسفي شديد الإيجاز.

تبدأ الأسطورة من تصور هرمس الحكيم وهو جالس في حالة تشبه الوسن، رأى النور بغمرة وهو في حالة صعود نحو الإله الأب المتعالي.

قال هرمس: «رأيت في عقلي النور الذي هو عبارة عن عدد لا يحصى من القوى (الملائكة) قد تحولت إلى عالم لأحدود له، بينما كانت النار مطوقة، بقوة هائلة، تبلغ مستقرها وتكفها عن الحركة»^(١٠) لتصبح أساس الأشياء المحسوسة.

في هذه المقدمة نلمح النار الحية التي تشتعل وتنطفئ حسب نسق معين ثم تتحول إلى كل شيء، وهي الأساس العام والجوهر لجميع الأشياء المحسوسة، وهذه هي فلسفة هيرقليطس العامة^(١١).

المدرجة الأولى - صدور الكلمة أو (اللوغوس) Logos:

قال هرمس: «ثم انبجس (الكلمة الآلهية) المقدسة من النور، وهو ابن الإله الصانع» هذه هي عين فكرة فيلون الاسكندري (٢٠ ق.م - ٥٤ م) الذي اعتبر الكلمة «اللوغوس» وسيطاً بين الله والعالم. وهي عين الفكرة التي تجسدت، في السيد المسيح الذي هو ابن الله الذي عاش وعمل وصلب ورفع إلى السماء من أجلنا. وهي عين الفكرة التي تحدث عنها أفلوطين (٢٠٤ - ٢٧٠) عندما تحدث عن صدور اللوغوس وشبهه، بالنور الذي ينبع من المقر الآلهي، ويمتد إمتداداً حتى أطراف العالم^(١٢).

وفكرة الصدور هذه قالها الشاعر السرياني العظيم مار أفرام السرياني (المتوفي ٣٦٣) عندما شبه الأب بقرص الشمس، والنور بالإبن (السيد المسيح) والحرارة (بالروح القدس).

المدرجة الثانية - صدور العناصر الأربعة:

سأل هرمس الإله المتعالي: ومن أين صدرت العناصر الأربعة؟

أجابه: عن إرادة الله، عندما تلقت الكلمة، ورأت سناء عالم المثل البهي الجميل، وظهور العنصرين المكونين للعالم السماوي، وهما (النار والهواء) وقد صعدا نحو

الأعلى وانفصل عنهما (التراب والماء)، ممتزجين متحركين بفضل الكلمة المقدسة. فالماء رطب بارد بالطبع، وهو يروي العطش. والنار حارة ويابسة بالطبع، وهي تحرق وتضيء^(١٣).

أما التراب فهو أثقل العناصر كلها لهذا يرسب تحت سائر الأشياء كلها، وهو في الغاية القصوى من الكدر، وعدم النور والحياة، ثم يتلو جرم النار في الفلك الأعلى المخصوص بالشرف على كل الأجرام وهو جوهر النفس الروحانية، وإن كل الأشياء مما دونها لاحياة لها، إلا بها لأنها ذات الفكر والإرادة والتميز^(١٤).

ومن العالم النوراني، تشكلت مادة السماء، وأصبحت موطناً للأرواح النورانية الصالحة.

وأما العالم الحسي (عالمنا الأرضي) فقد تشكل بمشيئة الإرادة الإلهية عن طريق الكلمة المقدسة (اللوغوس)، التي كونت على محاكاة، العالم العلوي الفائق الجمال، وفيه وزعت نفوساً على الكائنات الأرضية.

إن فكرة الفيض والصدور توفق بين تعالي الأول عن كل ما يوجد، وبين حضور قواه في كل الموجودات، وبفكرة الفيض يمكن أن يظل الأول في تعاليه، وهو أشبه بمصدر مشع للنور، دون أن يفقد شيئاً من ذاته. هذه الفكرة هي التي مهدت لفكرة، وحدة الوجود عند السهروردي، وابن عربي والشيرازي، وغيرهم من متصوفة الإسلام.

المدرجة الثالثة - تدفق الحركة الدائرية الأولى:

قال هرمس: اتحد الإله المتعالي، بالإله الصانع، وأعطيا للأفلاك الدفقة الأولى، فانطلقت بحركتها الدائرية الدائمة الأزلية، وصارت المدبرات السبع تدير العالم عن طريق القدر.

وعن الهرمسية أخذت الحرائية، تعلم أنه لا يقع من أحد فعل ولا يسر له عمل إلا ما قد سبق له في علم الباري، الذي هو القضاء المبرم، والقدر المحتوم، اللذين هما موجبات، أحكام النجوم وتأثيرات الأشكال الفلكية^(١٥).

بدأ الصراع على أشده، بين أتباع برديسان الراوي والحرائية. قال ماريعقوب الراوي: نورد هنا حديث أحد العلماء الحرائيين ذائعي الصيت (مع الأسف لم يسمه) الذي كان يدافع بشدة، عن القضاء والقدر، الصادر من الكواكب السبعة، والذي

الباب الأول

يشمل كل ما يحدث في هذا الكون، ضد العالم (ولغش الرهاوي) أحد أتباع برديسان، وكان يحاوره ضد القدر، محاولاً تسفيهه ببراين من الطبيعة^(١٦).

كان برديسان يحصر تأثير الأفلاك في الطبيعة، عن طريق المناخ محدثة الجو المناسب لمعيشة الإنسان، من طول العمر أو أحداث الأوبئة والأمراض التي تميز الإنسان، أما روح الإنسان، فلا تأثير للأفلاك عليها، لأنها تخضع لعادات وشرائع البلدان التي يكتسبها الإنسان من مجتمعه لا عن تدبير الكواكب، وقدرها المحتوم^(١٧).

تناول العالم الألماني هانز هينرش شنيدر الخبر الذي أورده مار يعقوب الرهاوي فقال: عن ولغش الرهاوي، وهو في حوار مع نصير متحمس لايقبل المساومة للجبرية النجومية يدلي بهذا الرأي وهو أن الناس متساوون من حيث الاستعدادات الطبيعية، متباينون من حيث تأثير النجوم، غير أن الحرية الممنوحة لهم للأعمال الأخلاقية، تدعوهم إلى الإرتفاع فوق القيود الطبيعية النجومية^(١٨).

المدرجة الرابعة - خلق الإنسان السماوي الأول:

قال هرمس: ظهر الإنسان السماوي الأول، خلقه الإله المتعالي على صورته، وسخر له جميع مخلوقاته، وأذن له العيش في عالم الكلمة المقدس (الجنة)، التي احتفت به، واكتسب طبيعتها، ثم اخترق محيط الكرات السبع، وأطل على عالم الطبيعة (الأرض والماء) فانعكست صورته على الماء، فعشقها ونزل إلى الطبيعة، وتعانقا واتحدا، وهذا أول (السقوط والخطيئة).

وظف مؤلف تعاليم هرمس أسطورة نرسيس اليونانية ليقرب تعاليمه للناس. ومؤدى الأسطورة اليونانية أن الشاب الجميل (نرسيس) عشقته الحورية إيكو (النفس) فبذها لأنها لا تستطيع أن تردد صدى كلماته. ولكن الحورية نيميس (التي تمثل الاعتدال في نشاط البشر) عاقبت، بأن أجبرته على رؤية صورته في صفحة الماء، فعشق نفسه، وتحول إلى زهرة نرجس بجانب غدير الماء.

المدرجة الخامسة - سقوط الإنسان الأول وهبوطه على الأرض:

قال هرمس: «هبط الإنسان الأول إلى عالم الأرض، وصار أسيراً للقدر وسيداً عليه، بأن واحد. خاطب الإنسان الأول نفسه: يانفس مادمت في عالم الطبيعة، فلا تطلبي مني لذة، ولا تشاغلي بمحسوس عن العلم والتصور والتأمل والبحث،

صابغة حران هم اخوان الصفا

والاستكشاف، وليكن مأربك العودة والرجوع إلى ذلك العالم، عالم الكلمة المقدسة»^(١٩).

ربطت الديانة الحرائية الخلاص الإنساني بالمعرفة الإلهية. وقد كتبوا على مدقة باب مجمعهم في حران (من عرف ذاته تأله). لأن الإنسان متى عرف نفسه فقد عرف ربه، نسبت المذاهب العرفانية الإسلامية هذا القول إلى الإمام علي عليه السلام^(٢٠). وصار الخلاص مرتبط بحال الخطيئة الشخصي بالمعرفة وبالإيمان الماحي للخطايا^(٢١).

المدرجة السادسة - نشوء الحياة على الأرض:

قال هرمس: «ولد للإنسان السماوي الأول سبعة أولاد من اتحاده بمحبوبته الأرض، كل منهم ذكر وأنثى في نفس الوقت، ويتألف جسداهم من العناصر الأربعة، وأصبحوا موزعين حسب طبيعتهم إلى جزئين هما:

العقل والنفس الشهوانية. ويتدبير الكواكب السماوية، بدأت عملية التكاثر والتناسل في الكائنات الحية، كل حسب نوعه. وكل من تعلق بجسده الصادر عن الخطيئة، والشهوة، فإنه يبقى في الظلمة، يعاني من الموت فإذا عاد إلى وعيه، وعرف بعقله أصل نفسه الإلهي رجع إلى عالم النور.

سأل هرمس: العقل الكلي، عن معنى الحكمة القائلة، ليعرف الإنسان العاقل نفسه) أليس كل الناس ذوي عقول؟.

أجاب العقل الكلي: احفظ لسانك يا صديقي. إني أنا العقل. قريب من الذين هم أولياء طيبون، مطهرون رحماء. قريب من الأتقياء الذين يطيعون الرب بمحبة، ويشكرون ويباركون ويسبحون وبهذا يعرفون^(٢٢).

المدرجة السابعة - المعاد أو العروج نحو السماء:

سأل هرمس العقل الكلي: حدثني عن المعراج وعن كيفيته؟.

فأجابه: عندما يفسد جسدك تغادره النفس، فينحل وتختفي الصورة التي كنت تحملها، وتصدر حواسك الجسمانية ليعود كل منها إلى مصدره عبر الكرات السماوية فتترك في (كرة القمر) قوة الإتماء والنقصان وفي (عطار) قوة الحب والاحتيا، وفي (الزهرة) وهم الرغبة، وفي (الشمس) كبرياء الحكم والأهداف الطموحة، وفي (المريخ) التهور الكافر والإدعاء الكاذب، وفي (المشتري) الشهوات المحرمة، التي يولدها الغنى

الباب الأول

والفقر وفي (زحل) الكذب الذي يكيد كيداً، ثم ترتفع إلى (السماء الثامنة) متحررة
ماتركته الكرات الفلكية، وتندمج مع الملائكة مسبحة للرب متحدة في ملكوته
السعيد، وفي النهاية تتحد بالله^(٢٣).

هذا إذا كانت الروح قد تطهرت من إدرانها الجسدية. أما إذا كانت النفس شريرة
فإنها تحل بجسد آخر، وتظل تعاني وتتعذب، أو أنها تظل هائمة تحت عالم فلك
القمر، لتعلقها بعالم الحواس.

عندما أخرج ثابت بن قرة الخرائط تعاليمهم السرية إلى وسط ثقافي مغاير أجرى
عليها بعض التعديل والتحويل لتلائم والوسط الجديد (الإسلامي) فأخذت الصورة التي
عرضتها رسائل إخوان الصفا (اعلم أيها الأخ البار الحكيم أيذك الله وإيانا بروح منه. أن
العقل إذا عرض في علم النجوم وفكر في سعة هذه الأفلاك وسرعة، دورانها وعظم
هذه الكواكب وعجيب حركاتها، وأقسام هذه البروج وغرائب أوصافها تشوقت نفسه
إلى الصعود ومعاينة ما هنالك. ولكن لا يمكن الصعود بهذا الجسم الثقيل بل النفس إذا
فارت هذه الجنة ولم يعقها شيء من سوء أفعالها أو فساد آرائها وتراكم جهالاتها أو
رداءة أخلاقها فهي هنالك، في أقل من طرفة عين، بلا زمان لأن كونها حيث همتهما
ومحبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه^(٢٤). وإن قدر على خلع جسده
ورفض حواسه وتسكين وساوسه صعد إلى الفلك، وجوزي هناك بأحسن جزاء^(٢٥).
والكواكب عند الخرائط هي آلهة لديها النفوس البشرية قبل نزولها إلى الجسد، وإليها
تصعد النفوس الطاهرة، بعد مغادرة الجسد.

فلسفة النفس عن الخرائط:

لا زالت الأفكار الهرمسية تستهوي بعض مفكري الغرب. فالشاعر الألماني جوته
أورد شعراً على لسان فاوست قال فيه: أما أنا فيسكن جسدي روحان مشاربهما
متباينة، وتحاول كل واحدة أن تبين عن الأخرى.

- الأولى دنيئة - تلتصق بأديم الأرض، وتتعلق بأهداب هذا العالم.

- والأخرى طمّاحة - تندفع محلقة في السماء، صاعدة إلى مسرى النجوم.

فيا ليت الأرواح السابحة في الهواء بين الأرض والسماء تهبط إليّ فتشئلني من
وهدة الشر، وترقي بي إلى أقطار جديدة ذات ألوان بديعة^(٢٦).

كان الخرائطية يؤمنون بمثل هذا الاعتقاد. فالنفوس عندهم نوعان:

النفوس الالهية:

مالا يتعلق بالأجسام ولا تسكن الجنة بوجه من الوجوه لعلوها عليها، وارتفاعها عن أوساخها وأقدارها، وهذه هي النفوس الالهية. وهي عندهم نوعان: أحدهما: نفوس خيرة بالذات وهم الملائكة، يتقربون إليها لاجتلاب خيرها. والثانية: نفوس شريرة بالذات، وهم الشياطين يتقربون، إليها لاستكفاء شرها ورئيسهم (جرجاس). وقد جعلوا لكل نوع واحد منهم دعاء مقررأ وبخورأ معلوماً، وسياسة عمل يتوصلون بها إلى ما يرومونه منهم.

النفوس الكوكبية:

هذه النفوس متعلقة بجثة الكواكب لاتفارقها وهي تتصرف بالعالم الأرضي. وتنقسم حسب تصرفها إلى قسمين: أحدهما: تتصرف بطبائع أجسادها كما ذكر في كتب أحكام النجوم. والثانية: تتصرف بنفوسها ونفوس أخرى متعلقة بالأجساد لاتفارقها ولا تصبر عنها إلا بمقدار ماتفارق الجنة عند فراقها^(٢٧). هذه النفوس يمكنها أن ترتقي الأفلاك، وتسكن بها إن كانت طاهرة. ويمكن أن تهبط، عنها وتسكن الجنة، وتتعلق بها عند مرضها، وتلتذ وتتعذب. وهذه هي النفوس البشرية.

التناسخ والنسخ عند الحرائية:

كان الحرائية يزعمون أن لديهم معرفة بما تؤول إليه النفس بعد الموت. يستدلون على ذلك من أخلاق الشخص في الحياة، فإذا وجدوه شبيهاً بالبهيمة في تصرفه، محباً للذات، حكموا عليه بأن نفسه نفس بهيمة لاتصلح إلا لعمارة الدار أو لحفظ نوع الإنسان.

وجاء في كتاب الخواص الذي يعتقد أبو بكر الرازي أنه من تأليف ثابت بن قرة الحرائي. «إن كل صنف من أصناف الأخلاق موجود في الناس، كالشجاعة في الأسد، والختل في الذئب، والروغان في الثعلب، والموابهة في الديك، فإذا مات الإنسان انتقلت روحه إلى نوع البهيمة، التي توافق خلقه في الحياة، حسبما ذكر في كتاب الخواص»^(٢٨).

الباب الأول

ومن النصوص المعتمدة في دراسة الحرائية، ما أورده عبد الرحمن بن الجوزي عن يحيى بن بشر النهاوندي. قال في كتابه عن الصابئة «إنهم يعتقدون أن الأرواح الخيرة تصعد إلى الكواكب الثابتة وإلى الضياء. أما الأرواح الشريرة، فإنها تنزل إلى أسفل الأرضين. وإن العالم لا يفنى وإن الثواب والعقاب في التناسخ. وإن أرواح أهل الخير إذا خرجت، دخلت في أبدان خيرة فاستراحت وإن أرواح أهل الشر إذا خرجت تدخل في أبدان شريرة، فتحمل عليها المشاق، وإذا كثرت إساءة أهل الشر، بلغت نفوسهم إلى الهول إلى الأصغر (الرخس) انعكست فصارت حشائش تأكلها البهائم فتصير الروح في بهيمة، ثم تنسخ من بهيمة إلى أخرى عند موت تلك البهيمة، فلا يزال منسوخاً متردداً في العلل ويعود كل ألف سنة إلى صورة الإنس، فإن أحسن في صورة الإنس لحق بالمحسنين»^(٢٩).

ثم أورد أبو الفرج ابن الجوزي قصة من واقع الحياة، رواها له أبو الحسن علي بن نظيف قال: «كان أبو بكر بن الغلاس يقول بمذهب التناسخ. وكان لديه سنور (أي هر) أسود كان يمسحها ويخاطبها فتدمع عينيها، وكان يعتقد أنها أمه، وأنه حينما يخاطبها تفهمه ولا تستطيع الرد عليه.

سأله أبو الحسن: هل تفهم عنك ما تخاطبها به؟ فقال: نعم.

ثم سأله: أتفهم أنت صياحها؟ قال: لا. فقال له أبو الحسن: فأنت المنسوخ وهي الإنسان»^(٣٠).

ظل الاعتقاد بالتناسخ سارياً في حران حتى بعدان هفت الحرائية، وتحول أهل حران كلهم إلى الإسلام. قال ابن حزم (المتوفي ٤٥٦ هـ - ١٠٦٤ م) عن الحرائية: «إنهم في جميع الأرض لا يبلغون أربعين نفساً»^(٣١).

وعندما زار ابن جببر حران سنة (١١٨٥) كان أهلها كلهم لإسلام وفيهم الصلاح. وهاهو الهجويري يروي في كتابه كشف الأسرار (سنة ٦١٣ هـ - ١١٩٧ م). قصة محتال اختار حران. قال الهجويري «رأيت بخران رجلاً، من بني ساسان، قد أخذ قرداً، فعلمه (السلام) والتسبيح والسواك والبكاء». فإذا كان يوم الجمعة. أرسل الساساني عبداً هندياً حسن الوجه، نظيف الملبوس، إلى الجامع فيسقط عند المحراب سجادة. وقد البس القرد، ملابس أولاد الملوك، ثم طيه بأنواع الطيب وأركب القرد بمركوب مذهب محلي. وفي ركابه ثلاثة، عبيد هنود يحفونه والقرد يسلم على الناس، وأمامه عبد يعلن للناس هذا ابن الملك الفلاني أكبر ملوك الهند وهو مسحور. وحيثما يؤتى بالقرد إلى الجامع، يقلع القرد منديله ويصلي ركعتين تحية المسجد، ثم يأخذ

بالسبحة، ويسبح وينهض العبد الكبير ويسلم على الناس قائلاً: «اعلموا أن هذا القرد الذي ترونه أمامكم لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه، لا أطوع لله تعالى منه. وكان من القضاء المدبر أن زوجة والده ابنة الملك الفلاني فاقام معها مدة.

ثم قالوا لها: إنه قد عشق مملوكاً له. فأدركتها الغيرة وسحرتة. وهو كما ترون. وقد سألوا زوجته العفو عنه. فادعت أنها خلعت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار، وقد تخلف عليه عشرة آلاف. فمن يساعده بشيء لله؟ فارحموا هذا الشاب الذي عدم الأهل، والملك والوطن.

فيجعل القرد المندبل على وجهه، ويكي، فترق قلوب الناس، ويرفده كل واحد بما يسره الله»^(٣٢).

لِمَ اختار هذا المحتال حران دون غيرها؟

أظن أنه أدرك بفطرته، أن الفكر الذي يدخل في اعتقاد الناس، لا يزول وقد يظهر ولو بعد حين. لقد كانت حران مؤثـل التناسخ، وعندما انتقل أهلها إلى المذاهب الإسلامية الموحدة والعرفانية.

إن أولاد شعبه الحراني هم الذين أدخلوا فكرة التقمص إلى المذهب النصيري وقد كان مذهباً شيعياً بخالص الاعتقاد.

وإن الأديب والمؤرخ عبد الملك المسبحي (المتوفي ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩) صديق الحاكم بأمر الله ألف كتاب درك البقية في وصف الأديان والعبادات مما رسخ فكرة التناسخ والتقمص في البلاط الفاطمي. قال عنه ابن سعيد المغربي «لقد عني بما عني به الصابئة الحرانية»^(٣٣) لأنه كان من أهل حران.

وعلى الرغم من أن علمائهم كانوا فلاسفة آلهيين ولهم تصانيف في أنواع الفنون وهم من أرفع الناس طبقة ومن أهل العلم منزلة وجميع العلوم العقلية مأخوذة عنهم^(٣٤) فإنهم كانوا يؤمنون، بالتناسخ والرسخ والنسخ، مما لا يصدق بعضه العقل.

إن الآراء المتضاربة، حول العقيدة الحرانية، دفعت المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون للقول: «إن تاريخهم قصة أدبية». لأن عقيدتهم مشحونة بالأساطير الوثنية ومفعمة بالأعداد الفيثاغورية التي حطت رحالها عند أفلوطين الذي كثف الفلسفة اليونانية بكاملها ليذب بها عن حياض الوثنية، والتي غدت وبدون إرادة منه ديانة صوفية^(٣٥). كما تركزت في العقيدة الحرانية.

المراجع:

- ١ - تاريخ الحكماء والأطباء ص ٧ ابن جلجل تحقيق فؤاد السيد القاهرة ١٩٥٥.
- ٢ - كتاب البلدان ج ١ ص ١٨٧ البيهقي.
- ٣ - كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ٤٧ الشهرستاني. الوكيل القاهرة ١٩٦٧.
- ٤ - مختصر تاريخ الدول ص ١٢ ابن العبري.
- ٥ - الأيام الستة ص ١٠٩ مار يعقوب الرهاوي ترجمة جورج صليبا دار الرها حلب ١٩٩٠.
- ٦ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٣٥٩ فيليب حتى ترجمة جورج حداد دار الثقافة بيروت ١٩٥٨.
- ٧ - بنية الفكر العربي ص ٢٥٤ محمد عابد الجابري.
- ٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٩٢.
- ٩ - البنية الذهنية للحضارة في الشرق الأوسط القديم ص ٢٦ يوسف حوراني دار النهار بيروت ١٩٧٨.
- ١٠ - بنية العقل العربي ص ٢٦٤.
- ١١ - مشكلات ما بعد الطبيعة ص ٧٦ بول جانيه ترجمة يحيى هويدي مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١.
- ١٢ - اتساعية الرابعة لافلوطين ص ١٨ دراسة وترجمة فؤاد زكريا المكتبة العربية ١٩٧٠.
- ١٣ - كتاب زجر النفس لهرمس ص ٢٤ نشر دار قتيبة دمشق ١٩٨٢.
- ١٤ - المصدر السابق ص ٢٧.
- ١٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٠٠.
- ١٦ - كتاب الأيام الستة ص ٤٥.
- ١٧ - كتاب البلدان والشرائع ص ٤١.
- ١٨ - روح الحضارة العربية ص ٩٣ هاتز هتريش شيدر ترجمة عبد الرحمن بدوي دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩.

- ١٩ - زجر النفس لهرمس الحكيم ص ٣٢.
- ٢٠ - روح الحضارة العربية ص ٧٦.
- ٢١ - المصدر السابق ص ٨٠.
- ٢٢ - بنية العقل العربي ص ٢٦٥ محمد عابد الجابري.
- ٢٣ - المصدر السابق ص ٢٦٧.
- ٢٤ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٣٧.
- ٢٥ - المصدر السابق ج ١ ص ١٣٨.
- ٢٦ - فاوست ص ٣٦ جوته ترجمة محمد عوض محمد، القاهرة ١٩٣٨.
- ٢٧ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٩٦.
- ٢٨ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٧.
- ٢٩ - تلبيس إبليس ص ٨٩ عبد الرحمن بن الجوزي دمشق ١٩٧٢.
- ٣٠ - المصدر السابق ص ٩٠.
- ٣١ - كتاب الفصل ج ١ ص ١١٥ ابن حزم طبعة مصر ١٣١٧هـ.
- ٣٢ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢ ص ١٢٥ - ١٢٦ آدم متز ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.
- ٣٣ - المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٥.
- ٣٤ - ابجد العلوم ج ١ ص ١٧١ صديق بن لسن القنوجي تحقيق عبد الجبار زكار دار الثقافة دمشق ١٩٧٨.
- ٣٥ - منبع الأخلاق والدين ص ٢٣٥ هنري برجسون ترجمة سامي الدروبي الهيئة المصرية القاهرة ١٩٧١.

الفصل الرابع

أهم الشعائر والطقوس والعادات

أهم الشعائر التعبدية:

لعب الدين الحُراني قديماً، دوراً اجتماعياً هاماً، غايته تماسك أفراد المجتمع الحُراني، ومساندة بعضهم لبعض، من خلال الشعائر والطقوس، واللباس والعادات التي بها يتميز بها أفراد الطائفة، عن بقية الطوائف الأخرى. وكان المعبد يرسم للأسرة والفرد مسلك حياتهم اليومي.

شبه بعض العلماء المجتمع القديم بقرية نمل، إذا خرجت عنهم نملة، ذبلت وماتت. وكذا الإنسان إذا عزل عن الآخرين، ولم يساهم معهم مساهمة كافية عانى ألماً وحدث له ما حدث للنملة الآبقة.

لقد كانت الشعائر والطقوس ضرورية، لتوليد حالة انفعالية تستدعي سلوكاً معيناً غايته زيادة اللحمة والترابط بين الفرد والمجتمع.

عندما هجر الحُرانية بيئهم الأصلية، ولم يمارسوا طقوسهم وشعائرهم، وضاعت عاداتهم، اضمحلوا ضمن المجتمعات التي هاجروا إليها.

الصلاة والدعاء:

الصلاة صلة ورحمة بين الفرد وربّه، والصلاة اسم المصدر، وهو التصليّة أي الثناء الكامل، والصلاة هي الدعاء والتبريك والتمجيد.

قال سعد الدين التفتازاني: «وردت كلمة الصلاة في لغة العرب بمعنى الدعاء، قبل شرعية الصلاة المشتملة على الركوع والسجود لأن الصلاة صلة بين العبد وربّه، والصلاة عند الحُرانية لا تختلف في جوهرها عن الصلاة في الديانات الأخرى. فالدعاء والتضرع للكواكب، وتلاوة التعاويذ الخاصة لاسترضاء الأرواح الخيرة، واجتناب أذى الأرواح الشريرة، واجبة على الرجل المؤمن الذي يدعو في صلاته:

صابئة حران هم اخوان الصفا

تقبلوا مني دعائي لإصلاح مافسد فينا، وتسهيل ماعسر علينا، وتسديد ماعدل عن الصواب من أفكارنا وأرائنا ليحصل لنا طيب العيش في الدنيا والتمكن من الخلاص في الآخرة»^(١).

«ويجب أن تكون النفس أثناء الصلاة، والتضرع غير مدخولة، والنية مضعوفة»^(٢). لأن الكواكب ذات النفوس الإلهية لا تقبل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، وإلا كان تأثير الكواكب في قضائها لحاجات الناس ضعيفاً. قال ابن النديم عن الحرانية «إنهم يصلون كل يوم للكوكب الذي هو ربه، لزحل يوم السبت وللشمس يوم الأحد وللقمر يوم الاثنين وللمريخ يوم الثلاثاء ولعطارد يوم الأربعاء، وللمشتري يوم الخميس وللزهرة يوم الجمعة. وزعم أحمد بن الطيب أن لهم ثلاث صلوات، عن طهر ووضوء، وعندهم صلوات نافلة وقبلتهم نحو الشمال»^(٣).

«كان توجه الحرانية للكواكب التي هي المديرات لهذا العالم، على عكس الصابئة المندائية الذين هم أناس موحدون لله، ولا يسجدون لتمثال أو صنم أو لكوكب بل يعدونها مظهر من مظاهر الخدعة، والنفاق والفتنة، ومن يعبدها فهو في نار جهنم خالد»^(٤).

وكان الحرانية لا يطلعون أحداً على صلواتهم ولا على دعائهم الأفلاطوني، إلا إخوان الصفا الذين كانوا منهم. وكان دعاء إبو نصر الفارابي (المتوفي ٣٣٩ هـ ٩٥١م) الأفلاطوني:

«اللهم إني أسألك يا واجب الوجود. ويا علة العلل، يا قديماً ولم يزل، أن تعصمني من الزلزل، ياليله المشارق والمغارب، ويارب الجوار الكنس السبع التي انبجست عنها الكون انبجاس الأبهـر، هن الفواعل عن مشيئة التي عمت فضيلتها جميع الجواهر. أصبحت أرجو الخير منك، وأمتري زحلاً، ونفس عطارد والمشتري.

اللهم أنقذني من عالم الشقاء، والفناء، واجعلني من (إخوان الصفا وأصحاب الوفاء). وسكان السماء مع الصديقين والشهداء».

صوم الحرانية:

الأصل في الصوم الإمتناع عن الطعام والكلام، وهو من الشعائر التي تدل على الطاعة لله والرغبة إليه.

الباب الأول

وفي صوم الحرائية، لا يمتنعون عن أكل الطعام النباتي بل كل ما يخرج من الحيوان من لحم وسمن وحليب وبيض، ويمتد يوم صومهم من قبل طلوع الشمس إلى ما بعد الغروب.

وصومهم في أيام معلومة من السنة. قال أبو الريحان البيروني «صوم الحرائية الكبير يقع في التريبع الأول من هلال آذار، والشمس والقمر في برجين ذوي جسدتين. وفطرهم في التريبع الأول، من هلال نيسان والنيان (الشمس والقمر)، معاً في برجين منقلبين مفروضين، وذلك يوجب أن تدور شهورهم في سنة الشمس دوران شهور اليهود^(٥). ثم فصل لنا ذلك أبو الفرج ابن الجوزي أيام صومهم قال:

«عليهم صيام شهر أوله ثمان ليال يمضين من آذار ويفطرون في السابع من نيسان وعليهم سبعة أيام أخرى أولها لتسع بقين من كانون أول (٢٢ - ٣١) وعليهم سبعة أيام أخرى من (٨ - ١٤) شباط ويختمون صيامهم، بالصدقة والذبايح^(٦).

وهذا يتفق مع مقالوه في رسائل إخوان الصفا.

ومن الأطعمة المحرمة عند الحرائية. من النباتات - الباقلاء (الفاول) والثوم والعدس واللوبياء والقرنبيط وكل ما ليس له جذور كالفطر والكأمة^(٧).

ومن اللحوم - يحرمون لحوم الإناث من الماعز والضأن والبقر^(٨) كما يحرمون أكل الجزور من الإبل^(٩) وسمك الجري والأرنب والضب، وكل طير وحيوان جرح ذي مخالب.

هذه المحرمات من الأطعمة هي نفس المحرمات عند النحلة الفيشاغورية.

الطهارة عند الحرائية:

الطهارة لغة هي التنزه عن الأدناس المادية والمعنوية. والطهارة شرعاً تعني الإغتسال بالماء الطاهر المطهر. وسمي الصابئة المندائية في جنوب العراق «بالمغتسلة» لكثرة ارتماسهم بالماء الجاري.

كان الحرائية لا يكثررون، من الارتماس في الماء الحي الجاري، كالمندائية وإنما كانوا يتوضؤون بالماء كالمسلمين، ويتطهرون من الجنابة. ذكر ابن العبري أنه اطلع على كتاب لثابت قرة الحرائي باللغة السريانية كتاب الطهارة والنجاسة^(١٠).

والحرانية ليسوا كالمندائية، القائلون في صلاتهم «بسم الله المتعالي. لا أمارس طقوسي بالنار ولست يهودياً ولا مسيحياً، ولكني أمارسها بالماء الجاري الطاهر الذي وهبه الله من أجل طهارة البشر»^(١١). ويتفق الحراني والمندائي، بتطهير أنفسهم من الجنابة.

وآذان المندائي «كل من يتعمد بالمعمودية يسلم». ومع ذلك يتفق المندائية والحرانية أن كل من يلوث الماء أو يتبول في النهر أو يتغوط به يصاب بمرض جلدي كالبهاق أو البرص^(١٢).

إذا مرّ الصابئي المندائي أو الحراني بالقرب من ماء جار يقول: «السلام عليك أيها الماء الجاري، من تحت عرش الرب، الذي يحيي بك كل من في الأرض»^(١٣).

بعض الطقوس والقرايين:

الطقس كلمة يونانية دخيلة على العربية، وهي تعني المنهج أو السلوك تجاه المقدس، فإذا كان الاعتقاد حالة ذهنية، فإن الطقس حالة انفعالية، من شأنها إحداث رابطة بين المتعبد والمقدس. وإن المعتقد والمقدس يتبادلان الاعتماد على بعضهما، رغم أن الطقس يأتي كنتائج المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه^(١٤).

والقربان أو الأضحية كل ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة وغيرها إبتغاء مرضاة الآلهة أو إئتقاء لسخطها. إلا الحرانية فإنهم لا يقدمون الأضحية لله وإنما تقدم للكواكب مدبرة هذا العالم. كان العرب يقدمون أولادهم أضحاحي (للات والغزى) كما قدم إبراهيم الخليل ابنه البكر أضحية للرب ثم فداه بذبح عظيم (كبش). وفي المسيحية قدم الله ابنه الوحيد فدية لخلاص البشر من الخطيئة الأولى.

كانت الأضحاحي قديماً، تقدم للآلهة لإطالة العمر، وقد اتهم الحرانية بتقديمهم أضحاحي بشرية للكواكب. ولكن أبا الريحان البيروني نفى عنهم تلك التهمة قائلاً: «لم يثبت عنهم سوى القرايين الحيوانية». والقربان الفلسفي عند ثابت بن قرة الحراني «ترك النفس محبة الدنيا والزهد فيها، وقلة الخوف من الموت، وهذه هي قرايين الحكماء والصديقين. أما القرايين الشرعية عند العامة، فهي لكل هيكل سماوي من السيارات والثوابت نحتوا له صورة وبنوا له معبداً يتقربون إليها بالدعاء والأضحاحي»^(١٥).

الباب الأول

جاء في كتب المؤرخين المسلمين حول قراينهم أن لكل كوكب قربان خاص به، من البشر أو الحيوان:

قربان المشتري:

يقربون إليه طفلاً وذلك أنهم يشترون جارية، ليطأها السدنة للأصنام السبعة، وترك حتى تضع جملها، ثم يأتون بها والصبي على يدها، ابن ثمانية أيام فينخسونه بالمسال (المخارز) والأبر وهو يكي على يد أمه. فيقولون له: أيها الرب الخير الذي لا يعرف الشر قد قربنا لك من لم يعرف الشر يجانسك في الطبيعة فتقبل قرباننا وارزقنا خير أرواحك الخيرة^(١٦).

قربان زحل:

صنعوا لزحل تمثالاً عظيماً من الآتك (البرونز) وهو أعمى، لذا تراهم يقربون إليه ثوراً حسناً، يؤتى به إلى بيت تحته خندق محفور، وفوقه درابزين من حديد، على ذلك الخندق، فيدخل الثور، فتغوص رجلاه ويده بين فتحات الدرابزين. ثم توقد تحته النار حتى يحترق. ويقول له المقرَّبون: مقدس أنت أيها الإله الأعمى، المطبوع على الشر الذي لا يفعل خيراً. قربنا لك ما يشبهك. فتقبل منا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة^(١٧).

قربان المريخ:

يقربون له رجلاً أشقرًا أتمش الوجه، أبيض الرأس من الشقرة، يأتون به، فيدخلونه في حوض عظيم، ويشدون قيوده إلى أوتاد في قعر الحوض، ويملأون الحوض زيتاً حتى يبقى الرجل قائماً، فيه إلى حلقه ويخلطون بالزيت الأدوية المقوية للعصب والمعفنة للحم والجلد، حتى إذا مضى عليه الحول قبضوا على «رأسه» فملخوا عصبه من جلده، ولفوه تحت رأسه، وأتوا به إلى صنمهم الذي هو على صورة المريخ. وقالوا: أيها الإله الشرير ذو الفتن والجوانح. قربنا إليك ما يشبهك، فتقبل قرباننا واكفنا شرك وشر أرواحك الخبيثة الشريرة. وهم يزعمون أن الرأس تبقى فيه الحياة سبعة أيام ويكلمهم بعلم ما يصيبهم تلك السنة من خير وشر^(١٨) في يقيني أن هذا الخبر عار من الصحة.

إلا أن ابن النديم يورد خبراً تاريخياً عندما سألهم المأمون (ألستم أصحاب الرأس في أيام والدي رحمه الله؟). وكان الجشهياري (محمد بن عبدوس المتوفي ٣٣١

صابقة حزان هم اخوان الصفا

هـ) قد روى في كتابه الوزراء «قصة الحرثاني» الذي صلب سنة (١٨٤هـ) في الرقة وهو صاحب قصة الرأس قال: محمد بن حصين الأهوازي: كنا مع جعفر بن يحيى بالركة، وخلا بأنس بن أبي شيخ، ناحية ونحن نراه، فأدخل صاحب الشرطة رجلاً من أهل الذمة (الحرثاني) وقال لجعفر: أحضرت الرجل الذي أمرت بإحضاره. فقال جعفر للرجل: ما اسمك؟ قال فلان بن فلان. قال: أنت الحرثاني؟ قال: نعم. قال جعفر لصاحب الشرطة: خذه فإن أمير المؤمنين أمر بقتله وبصلبه. فأخذ صاحب الشرطة وقال له: (أنس بن أبي شيخ): أصلبه على أطول عمود بالركة. فالتفت إليه الحرثاني فقال: إنشاء الله على أطول عمود، وإن شاء الله على أقصره. ليس والله بعدي غيرك.

قال أحمد بن الحصين الأهوازي: فعجبنا من صرامته ومن تحقق ذلك القول، وذهب به وصلب وقتل^(١٩).

القربان للشمس:

يقربون للشمس المرأة التي قتلوا ولدها للمشتري.

القربان لعطار:

يقربون إليه شاباً أسمرأ كاتباً متأدباً. يأتون به بحيلة، ثم يخدرونه، ويقدمونه إلى صنم عطار. ويقولون له: أيها الرب الظريف. أتيناك بشخص ظريف يطيعك فتقبله منا. ثم ينشر الشاب نصفين، ويربع ويجعل على أربع خشبات، ويضرم في كل خشبة النار حتى يحترق، ويحثون رماده في وجه التمثال.

القربان للزهرة:

يقربون لها عجوزاً شمطاء ماجنة، يقدمونها بين يدي تمثال الزهرة. ثم يأتون بالخطب فيجعلونه حول العجوز. ويضرمون فيه النار إلى أن تحترق فيحثون رماده في وجه صنم الزهرة.

القربان للقمر:

يقربون إليه رجلاً آدم شديد السمرة. ويقولون: «يا أبرد الآلهة وخفيف الأجرام السماوية، تقبله منا»^(٢٠) ثم يحرقونه ويحثون برماده وجه تمثال القمر.

الباب الأول

نلاحظ أن القرايين التي رواها من يكتنّون العداء للحرانية هي قرايين بشرية. بينما القرايين التي ذكرها ثابت بن قرة الحراني وإخوان الصفا هي قرايين حيوانية من بقر وضأن وديوك وحمام. وإلى هذا أشار البيروني.

هل كان الحرانية يأكلون القربان؟

اختلفت الأجوبة في هذه المسألة:

القول الأول: ذكره إخوان الصفا وهو أن الحرانية كانوا يأكلون القربان أو الأضحية وسائر لحوم ذبائحهم كيفما شاءوا إلا لحوم ديوك نذر السر فإنها مخصصة للكهنة ومتناول السر^(٢١).

القول الثاني: لا يأكلون القربان بل يحرقونه. وهذا قول ابن العربي: «أنه قرأني كتاب لثابت بن قرة. ذكر فيه ما يصلح من الحيوان لتقريب الضحايا ذكر فيه أن أكثر قرايينهم من البقر والماعز وسائر ذوي الأربع إلا الجزور من الإبل. ثم قال: «وقرايينهم الكثيرة لا يأكلون منها بل يحرقونها»^(٢٢).

القول الثالث: «يأكلون اللحم ويحرقون العظام وشحم الكلي»^(٢٣). هذه رواية طاهر بن المطهر المقدسي وهذه الرواية تتفق وما يقوله مايكل جيمس: لقد انتهى الإله زيوس بالناس فنحله بروميثيوس ثوراً. قسمه قسمين: احتفظ باللحم والأحشاء وأبقى في الجلد الكرش ولقائف من الشحم تغطي العظام. ثم سأل زيوس: أن يختار كومة فإذا به مع فضل علمه يختار مالا قيمة لهنم الدهن والعظام اللذين ظل الناس من بعد ذلك يحرقونها على المذابح للآلهة^(٢٤).

لِمَ حرم الحرانية أكل إناث البقر والضأن؟ حرموها لأنها خلقت للحرانة والسحب وإنتاج الحليب^(٢٥).

ولِمَ حرم الحرانية ذبح إناث الماعز؟

جاء في رسائل إخوان الصفا: «أن من المعظمين عند الحرانية (فولس وأسر الرومي) لعل في اسم (فولوس) تصحيف، والاسم الصحيح (فونا) زوجة (فونوس) ربة الأرض والحقول، والتي كانت كاهنة لها قدرة على التنبؤ، وهي التي حرمت ذبح المعزى، وجعلتهن للقربان فقط. وأن لاتقربهن حامل ولاتأكل لحومهن»^(٢٦).

عادات وتقاليدها:

شعائر الزواج والطلاق:

كانت الأسرة الحمرانية وحدة إنتاجية، مكتفية بذاتها من حيث إنتاج الطعام واللباس. وكانت المرأة تلعب دوراً هاماً، في اقتصاد الأسرة هذه الأهمية ورثتها حتى توريث العقيدة الدينية للأبناء فالديانة مرتبطة بالأم.

كان الزواج محصوراً بين أبناء الطائفة، وإن كان يفضل الإبتعاد في النسب لاعتقادهم أن زواج الأقارب يورث، الوهن والبهق، وكثرة الشعر والإصابة بالصمم. وكان الحمراني الذي يتزوج من خارج الطائفة يعتبر خارجاً على الدين بصورة تلقائية^(٢٧). وكان زواج الأنثى لا يتم إلا بولي وشهود. وكان زواجهم أحادياً فهم لا يقرون مبدأ تعدد الزوجات على عكس الصابئة المندائية الذين يقرون بل ويمارسون تعدد الزوجات^(٢٨).

كانت الديانة الحمرانية لا تحض على طلب الملذات فهم لا يطمأون المرأة إلا من أجل الولد، ويعتزلون الطامث، ويحرمون الرضاع من الغير، خشية العقاب في الآخرة^(٢٩).

أما من حيث الميراث فللمرأة كنصيب الذكر سواء بسواء، والمرأة المطلقة لا ترد، وعقد الثيب ينجم الكاهن الذي يقوم به، ولا يسمح في الطلاق إلا في حالات محددة حين ثبوت الزنا والمرض المزمن والسرقة أو ترك الصلاة عن عمد.

اللباس والزينة:

اللباس من المفاهيم الثقافية الملموسة في حياة الشعوب. فإذا كنت في أكبر مدن العالم مثل (نيويورك) تجد هناك تعدد الأعراق والأجناس ويمكنك أن تميز بسهولة الرجل (اليهودي) من لبسه اليرموكة على رأسه، ومن لحيته الكثة، وجدائل شعر رأسه، وسترته الطويلة قبل أن تسأله عن اسمه أو دينه.

ويمكنك التعرف على الرجل الهندي من طائفة (السيخ) من عمامته الملونة ولحيته الكثة وسوار يده اليماني، والرجل المسلم من عمامته والكاهن اليسوعي من لباسه.

فاللباس إذن إحدى السمات الثقافية التي يتوارثها الأفراد جيلاً جيلًا.

كان الحمرانية يلبسون الألبسة القطنية البيضاء ويمكنك معرفتهم من وفرات شعر

الباب الأول

رؤوسهم المكشوفة وهم الذين أثاروا انتباه الخليفة المأمون عندما مرّ بحران وسألهم عن ديانتهم فقالوا: له نحن الحرائية^(٣٠). وعندما هددهم المأمون، غيروا أزياءهم وقصّوا شعورهم.

كان الحرائية يحرمون لبس اللون الأزرق على الرجال^(٣١) كالمندائية اليوم ولباسهم المفضل الثياب القطنية البيضاء.

وكانت نسائهم يلبسن الجلايت الطويلة السوداء، المطرزة بخيوط حريرية ملونة ويتلصحن بالخر الحريرية السوداء أو الملونة. ويتحلين بالذهب والفضة والأحجار الكريمة.

وكان الرجال يضعون في خناصر أيديهم خواتم من الفضة، عليها فصوص ملونة مزينة بصور. قال ابن النديم «وشاهدت بأصابعهم خواتم منقوشة على فصوصها تماثيل حيوانات تصلح بزعمهم لفنون شتى - فسألته عن مصدرها فزعموا له أنهم يصيبنونها في قبور موتاهم القديمة فيتبركون بها»^(٣٢).

طقوس الموت والدفن:

إن الأساطير التي تضمنتها (محاورة فيدون)، لأفلاطون قد تناولت أصل الروح وهبوطها ثم انتقالها من جسد إلى آخر. لقد وهبت تلك المحاورة، فضلاً من القوة في معاكسة فكرة الموت، واستمرار الحياة بعد الموت (بالتناسخ) ساعدت تلك الفكرة، في إثارة نشاط الناس وتنظيم فعاليتهم^(٣٣).

قال هيرميروس: (النوم صنو الموت) هذه العبارة خلاصة عقيدة انحدرت من أحقاب بعيدة في تاريخ البشرية. وكان الحرائية يعتقدون بها وهي أن نفس الميت حتى بعد تقمصها لجسد آخر تظل قرية من البيت الذي عاشت فيه.

كان الحرائية يقدمون الطعام لروح الميت لمدة، سبعة أسابيع ويسمون ذلك الطعام (اللوفاي). والغريب أن هذه الطقوس لازالت دارجة في مدن الجزيرة وعلى ضفاف الفرات، وتدعى تلك الصدقة (عشيات الميت) وهذه من رواسب ثقافة قديمة.

ومن عادة الحرائية الاستعداد، لتجنيز الميت قبل خروج الروح من الجسد، لأن الروح لاتظهر إذا لم تخرج من بدن طاهر، لذلك يجب غسل الميت ساعة احتضاره وإلا تعذر تطهيره وحرّم مسه^(٣٤).

صابئة خراف هم اخوان الصفا

يحمل نعش الميت عادة رجال أربعة انحدروا من عائلة حرانية، مؤمنة منذ ثلاثة
ظهور، ثم يدفنون الجثة، ويكون وجه الميت باتجاه نجم القطب.
الانتحار محرم في الديانة الحرائية لأن النفس لكي تتطهر لابد أن تعاني في هذه
الحياة التي لا ينقطع عذابها^(٣٥).
والحرانية يحرمون البكاء واللطم على الوجه، لأن كل دمة تصبح نهراً، من الدموع
تعيق انتقال الروح إلى جسد آخر. لذا لا يقيمون الحداد ولا يلبسون الثياب السود.
- يكتب الحرانية على شواهد موتاهم أشعاراً جميلة (بالآرامية) وكانوا ينحتون
لذوي المكانة منهم صور تماثيل متقنة الصنع.

المراجع:

- ١ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٩٨.
- ٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٨.
- ٣ - الفهرست ص ٣٨٦.
- ٤ - الصابئة المندائيون ص ٤٣ سليم برنجي ترجمة أحمد جابر دار المدى ١٩٩٧.
- ٥ - كتاب الآثار الباقية ص ٣٢٢ أبو الريحان البيروني نشر أدوارد سخاو، لندن ١٨٧٨.
- ٦ - تلبيس ابليس ص ٨٤ عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق محمد علي خير.
- ٧ - الصابئة المندائية ج ١ ص ١٠٠ الليدي دراور.
- ٨ - المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣.
- ٩ - تلبيس ابليس ص ٨٤.
- ١٠ - تاريخ الزمان ص ٣٤ ابن العبري.
- ١١ - الصابئة المندائيون ص ٣٥.
- ١٢ - الصابئة المندائية ص ١١٣ سليم برنجي.
- ١٣ - الصابئة قديماً وحديثاً ص ٤١ عبد الرزاق الحسيني مكتب الخانجي القاهرة ١٩٣١.
- ١٤ - دين الإنسان ص ٤٤ فراس السواح.
- ١٥ - تلبيس ابليس ص ٦٠.
- ١٦ - المصدر السابق ص ٦٠.
- ١٧ - المصدر السابق ص ٦١.
- ١٨ - المصدر السابق ص ٦١.
- ١٩ - كتاب الوزراء ص ١٩٠ محمد بن عبدوس الجشهياري تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
- ٢٠ - تلبيس ابليس ص ٦٢.
- ٢١ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣٠٤.

- ٢٢ - مختصر تاريخ الدول ص ٣٨٤.
- ٢٣ - البدء والتاريخ ج ٤ ص ٢٣. طاهر بن المطهر المقدسي نشر كلمين هيوار باريس ١٩٠٣.
- ٢٤ - أساطير العالم القديم ص ٢٤١.
- ٢٥ - تاريخ الحكماء ص ٣١١ القفطى تحقيق جوليوس ليبيرت ليزينغ ١٩٠٣.
- ٢٦ - معجم الأساطير ص ١٠٠ ماكس شايررو ترجمة حنا عبود دار الكندي دمشق ١٩٨٩.
- ٢٧ - الصابئة المندائية ج ١ ص ٣٩.
- ٢٨ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٩.
- ٢٩ - المصدر السابق ج ١ ص ١٠٠.
- ٣٠ - الفهرست ص ٣٨٦.
- ٣١ - الصابئة قديماً وحديثاً ص ٤٥ عبد الرزاق الحسيني مكتب الخانجي القاهرة ١٩٣١.
- ٣٢ - الفهرست ص ٣٨٦.
- ٣٣ - منبع الأخلاق والدين ص ١٤٣ هنري برجيون ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم القاهرة ١٩٧١.
- ٣٤ - الصابئة قديماً وحديثاً ص ٣٤.
- ٣٥ - منبع الأخلاق والدين ص ٢٤٠.

الفصل الخامس

أعياد الحرائية واحتفالاتهم

أعياد الحرائية الشهرية والسنوية:

اقتربت أعياد الحرائية، بطقوس انحدرت إليهم من مرحلة تاريخية سابقة، عندما كانوا يعيشون على ما تجود به الطبيعة، عيشة كفاف، وفيها كانوا يلجأون إلى السحر والتنجم للسيطرة على طرائدهم أو للتنبؤ بشروط مناخية جيدة^(١). وكانت أعياد الحرائية ذات نزعة سلافية خاصة بهم وهي مثل كل الأديان الوثنية، يوم كانت سلطة الآلهة، لاتتجاوز حدود المنطقة التي يحمونها^(٢).

أعيادهم الشهرية:

١ - عيد الهلال من كل شهر. وفيه يتطهر الحرائي، ويجلس في محراب صلاة العشاء، يسبح ويقدر إلى أن يمضي من الليل الثالث الأول. ثم يقوم ويجدد الوضوء، ويسبغ الطهارة، ويخرج من منزله يقف تحت نجم الجدي. ويمكث حتى زوال ثلثي الليل ويدعو أثناءها بالدعاء الأفلاطوني والتوسل الهرمسي والمناجاة الأرسطوية المذكورة في كتبهم، أي في كتاب أوقات الصلاة لثابت بن قرة الحرائي، وإذا كان من أهل اليسار ذبح ما يقدر عليه من محلل الحيوان. ثم يخرج إليهم من الحكمة بحسب ما يوجب الزمان ويسعه المكان إلى بقية يومهم^(٣).

٢ - عيد ليلة البدر من كل شهر، إذا استكمل القمر استدارته، في تلك الليلة يفعل الحرائي ما فعله في العيد الأول.

٣ - عيد ليلة ٢٥ من الشهر، بينه وبين أول الشهر الجديد خمسة أيام يفعلون به ما فعلوه في العيدين السابقين^(٤).

كل هذه الأعياد تعكس عبادة القمر (سين).

أعيادهم السنوية:

١ - عيد الاعتدال الربيعي: في أول شهر نيسان، وهو رأس السنة عندهم وهو يوم

تزول الشمس في برج الحمل وفيه يستوي الليل والنهار ويعتدل الزمان ويطيب الهواء، ويهب النسيم ويزوب الثلج، وتسيل الأودية وتنبع العيون، وينبت العشب وتورق الأشجار، وتنتشر الحيوانات في المراعي، ويطيب عيش أهل البر.

كان حكماء الحرائية وكهنتهم يجمعون أولادهم بأحسن زينة، وأنظف طهور، ويتوجهون إلى الهياكل المقدسة يقربون لها الذبائح الطاهرة، ويضعون الموائد العامة، بأصناف الطعام فإذا أكلوا وفرحوا في سماع الموسيقى، ثم يبدأون بتلاوة الحكمة ونشر العلم فيكون بذلك راحة النفس، وكمال الأنس^(٥).

قد يقوم الحرائية في هذا اليوم بحركات تمثيلية غنائية لاسترضاء الآلهة مع تقديم القرابين الحيوانية والنباتية^(٦).

يبدو أن هذا اليوم، عيد مقدس عند كافة الشعوب، قال البيروني: إنه عيد معروف عند اليونان باسم (نوء الربيع)، ومعروف عند الفرس (بعيد هيرمزروز). وعند مجوس بخارى (نيم سروه) ومعناه نصف السنة، وهو عند الخوارزمية عيد (ازدا كندخوار) أي يوم أكل الخبز المشحم^(٧) وعند العلوية في ١٧ نيسان ويسمى عيد الرابع من نيسان وعند الدروز عيد النبي شعيب في اليوم الخامس والعشرين من نيسان.

٢ - عيد المنقلب الصيفي: إذا نزلت الشمس أول السرطان (نوء الصيف) وفيه يشتد الحر ويشول العشب، ويدرك الحصاد. قال إخوان الصفا «وكانت حكماء الصابغة الحرائية تجتمع فيه إلى الهياكل المبنية لذلك اليوم، وهم يلبسون زي خاص يليق بطبيعة ذلك البرج، ويأكلون الثمار الرطبة واليابسة، فإذا قضوا ماعليهم انصرفوا»^(٨). أما البيروني فيسميه (عيد الكرموس) أي عيد التبريك وفيه يبدأ السموم بالهبوب لمدة واحد وخمسين يوماً^(٩).

٣ - عيد الاعتدال الخريفي: إذا نزلت الشمس في أول دقيقة من برج الميزان، فيستوي الليل والنهار، ويدخل الخريف، ويطيب الهواء، وتهب رياح الشمال ويتغير الزمان، وتنقص المياه، وتجف الأنهار، وتقل مياه العيون وتجف أوراق النبات.

وفيه يدخل حكماء الحرائية الهيكل المبنى لذلك اليوم ويكون طعامهم ماوافق ذلك اليوم والزمان، ومن ثم ينشر من العلم مالا بد منه^(١٠). ذكر البيروني أن هذا العيد يقع في حدود ٢٥ أيلول، وهو عيد الشمع في تل حران (تل الفدان) وفيه تشتد الرياح، وتجيء الغربان البقع في أكثر البلدان والعيد السابق له يدعونه عيد رؤوس مخرج الأهلة.

الباب الأول

٤ - عيد المنقلب الشتوي: وفيه تبلغ الشمس آخر القوس وأول برج الجدي، ويتناهي طول الليل، ويقصر النهار، ويشتد البرد، ويتساقط ورق الشجر، ويموت النبات، وتحجر الحيوانات في أعماق الأرض، وكهوف الجبال من شدة البرد، وتكثر الأنداء وتهزل البهائم. قال إخوان الصفا: وكانت حكماء الصابئة تتخذ هذا اليوم يوم حزن وكآبة وندم واستغفار، وكانوا يصومونه ولا يفطرون^(١١). ذكره البيروني وقال عنه: هو أول الصوم الأول، وفطره يوم الاجتماع الذي يتلوه، ويحرم فيه اللحم، والإفطار عندهم بالصدقة والمواساة. وقد حدده في يوم ١٧ كانون أول وفيه يتمتعون عن شرب الماء، بعد النوم وطلي النوره، والحجامة إلا من احتاج به الدم، وذلك لبرودة الوقت، ورطوبته، وفيه يهون عن تناول لحوم البقر، والأترج (البرتقال). وقال أصحاب التبرنجات، إن من عبادة هذا اليوم القيام من الرقاد على الجنب الأيمن، والتبخير في صبيحته باللبان قبل الكلام ويستحب استقبال المشرق مع طلوع الشمس اثني عشرة خطوة متوالية^(١٢).

تعليق إخوان الصفا على أعياد الصابئة الحرائية. قالوا: إذا نظرت إلى أعياد الشريعة الإسلامية وجدتها موافقة لأعيادهم، فعيد الفطر وهو أعظم فرح بخروج الناس من شدة الصوم، وعيد الأضحى هو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج وإراقة الدم. فيكون فرحاً ممزوجاً، بغم وعيد غدیرخم يوم، وصية الرسول من حجة الوداع وفرحه ممزوج بغم لأنه خالط ذلك نكت وغدر، وهو موافق للعید الثالث الفيلسفي المنقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف^(١٣). هذا العيد (عيد غدیر خم) يصادف يوم ١٨ من ذي الحجة تأخذ به الشيعة دون السنة وفي هذا اليوم قال رسول الله: أيها الناس ألتست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والي من والاه وعادي من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللهم بلغت^(١٤) ثلاثاً.

يرى الشيعة أن هذا هو النص الجلي في إمامة علي عليه السلام. ذكره إخوان الصفا لإثارة الفرقة بين فرق الإسلام. وهم الحاقدون على الإسلام كله قالوا عن أعياد الحرائية: ماتوا عليهم وأقاربهم من المصائب سبباً لاختلافهم، وانقطاع دولتهم إلى أن يأخذ الله بقيام أولهم وثانيهم وثالثهم، في الأوقات التي تنبغي لهم القيام فيها. إذا برزوا من كهفهم واستيقظوا من طول نومهم. فأعيادهم أيها الأخ هي أشخاص ناطقة، وأنفس فعالة، تفعل بأذن باريها، ما يوجبها إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال.

- اليوم الأول هو العيد الفاصل من أعيادنا، هو يوم خروج أول النائمين منا، وهو يوم فرح وسرور لنا ولجميع إخواننا.

- واليوم الثاني - فيه تصرم دولة أهل الجور وانقضأؤها وهو يوم فرح وسرور واستبشار.

- اليوم الثالث - هو يوم قيام ثالثنا، وهو مقاومة الباطل للحق، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه.

- اليوم الرابع - يوم الحزن والكآبة، يوم رجوعنا إلى كهفنا (كهف التقية والاستتار) وكون حزنهم لغيبة سيدهم، كما غاب أبوهم سيد الناس، وما كان من الحزن والكآبة الواقعة بهم من بعده، وكون الأمر على مثل مانحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج والذهاب. ثم يروون حديثاً يوهون به على عامة المسلمين فيقولون: وكما قال صاحب الشريعة: إن الإسلام ظهر غريباً، وسيعود غريباً فيا طوبى بعد للغرباء^(١٥).

إن حلمهم هذا، هو أداتهم الوهمية، التي يرجون بها استعادة مافقدوه.

قال فيورباخ: «كلما ازداد بؤس الإنسان اتسع حلمه فعظمة الحلم الديني هو عظمة البؤس الديني»^(١٦).

وسأعطي تفصيلاً لأعيادهم، كل شهر بأعياده وقرائنه، والموقع الذي يحتفلون به. هل أخفى إخوان الصفا مايتهم به الصابئة بما يقدمونه من قرابين بشرية، كي لا يثيروا حفيظة العامة ضدهم؟. سوف أقوم بتحقيق ونشر هذه الأعياد كما وردت عند المؤرخين رغم احترامي لذكرى هذه الطائفة التي عاشت، وعانت، وأبدعت، ثم اختفت، وتلاشت من الوجود.

إحتفالاتهم على مدار السنة:

أعيادهم في شهر نيسان:

في هذا الشهر تبدأ، دورة الحياة الطبيعية، فينتشر الناس والحيوانات من بيوتهم الرطبة، ومن غرفهم الواطئة، من تلك الأزقة الوحلة الضيقة، التي تنقبض لمراها الصدور، ومن تلك المعابد المظلمة، من وسط هذا كله يخرج أهل حران، لينعموا بالنور والضياء والشمس والهواء، ويستمررون، في اللهو ثلاثة أيام، من بداية الشهر في الحقول، فتقدم القرابين إلى آهلة الزهرة (بلتي)، ينحرون لها الذبائح، راجين منها العون، لتكون سنتهم سنة خير ويمن.

الباب الأول

كان الحرائي، يحمل في ذاته ثقافة سلالية، ورثها منذ أجيال موغلة في القدم، وهي من مخلفات مرحلة الصيد والقنص، وإن مضت تلك السنون وأهلها، فقد ظل الحرائية يحتفلون بها، وهم أهل زراعة واستقرار^(١٧). كانوا يخرجون في هذه الأيام الثلاثة إلى قرية ترعوز، (أي باب الزهرة)، وآثارها موجودة على بعد ١٥ كم جنوب شرق حران، ضمن الحدود السورية في قرية (باب الهوى)، لأن الزهرة هي آلهة الحب والهوى.

وفي اليوم الرابع من نيسان يعظم الغناء والرقص. ذكره البيروني. وربما قامت في هذا العيد بعض الاحتفالات الإباحية. وفي اليوم السادس منه، ينحرون فيه ثوراً لإله القمر (سين)، (في قرية (صلم سين) وهي قرية على نهر سلقوس جنوب حران)، ويأكلون لحمه في آخر النهار. هذه رواية مأخوذة عن أبي سعيد وهب بن ابراهيم النصراني الحرائي^(١٨) أما البيروني فقد نقل خبراً عن الزيج الكامل، عن محمد بن عبد العزيز الهاشمي، الذي ذكر أن لهم عيداً في هذا اليوم، يقوم في دير كاذا^(١٩) وهو عيد شارا أي القمر. وقد ذكر ابن النديم أن عيد كاذا يجري في ٢٠ نيسان وهو على مقربة من باب فندق الزيت في الجهة الشرقية، حيث يذبحون فيه، ويحرقون لرحل والمريخ وللقمر والأرواح الشريرة. ذكر إخوان الصفا هذا العيد بقولهم: وهم يعظمون أروس (الصواب أريس) - أي المريخ - وصنم الماء الذي سقط من الآلهة في أيام (اسطروينغوس) وخرج قاصداً إلى بلد الهند، فخرجوا في طلبه فلحقوه، وسألوه أن يرجع إليهم، فقال لهم: إني لا أدخل بعد هذا، بلد حران، ولكن أجيء إلى (كاذي)، ومعناها (هاهنا) وأتفقد مدينتكم. وهم يخرجون في يوم ٢٠ نيسان من كل سنة إلى دير كاذا متوقعين ورود ذلك الصنم، فانتظارهم الورود مثل انتظار اليهود للمسيح^(٢٠) وقد سماه البيروني عيد الجمع لدير كاذي.

يتصور الحرائية آلهتهم كما يتصورها أسلافهم اليونان وهو أن الإله على شاكلة الإنسان، يجلب رضاه، ويتقي شره بالقرايين التي هي كالصلة صلة بين الإنسان والإله^(٢١).

أعيادهم في شهر أيار:

في أول الشهر يعملون قرباناً لسر الشمال، وفيه يشمون الورد، ويأكلون ويشربون خمراً، وفي اليوم الثاني يعملون عيداً لابن السلام، ونذوراً، ويملئون موائدهم، من كل طرفة وفاكهة وحلواء، ويأكلون ويشربون^(٢٢). وهذا العيد سماه البيروني (عيد سلوغا)

رئيس الشياطين بينما سماه إخوان الصفا (عيد جرجاس رئيس الشياطين)، وفي اليوم الثالث، لهم عيد بيت بغدادي، وفي اليوم الرابع، عيد النذور، وهو عيد الورد عند السريان، والسبب فيه أن والدته يحيى عليه السلام، اتحفت بياكورة من الورد، وهذا العيد له أصل وثني عند شعوب أوروبا، حيث يحتفلون فيه بالخروج إلى المقابر، حاملين الزهور البيضاء وأغصان شجر الآس والغار، وكانت تحتفل فيه النحلة الأورفية، ثم نقلتها الفثاغورية إلى الطائفة الحرائية. وفي ١٧ أيار لهم عيد خارج باب التبن، أو الباب الكبير في الجهة الشمالية وهو عيد (برخوشيا). أما الصابئة المندائية اليوم، ففي ١٨ أيار يقع عيدهم الصغير، وينتهي في ٢١ منه، وهذا العيد يقام على ذكرى الملاك جبرائيل، الذي جمّد الأرض، بعد أن كانت سائلة^(٢٣).

أعيادهم في شهر حزيران:

في اليوم ٧ حزيران ذكرى الإله تموز، وفيه نوح، وبكاء عند الصابئة الحرائية^(٢٤). وهذا عيد، كانت تحتفل فيه الشعوب القديمة، كالسومريين حيث يقوم الكهنة والشعب بتمثيل قصة (أنانا) آلهة الحب، وزوجها الراعي دموزي^(٢٥) وفي أيام المعتضد، جعل النيروز في ١١ حزيران، وصار أهل بغداد وبقية المدن، يحتفلون فيه برش الماء على بعضهم، ويحثون التراب، ويقومون ببعض الألعاب المسلية. وفي ١٧ حزيران عيد الأقباط فيه، لأن الملاك ميخائيل يسقط في ماء النيل نقطة من الماء المخمر، فيرتفع في الحال منسوب النيل، ويحدث الفيضان^(٢٦)، وفي يوم ٢٧ حزيران يعمل الحرائية تشميس السر للشمس، فيخرجون إلى الهواء الطلق، للاله الذي يطير النشاب. وهذا العيد كان مخصصاً عند اليونان للآلهة أرتميس أخت أبولو ربة القنص، وحامية الحيوانات البرية والنساء، ويرمز لها بالقوس والنبش^(٢٧) وفي هذا اليوم يمدون مائدة مقسمة إلى سبعة أقسام لآلهة الشمال، ويكون على رأسها الكاهن الأكبر (الكمس) فيوتر قوساً، ويجعل فيها نشابة من يوصين في رأسه نار، ويرمي (١٢) سهماً، ثم يمشي على رجليه ويديه، كما يمشي كلب الصيد، حتى يسترد تلك السهام، وهو يفصم، ويتفأل أن لاتنطفئ أعواد البوصين ليقبل العيد^(٢٨) يسمى البيروني هذا العيد (عيد بيت القصاب) عند الحرائية. نسبة إلى قصب البوصين، وهو نبات يشبه البردي، عليه زغب تشتعل النار فيه، كما تشتعل الشمع.

واحتفالات النيران كانت جزءاً من عبادة آلهة الشمس، وكانت المعتقدات الدينية إبان العصر الهلينستي ذات طابع فلكي^(٢٩).

أعيادهم في شهر تموز:

في ١٥ تموز لهم عيد يسمى (عيد البوقات) - أي النساء الباقيات - وهو عيد الإله تموز وفيه تبكي السماء عليه، وفيه لاتأكل النساء شيئاً مطحوناً في رحا، بل يأكلن حنطة مبلولة وحمصاً وتمرّاً وزيبياً ومأشبه ذلك^(٣٠). وفيه تُعيد النسوة تمثيل أسطورة الإله تموز البابلية، وهي قصة الفتى الراعي المملوء شباباً وعنفواناً، وهو من نسل الإله العظيم (أي الرب) وقد شاهدته عشتار ربة الحب، وآلهة الخصب والطبيعة، التي تسجد كوكب الزهرة، واعتبرت ربة القمر ورسمت بهلال، أو بقرني قمر جديد^(٣١) ولقد شاهدت تموز، يرعى غنمه تحت (شجرة أريدو) المقدسة، التي اغطت بظلها الأرض، فشغقت به حباً واختارته زوجاً لها وعاشا أمداً طويلاً في قصة حب ندية، لم تشهد السماء مثلها قط، حتى كان ذلك اليوم الذي هاجمه فيه خنزير بري، وهو يرعى غنمه، فقتله وهوى تموز، كما يهوي الموتى إلى الجحيم المظلم (أرالو)، فتوسطت عشتار عند أختها (ارشكجال) آلهة الجحيم، فأرسلت رسولها (نمتار)، فصب ماء الحياة على جسد تموز، فأحياه، وإذا النبات ينمو، وكثرت الحيوانات، وانطلق كل كائن حي، يبغي الإكثار من نسله، وعادت عشتار من جديد، على عرش الحب والربيع^(٣٢). هذا الأدب التمثيلي، لم ينتقل أثره إلى الفكر العربي، لنزعة الوثنية، قال ابن النديم: «إن لهم أدباً تمثيلاً كانوا يرددونه حكاية أسرارهم الخمسة»^(٣٣) ولقد أثبت الدكتور علي عقلة عرسان في كتابه (الظواهر المسرحية عند العرب) قال: «وما لاشك فيه، أن لدى العرب طقوساً دينية كسواهم من الأمم، وكانوا يمارسوها عند آلهتهم، وخاصة ما وجد منها في الكعبة، وحولها قبل ظهور الإسلام»^(٣٤). وقد نقل خبراً عن كتاب الإكليل للهمداني عن (عشر) الآلهة التي كان يعبدها اليمانيون، وانتقلت عبادتها إلى الشمال مع الفينيقيين، ويسمونها في السواحل الشامية (عشتروت)^(٣٥). وقد ذكرها اسحاق الانطاكي أنها كوكب الغزى، ويراد بها الزهرة، ويقال أن الأنباط اتخذوا لها معبداً في بصرى، عرف ب - (بيت ايل)، وقال بروكويوس إنها تشبه أفروديت، عبدت في الجنوب العربي، وقدم له ملوك الحيرة، القرايين البشرية^(٣٦). وفي هذا العيد يستمر الحزن سبعة أيام، وفيه تضحي الكاهنات بشرفهن، بينما يضحي الرجال برجولتهم، ويخدمون كخصيان في المعبد، ثم تحول هذا البغاء إلى قص الشعر الرمزي عند الرجال والنساء^(٣٧). وكان عرب الجاهلية، يقصون شعورهم، ويخلطونها بالديق. وجاء في الحديث: (لاتقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة) والمعنى أنهم يرتدون إلى جاهليتهم في عبادة الأوثان فتسعى نساء بني دوس حول ذي

الخلصة، فترج أعجازهن، وكان عباد ذي الخلصة وسواه، يرددون كلاماً معيناً، وهم يرقصون، وقد علق الدكتور جواد علي: «إن الجاهليين مثل غيرهم من الساميين يستخدمون الغناء في عبادتهم»^(٣٨) إن بعض أسباب نشوء الأساطير، والطقوس الجنائزية وعمليات السحر فيما يبدو، لاتعود إلى تفسير الظواهر الطبيعية، تفسيراً قائماً على العقل، ولكنه نشأ استجابة لعواطف الجماعة القاهرة^(٣٩). هذا ما قاله (ليفي بريل) عالم الاجتماع الفرنسي.

وللخوارزمية في هذا اليوم (عيد نيمخب)، يستعملون فيه البخور ورائحة الأطعمة، لدفع غوائل الجن، وتضع فيه عزائم السحر، التي وضعها الحكماء كجاليينوس وأمثاله، والعائدة مؤكدة إذا استعين بها بشيء من أمور الكواكب، والاختيارات بالأشكال المذكورة لذلك^(٤٠).

وفي يوم ١٧ منه عيد (عرس الرعاة) عند الحرائية، وفيه يستدلون على أيام السنة من هبوب الرياح السبعة، فإن أكثر ظهورها في العشيات والأسحار، فإن كل في عشائه غيم في الأفق، نرى برداً ومطراً في أول تشرين الثاني، وإن كان ذلك في نصف الليل، نرى المطر في نصف الشهر، ويسمون بها أيام الرعاة، يستدلون بها على كل شهر من شهور السنة، من لطخ الغيم في السماء^(٤١).

وفي ٢٥ تموز، ذكر سنان بن ثابت بن قرة الحرائي: أن كهنة الحرائية يعمدون إلى نشر ثوب من الكتان بعد وزنه، ويترك إلى بعد منتصف الليل، ولمدة أربع ساعات يتعرض فيها للندى، ثم يوزن ثانية، فما زاد، فكل مثقال فيه يقابله يوم مطير في الشهر المنسوب، إلى ذلك الليل حسب الأيام السبعة السابقة، أما القبط من أهل مصر، فإنهم يضعون لوحاً في العراء أمام الكوكب، ويزرع فيه من الزرع، فإن كل مايزكو في تلك السنة، يكون أصفر اللون، وما لا يصلح زرعه يبقى أخضر، ذكر ذلك البيروني نقلاً عن كتاب الأنواء لسنان بن ثابت بن قرة^(٤٢).

وفي يوم ٢٧ منه يعمل الرجال للجن والشياطين والآلهة، ويعملون طرموساً (خبز الملة عند الرعاة، كثيراً من دقيق وبطم وزبيب وجوز مقشر، كما يعمل الرعاة، ويذبحون تسعة خرفان ذكور، لها مان رئيس الأبالسة (وقرباناً لعمتريا) ويأخذ الرئيس من كل رجل درهمين، ويأكلون اللحم، ويشربون الخمر^(٤٣) لعله نمتار رسول الآلهة إلى العالم السفلي. وهذا العيد يؤقت بطلوع كلب الجبار، وهو الشعرى اليمانية العبور. وفيه يتمثل الصابئة لقول ابقراط، فيمتنعون عن تناول الأدوية الحارة والفصد^(٤٤).

أعيادهم في شهر آب:

في اليوم ٣ منه هو عيد صنم الزهرة (بليتي). وكان الورد والآس من مقدساتها، واليمامة والخروف وهي حسب رواية هوميروس ابنة زيوس من ديوني. ذكر هذا العيد البيروني دون أن يذكر مايفعلون فيه من طقوس ومايقدمونه من قرايين.

في اليوم ٨ منه، يعصبون خمرأ حديثاً، للآلهة، ويسمونهم بأسماء كثيرة مختلفة، وهذه الأعياد تعود إلى باخوس رب الخمرة، وهو متوحد مع ديونيسيوس اليوناني ابن زيوس، من سيملي رب الإنبات والخصب والخمرة، لأنه هو الذي أدخل الحضارة والزراعة وخصوصاً زراعة الكرمة وكانت تقام على شرفه مهرجانات، تدعى (ديونيشا)، تقام في جو من القصف والجون^(٤٥).

وكانت تقدم له الخمرة المعصورة حديثاً. ولكن حسب رواية أبي سعيد وهب بن ابراهيم النصراني الحراي: «أنهم يضجون في هذا اليوم بطفل حديث الولادة للآلهة أولي الأصنام. قال: يذبح الصبي، ثم يسلق حتى يهتئ، فيؤخذ لحمه فيعجن بدقيق السميد وزعفران وسنبل وقرنفل وزيت، ويعمل منه أقراصاً صغاراً، مثل الثين ويخبز في تنور جديد، ويكون لأهل السر للشمال لكل سنة، ولا تأكل منه امرأة، ولا عبد، ولا ابن أمة، ولا مجنون، ولا يطلع على ذبيحة هذا الطفل، وعمله إلا الثلاثة كمرين، وما بقي من عظامه، وأعضائه وغضاريفه وعروقه وأوراده تحرق قرباناً للآلهة»^(٤٦) ولكن البيروني اعتبر هذه التهمة باطلة، وكاذبة. قال: حكى عنهم ابن سنكلا النصراني في كتابه الذي قصد فيه نقض نحلته، فحشاه بالكذب، والأباطيل، وحكى عنهم عبد المسيح بن اسحق الكندي في جوابه إلى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي، أنهم يعرفون بذبح الناس، ولكن ذلك لا يمكنهم اليوم جهراً^(٤٧).

ترددت هذه التهمة كثيراً في كتب التاريخ العربي، والسرياني، وفي عام ٥٣٧ م اتهم الوثنيون في انطاكية، أنهم قدموا قرباناً بشرياً للإله ميثرا في دفنة (ميناء انطاكية)، فأعدم الكاهن الأكبر أناتولينوس في القسطنطينية^(٤٨). وهذه التهمة تنسب إلى كل من يعبد الزهرة، ذكر الراهب نيلوس (المتوفي ٣٩٠ م)، أسقف طور سيناء، أن أعرايياً، حاول تقديم ابنه لآلهة الزهرة، في طقوس استعدادها لها طول الليل، فألقته رهبان الدير^(٤٩). وقد ذكر الشاعر السرياني ماراسحق الرهاوي (المتوفي ٥٢٢ م): أنه في عام ٤٥٧ م غزا أعراي الحيرة قريته بيت حورا، وكانوا يعبدون الكواكب، وكان فيهم مسيحيون، إلا أن ديانتهم أفسدت، ويقدم هؤلاء الأعراي أولادهم، قرباناً لآلهة

الزهرة^(٥٠). وقد روى اليعقوبي أن عبد المطلب نذر لربه، إن إعطاه عشرة أولاد، لينحرن أحدهم، وعندما ولد له عبد الله، منعته قريش من تنفيذ وعده، خوفاً من أن تصبح تلك عرفاً، وفداه بذبح إبل كثيرة^(٥١).

وكان الرسول محمد (ص) يفخر، إنه ابن الذبيحين، جده اسماعيل ووالده عبد الله

وفي ٢٤ آب، لهم عيد يسمى (عيد الاغتسال)، يقيمونه، في حمة سروج، ويمكثون فيها حتى نهاية الشهر وهم يغتسلون^(٥٢). ومثل هذا العيد وفي نفس اليوم، يغتسل مجوس بخارى في المياه الجارية، وللمجوس في أصفهان عيد يسمى (أفريجكان) ومعناه صب الماء^(٥٣).

إن للصائبة المندائة اليوم عيد ملك النور، ومدته ٣٦ ساعة يقع في اليوم ٩ من آب وفيه يمكث الصائبي في بيته مختزناً طعامه وماءه، ويطالع الكتاب المقدس (الكنز رابا)، ويقرأ منه سفر ملوasha - أي سفر البروج - لمعرفة البرج الذي ولد فيه الشخص، ويسهر طيلة الليل خشية أن يحتلم^(٥٤).

أعيادهم في شهر أيلول:

في اليوم ٣ منه يسخنون ماء، يستحمون به سرّاً للشمال، لرئيس الجن (هامان) وهو الإله الأعظم، ويطرحون في الماء شيئاً من ملح الطرفاء، وصمغ الصنوبر وقصب وشطرج، ثم يغلقونه، ويستحمون به مثل السحرة قبل طلوع الشمس، ويدبحون، ويأكلون في مجتمعهم في حران، ويأخذ منهم الرئيس، درهمين لبيت المال عن كل رأس^(٥٥).

وفي ١٤ أيلول، ذكر البيروني: أن لهم صوماً يسمى (صوم دفلنا). وهذا اليوم تحتفل به اليونان، بذكرى دافني، ابنة بنيوس العذراء، وهي حورية وبنيوس رب نهري، وعندما هربت دافني من حب أبولو، حولها والدها إلى شجرة الغار، التي غدت مقدسة عندهم^(٥٦). قال جيمس فريزر في كتابه الغصن الذهبي: بالنسبة للرجل البدائي، إن العالم بصفة عامة، حي ذو روح، وليست الأشجار والنباتات مستثناة من هذه القاعدة، ولذلك فهو يعاملها طبقاً لهذا الاعتقاد وكان يحرم قطع شجرة الغار، وشجرة الصنوبر^(٥٧). وفي بعض الأحيان كان يعتقد بأن أرواح الموتى حية في الأشجار، بمعنى أن الأسلاف قد تحولوا أشجاراً. وقد أشارت الكتابات العربية إلى اعتقادهم، بتحول الأرواح الشريرة إلى عشب تأكله البهائم.

الباب الأول

وفي يوم ٢٥ أيلول يخرجون إلى الجبل، أو تل حران (تل الفدان غرب حران)، يشعلون فيه الشمع لذا يسمى عندهم بعيد الشمع^(٥٨). وفيه يقدمون قراينهم إلى الشمس، وزحل، والزهرة، حيث يذبحون الخراف، والديوك، ومن عليه نذر لرب البخت، يأخذ ديكاً عتيقاً، ويشد في جناحه بوصياً، (عود بردي)، ويشعل طرفه فإن احترق كله قبل نذره.

وفي يومي ٢٧ - ٢٨ منه، يقدمون قراين، ويحرقونها لسر الشمال، وهو الرب الأعظم الذي يعطيهم البخت.

أعيادهم في تشرين أول:

في اليوم الأول من تشرين أول (عيد الذهبانية)، وهي نبع عين البليخ، وتسمى اليوم (عين عروس) وتبعد ١٥ كم جنوب يحران، وفيها مزار ابراهيم الخليل، وكان الصابئة يسمونه (مصبتا)، أو عين التعميد، وينسبونه إلى آزر والد ابراهيم الخليل/ وبالقرب منه (نبع دافيء) كبريتي المياه، يقصده الناس للاستشفاء، حتى عام ١٩٩١ قبل جفاف عين العروس، والبئر معاً بعد استنزاف الآبار الارتوازية على الحدود السورية التركية، لياههما وقد جفت في عام ١٩٨٠ عين الحصان، ثم جفت عين صلوع ١٩٨٣م، وحول عين العروس يروى إيليان الذي كان معاصراً لبرديصان أسطورة تقول أن هيرا استحمت في نبع نهر البليخ، بعد، وصالها مع زيوس، ويقال أن الهواء هناك عطر بصورة مستديمة، والسماك الأليف يتوالب زرافات وأسراباً، وعلى مقربة منه بحيرة صغيرة من السمك المقدس على المصدر الرئيسي لنهر البليخ تدعى (عين العروس)، أو عين الخليل. هذا ما ذكره ج. ب. سيغال في كتابه الرها المدينة المقدسة. وهيرا زوجة زيوس. عُبدت كربة للزواج، وحامية للنساء ومن قراينها ومقدساتها (الطاووس وشجرة الرمان).

وفي ١٥ منه يحرقون قرب العين، قراينهم طعاماً للموتى. وفي هذا اليوم يشتري كل منهم، مما يجده من صنوف اللحم والفاكهة الرطبة (كالعنب)، ويطبخون أصناف الطبخ والحلواء، ثم يحرق جميع ذلك بالليل، ليكون طعاماً للموتى، ويحرقون مع هذا الطعام عظم فخذ من جمل، ويحيل ذلك للكلب المؤذية حتى لاتنبح عى موتاهم، فيفزعون، كما يصبون لموتاهم على النار خمرأ، ممزوجاً ليشربه، ثم يأكلون الطعام المحروق^(٥٩) وهذه الطقوس هي وليمة الموتى عند النحلة الأورفية، وهي لاتزال جارية عند الصابئة المندائية، في جنوب العراق، وتسمى هذه (الوليمة اللوفاني). وهذا العيد

يسمى عندهم (عيد البنجة)، أو (دهوه برونايا)، ومدته خمسة أيام، بين تشرين ثاني وكانون أول.

أعيادهم في شهر تشرين ثاني:

في ٧ منه (عيد بلتي)، صنم الزهرة، ذكره البيروني.
وفي ١٥ منه (عيد الأقسام)، ولعله عيد الأقسام السبعة، الذي ذكره ابن النديم، أنهم يعبدون فيه في ٢٧ حزيران، وفيه ينصبون مائدة، يجعلون عليها سبعة أقسام من الطعام، للسبعة آلهة الشمال^(٦٠).

وفي ١٧ منه يخرجون إلى قرية بطنان (غرب الرها)، وفي ١٨ منه ينتقلون إلى بلدة سروج، حيث العيون الجارية ويلبسون الثياب الجديدة.

وفي ٢١ منه يصومون لرب البخت، ويفتون في كل ليلة الخبز اللين (الحنطة)، ويخلطونه بالشعير واللبان والآس الرطب، ويرشون عليه الزيت، ويخلطونه، ويددونهم في منازلهم، ويقولون: ياتراق البخت، هاكم خبزاً لكلالكم، وشعيراً لدوابكم، وزيتاً لسرجكم، وآساً لآكاليكم، ادخلوا بسلام، واتركوا أجرة حسنة لنا ولأولادنا^(٦١).

أعيادهم في شهر كانون أول:

في اليوم ٤ منه، ينصبون في محراب مجمعهم خيمة (بلتي)، (صنم الزهرة)، ويعلقون عليها أصناف الفاكهة والرياحين، ويذبحون الذبائح من الطيور والحيوانات، ويستمررون على ذلك سبعة أيام^(٦٢).

وفي يوم ٧ منه يلقي الرئيس خطاباً أمام صنم الزهرة، (ذكر ذلك البيروني).
وفي يوم ١٠ منه عيد (صنم المريخ)، يقربون له، وفي هذه الليلة، حسب رواية سنان بن ثابت الحراني، ينهون فيه عن مواظبة الجماع. وقد علق البيروني قائلاً: «ولا أدري كيف ذلك، إلا أن الباه في الخريف وأوائل الشتاء غير محمودة، بل ضارة هادة للبدن»^(٦٣).

وفي يوم ٢٠ منه عيد الجن. والجن آلهة تحرس كل الكائنات، والأمكنة، وقيل إنهم يحضرون ولادة كل إنسان، لحراسته طيلة حياته^(٦٤).

وفي يوم ٢١ منه بداية الصوم الأول، وفيه يحرمون أكل اللحم، كالصوم عند المسيحيين، والإفطار عندهم بالصدقة (زدة بريخة) أي صدقة مباركة.

الباب الأول

وفي ٣٠ منه يجلس الكاهن الأكبر (الكرم)، على منبر مرتفع، يصعد إليه تسع درجات، ويأخذ بيده قضيباً، من طرفاء، ويمر به سائرهم، فيضرب كل منهم ثلاثاً، أو خمساً أو سبعاً، ثم يخطب فيهم فيدعو فيها لجماعتهم بالبقاء وكثرة النسل، وبخراب كنيسة الروم، والسوق المعروفة، بسوق النساء، (وفي هذا الموضع كان معبدهم الذي أخذه منهم عياض بن غنم، وبنى فيه المسجد الجامع. وفي هذه المواضع، كانت أصنامهم، التي قلعها ملوك الروم لما تنصروا) وإقامة دين عوزي (الزهرة)، ثم ينزل عن المنبر، فيأكلون من الذبائح، ويشربون، ويأخذ الرئيس (ريش أمه) من كل رجل في هذا اليوم درهمين لبيت مالهم^(٦٥).

في هذه الخطبة، يعرض الكرم (الكاهن الأكبر) المعاناة، التي لاقوها من البيزنطيين، حينما تنصروا، يقول اليعقوبي: (فلما قهرتهم الروم، وملكتهم بسطوة شديدة، وسلطان أبطلوا، ما كانوا يقومون به من سعيهم وأعمالهم، وحملوهم في بدء أمورهم، على شرائع اليونانيين، حتى فسدت لغتهم، ومازج كلامهم كلام الروم (اللسان اللاتيني)، ثم تنصرت الروم، فحملوهم على التنصر، فدرس ما كان من أمر دينهم وستنتهم^(٦٦)). والحقيقة أنهم لم يتعرضوا للظلم، كما وصفه اليعقوبي: إذ لم تضمحل ديانتهم وستنتهم، وإن لاقوا بعض الاضطهاد، وهم بدعائهم بخراب المسجد الجامع، يدل على أن حالهم في الإسلام لم تتحسن عما كانت عليه في العهود السابقة.

أعيادهم في شهر كانون الثاني:

في اليوم الأول منه عيد رأس السنة الشمسية. وفي اليوم ٤ منه عيد رأس الجبل، وهو للزهرة، وفي اليوم ٨ منه صوم فطرة، وفي اليوم ١٢ منه دعوة حسوا (أي القداسة)، وفي ١٥ منه الإفطار من الصوم الذي بدأوه في ٨ منه. وفي يوم ٢٠ منه يصلون للمشتري (بيل حران)، وكان له هيكلًا بمثابة قلعة استولى عليها المسلمون بعد أن لم يبق أحد من أهل حران على دين الصابئة عام ٤٢٤ هـ - ١٠٣٣ م.

وفي يوم ٢٤ منه ميلاد (سين إله القمر)، يعملون فيه سرًا للشمال، ويدبحون، ويحرقون ثمانين حيواناً، أو (٨٧ حيواناً) من ذوات الأربع والطيور، ويأكلون منها، ويشربون الخمر، ويوقدون (الدادي) وهو قضبان الصنوبر للآلهة، والآلهات^(٦٧)، لعله شجر السرباتو Sarbatu ذو الصمغة العطرية، وكانت حران مشهورة بإنتاج هذا الصمغ العطري، الذي ذكر بلينوس الكبير (٢٣ - ٧٩)^(٦٨) وهذه المادة تفيد أيضاً في العلاج، وصناعة العطور^(٦٩).

أعيادهم في شهر شباط:

في ٩ منه أول الصوم الأصغريصومون فيه سبعة أيام، ويفطرون في ١٦ منه وهذا الصوم مخصص للشمس الرب العظيم، رب الخير، وفيه لا يأكلون شيئاً من اللحم، أو الزفر الحيواني ولا يشربون الخمر ولا يصلون إلا للشمال^(٧٠). وفي اليوم ١٠ منه (عيد بيت العروس)، هكذا أسماه البيروني، ولعله في (عين العروس) نبع البليخ^(٧١). وفي ٢٢ منه عيد فطس (لعله منتو Mentu الرب رع على هيئة شمس مشرقة)^(٧٢). ذكره البيروني دون ذكر ما تقدم فيه من طقوس.

وفي اليوم ٢٤ منه عيد شيخ الوقار زحل، وفي يوم ٢٥ عيد عروس علمايا. ذكره البيروني والصواب (مارادا علما) أي رب الكون باللغة السريانية.

أعيادهم في شهر آذار:

في اليوم ٧ منه، عيد الاله هرمس، ذكره البيروني. وهرمس هو رب البخت (هرمس بن زيوس) من الجنية (مايا) وهو رسول الآلهة رب الطرق والتجارة، والأبواب والحظ، وقائد الموتة وحامي الرعاة^(٧٣).

وفي اليوم ٨ منه يصومون ثلاثين يوماً، ويفطرون فيه ٦ نيسان، وفيه يعيدون للرب الأعمى المريخ. وصومهم فيه، يوم تكون الشمس في برج الحوت، بعد ٣١ يوماً والشمس في برج الحمل، وربما صار الصوم ٢٩ يوماً، إذا كان هلال آذار ناقصاً^(٧٤).

وفي يوم ٢٥ منه يعيدون لصنم الزهرة، وفي يوم ٢٦ منه عيد عرس السنة الحرائية، ويستمر فيه الاحتفال العلني لمدة (١٣) يوماً متواصلاً، وتقام حفلة جنازية، تمارجها فقهقات صاخبة، من خلال القيام بتمثيلية، تمثل قيام الأموات وحفلة (ذبيحة الثور) وهي رمز لانتقال عنصر الحياة من الضحية إلى الإنسان. وفي يوم ٢٨ منه يخرجون إلى (قبة الآجر)، ويدبحون، ويحرقون ثوراً وكباشاً، وديوكاً كثيرة للمريخ. ثم تتوج هذه الأعراس في ٣٠ منه، يقيمون احتفالاً وابتهاجاً بعرس الآلهة، حاملين عشب التمر، يضعونها تحت وسائلهم في الليل باسم الآلهة السبعة، ومعها كسرة خبز وملح، وفيه يدفعون درهمين لبيت مالهم^(٧٥).

قال البيروني معقياً على أعيادهم «هذه نبذة من أعيادهم على وجه الإخبار، دون التفحص عن أوائل أحوالها، وتفصيل أسبابها»^(٧٦). وبدوري أقول هذه أعيادهم حاولت تفسيرها وتقريبها للأذهان قدر الإمكان والله أعلم.

المراجع:

- ١ - متبعاً الأخلاق والدين ص ١٨٣ برجسون ترجمة د. سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم القاهرة ١٩٦٠.
- ٢ - الفن الشعبي والمعتقدات السحرية ص ٢٨ سعد الخادم الألف كتاب ٤٨٨ القاهرة.
- ٣ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦٤ دار صادر بيروت ١٩٥٨.
- ٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٥.
- ٥ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٥ - ٢٦٦.
- ٦ - سعد الخادم ص ٢٩.
- ٧ - الآثار الباقية ص ٢٤٧ البيروني. تحقيق ادوار سخاو. لندن ١٨٨٧.
- ٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦٦.
- ٩ - الآثار الباقية ص ٣٢١.
- ١٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦٧.
- ١١ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٧.
- ١٢ - الآثار الباقية ص ٢٤٩.
- ١٣ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦٧.
- ١٤ - الآثار الباقية ص ٣٣٤.
- ١٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
- ١٦ - الماركسية والدين ص ٢٣ فيصل دراج دار ابن خلدون.
- ١٧ - الأئوس والتاريخ ص ٣ برومليه ترجمة طارق معصراني دار التقدم موسكو ١٩٨٨.
- ١٨ - الفهرست ص ٣٨٦.
- ١٩ - الآثار الباقية ص ٣١٩.
- ٢٠ - رسال إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٠٦.
- ٢١ - أساطير العالم القديم. ص ٢٤١.

- ٢٢ - الفهرست ص ٣٨٧.
- ٢٣ - الصابغة قديماً وحديثاً ص ٥٨ عبد الرزاق الحسيني مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٣١.
- ٢٤ - الآثار الباقية ص ٣١٩.
- ٢٥ - أساطير العالم القديم ص ٨٦.
- ٢٦ - سعد الخادم ص ٤٣.
- ٢٨ - الفهرست ص ٣٨٧.
- ٢٩ - هرقل فوق جبل أوتيا ص ٩٢ سنيكا الكويت ١٩٨٤.
- ٣٠ - الفهرست ص ٣٨٧.
- ٣١ - معجم الأساطير ص ٥٢ ماكس شاييرو ترجمة حنا عبود دار الكندي ١٩٨٩.
- ٣٢ - أساطير من الشرق ص ٩٦ - ٩٧.
- ٣٣ - الفهرست ص ٣٩.
- ٣٤ - الظواهر المسرحية عند العرب ص ٣٠ د. علي عقله عرسان - اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨٥.
- ٣٥ - المصدر السابق ص ٣٨.
- ٣٦ - المصدر السابق ص ٣٩.
- ٣٧ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج١ ص ١٢٧ فيليب حتي نشر دار الثقافة بيروت ١٩٥٨.
- ٣٨ - علي عقله عرسان ص ٤٥.
- ٣٩ - الأساطير ص ٣ - ٤ د. أحمد كمال زكي المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٧.
- ٤٠ - الآثار الباقية ص ٢٣٧.
- ٤١ - المصدر السابق ص ٢٧٠.
- ٤٢ - المصدر السابق ص ٢٦٩.
- ٤٣ - الفهرست ص ٣٩٠.
- ٤٤ - الآثار الباقية ص ٢٧٠.

- ٤٥ - معجم الأساطير ص ٨٧.
- ٤٦ - الفهرست ص ٣٨٧.
- ٤٧ - الآثار الباقية ص ٢٠٥.
- ٤٨ - أنطاكية القديمة ص ٣٣ جلانفيل داوين ترجمة ابراهيم نصحي القاهرة ١٩٦٧.
- ٤٩ - التاريخ العربي القديم ص ١٩٩ نيلسن وهومل ترجمة فؤاد حسنين دار النهضة القاهرة ١٩٥٨.
- ٥٠ - اللؤلؤ المنثور ص ٢٦٦.
- ٥١ - كتاب البلدان ج ص ٢٥١ أحمد بن واضح اليعقوبي.
- ٥٢ - الآثار الباقية ص ٣١٩.
- ٥٣ - المصدر السابق ص ٢٤٨.
- ٥٤ - الصابئة قديماً وحديثاً ص ٥٦.
- ٥٥ - الفهرست ص ٣٨٨.
- ٥٦ - معجم الأساطير ص ٨٤.
- ٥٧ - تراث الإنسانية مج (٧) ج ص ٣٢٥ القاهرة ١٩٦٧.
- ٥٨ - الآثار الباقية ص ٣١٩.
- ٥٩ - الفهرست ص ٣٨٨.
- ٦٠ - المصدر السابق ص ٣٨٧.
- ٦١ - المصدر السابق ص ٣٨٨.
- ٦٢ - المصدر السابق ص ٣٨٨.
- ٦٣ - الآثار الباقية ص ٢٤٨.
- ٦٤ - معجم الأساطير ص ١٠٥.
- ٦٥ - الفهرست ص ٣٨٨.
- ٦٦ - كتاب البلدان ج ص ١٨٧.
- ٦٧ - الفهرست ص ٣٨٩.
- ٦٨ - تاريخ العالم القديم ج ٢ ص ٢٥٣.

- ٦٩ - كتاب الأيام الستة ص ١٠٠.
- ٧٠ - الفهرست ص ٣٨٩.
- ٧١ - الآثار الباقية ص ٣١٩.
- ٧٢ - معجم الأساطير ص ١٦٧.
- ٧٣ - أساطير العالم القديم ص ٤١.
- ٧٤ - الآثار الباقية ص ٣٢٢.
- ٧٥ - الفهرست ص ٣٨٩.
- ٧٦ - الآثار الباقية ص ٣١٩.

الباب الثاني موروث الحرائية الفلسفي

الفصل الأول - حياة ثابت بن قرة الحرائي، وأهم أحداث عصره.

الفصل الثاني - تراث الحرائية الفلسفي.

- علمهم الإلهي.

- علم ظواهر الطبيعة.

الفصل الأول

حياة ثابت بن قرة وأهم أحداث عصره

النشأة الأولى في حران:

كانت حران في مطلع القرن الثامن الميلادي، مجتمعاً متعدد الأعراق والديانات. تعيش في ظل ثقافة عربية إسلامية، ولم تعد داراً أو عشاً للوثنية، كما دعاها أهل الزها. بل أصبحت مركزاً لثقافات متعددة (العربية والآرامية والخرانية).

في تلك البيئة ولد ثابت بن قرة الحراني سنة (٢١١ هـ ٨٢٧م)، كان أجداده يقطنون قرية «بيت مارنيوس» إلى الشمال الغربي من حران على مجرى نهر ديسان (الوثاب).

ذكر كتاب الفهرست أنه: «ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كزايا بن إبراهيم بن كزايا بن مارنيوس بن سلامانس»^(١) وجاء في كتاب مختصر تاريخ الدول، قال ابن العبري: «أنه قرأ كتاب ثابت عن تاريخ آبائه، وأسرته وأن نسبه كالتالي: «ثابت بن قرة بن مروان بن قيورا بن إبراهيم بن قيورا بن مارينون بن سلومون الصابيء الحراني»^(٢).

فالخلاف بين ابن النديم وابن العبري قليل، فاسم كزايا يعني الرجل بالسريانية، أو من كوريا Curia الوجيه في قريته، والمسؤول عن جمع الضرائب، والمشرف على المهن، والأشغال العامة، كانت هذه الوظيفة وراثية، في العصر البيزنطي، وكانت تسند إلى الوجهاء في القرية، وظلت هذه المهنة تمارس في العهد الأموي، وتسند إلى وجهاء أهل الزمة، الذين منهم الكتاب في الدواوين.

عندما مرَّ الخليفة المأمون بحران عام ٢١٨ هـ ٨٣٣م، واستغرب زي الخرائية وسألهم عن دينهم، فقالوا: نحن الخرائية. فقال لهم: أنتم (أصحاب الرأس) أيام والدي الرشيد رحمه الله، وطلب منهم انتحال دين من الأديان التي تقرها الدولة. فاسلم بعضهم، وتنصر البعض، وبقي (ثابت بن قرة) وآبؤه على دينهم. وكان ذلك مبعث افتخار ثابت بآبائه.

صابقة حران هم اخوات الصفا

قال: «عندما اضطر الكثيرون، إلى أن يتقادوا للضلال، خوفاً من العذاب، احتمل آباؤنا ما احتملوه بعونه تعالى، ونجوا بيسالة ولم تتدنس، مدينة حران هذه المباركة»^(٣).

كانت الحرف والمهن العلمية واليدوية، تنتقل بالوراثة، وبالتقليد مما جعل للأسرة دوراً هاماً في تنشئة الأطفال، وتكوين اتجاهاتهم الفكرية، قال العالم البولوني تاتارينسكي: لا تعلم بلا تقليد، بفضل أعمال التقليد تتجمع وتنتج منجزات الأسلاف الأوائل، والأحفاد في وحدة متكاملة تامة»^(٤).

كان للمعبد في حران دور هام في حياة الناس، ففيه تنتج بعض السلع المنزلية الهامة (كحياكة الثياب، وصناعة السيوف والموازين وصياغة الحلبي).

وكان الكهنة يبيعون انتاجهم، وينالون أجورهم، وهذا الشكل من أشكال الإنتاج الآسيوي، قد توارثه كهنة حران.

كان الفرس القدماء يجبرون الأبناء على قبول مهنة الآباء، وحجتهم في ذلك أنه أكثر نجاعة في التعليم، وأكثر ثباتاً للطبقات الاجتماعية. أما الصابئة الحرانية فخير المهنة متروك لاختيار الأسرة، بل وأحياناً للكهنة، عندما يحملون الصبي إلى المعبد، ويدخلونه إلى هيكل الصنائع، ليعرضوا عليه صور سائر الكواكب، فيتقدم الطفل لاختيار الصورة التي يرغب فيها، ويقدمون لتلك الصور القرابين، ويسلمون الصبي لمعلم الصنعة»^(٥). وقيل أن ثابت تقدم إلى صورة عطار (الكاتب)، وبذلك تحدد مستقبله.

كانت الدراسة تتم إما داخل المعبد، وإما خارجه، حسب درجة التعليم.

الدراسة الابتدائية:

تغيرت أهداف التعليم، وكذلك مناهجه، منذ العصر الأموي، حينما بدأ الحرانية، يقبلون في دواوين الدولة، ويسمح لهم بتعليم أبناء المسلمين. أصبحت اللغة العربية هي أداة التعليم في المراحل الأولى. وخرج التعليم من حجرات المعبد، وبذلك فقد سرية وخصوصيته، وصار أبناء الطائفة يتعلمون في المدارس مع أولاد المسلمين. يتعلمون اللغة، والشعر والنحو وحتى الفقه والحديث، وعلوم القرآن، كما كان أبو اسحق الصائبي (ابراهيم بن هلال) المتوفي ٣٨٥هـ، يتقن كل تلك العلوم، وكان شيخ المترسلين والكتاب في عصره.

مرحلة الدراسة العليا:

تبدأ هذه الدراسة بعد الخامسة عشر من العمر، ويصبح التعليم داخل المعهد، ويتغير المنهاج، وتبدأ اللغتان السريانية واليونانية تُعلّمان إلى جانب اللغة العربية، وبدأت دروس الفلسفة، والرياضيات، والفلك، والمنطق، والطب، تدرس بهذه اللغات الثلاث، وصارت كتب أرسطو، وأفلاطون، وبطليموس، وأقليدس وجالينوس هي الكتب المعتمدة.

واحتلت مادة (الترجمة والتفسير)، مكانها في المنهاج، يبدأ المعلم درسه بقراءة النص من السريانية أو اليونانية، (بعد التحقق من صحته، وعدم انتحاله) قراءة سليمة وبلغة واضحة، ثم يبدأ بشرح الكلمات الصعبة والغريبة لإزالة الصعوبة في فهم النص. ثم ينتقل المعلم إلى مرحلة أخرى، هي شرح النص والتعليق عليه، يشارك الطلاب ثم يكلف الطلاب، بنقل النص إلى اللغة العربية، في عمل جماعي مشترك، وكانوا ينقلون المعنى بحرية ثم يصوغونه بالفاظهم الخاصة، وإذا صعب عليهم مقطع أو فكرة في النص، كالصعوبة في إيجاد مرادفات بعض الكلمات، كان المعلم يسمح لهم بإبقائها بلغتها الأصلية، ريثما يجد (هو أو هم) مشتقاً يتناسب مع المعنى الجديد في اللغة العربية.

كانت عملية التذكر هي عماد التعليم وكان المعلمون يضعون الجوامع والملاحظات لكي يحفظها الطلاب غيباً، ثم يقوم الطلاب بشروح أخرى، تحت إشراف المعلم ليعود الطلاب حرية البحث والتفكير.

برز ثابت بن قرة بين أقرانه، وتميز بعقليته الموسوعية في الفلسفة، والرياضيات وتخرج من المدرسة من أبناء العهد (بناي قيوما)، وصار له الحق في كشف الأسرار، وتفسير كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس، وغيرهم ودعي (صديقاً)، وهم الحكماء الإلهيين، أو من كان حكيماً كاملاً في أجزاء علوم الحكمة^(٦). قال عنه ابن النديم في كتاب الفهرست: «وكان صديقاً»^(٧). ولكن المحقق أصلحها وجعلها «وكان صديقاً» مقارناً إياه بصديقه ونظيره في الحكمة، حنين بن اسحق (توفي ٢٦٤ هـ).

ثابت بن قرة معلماً في حران:

تصدر ثابت للتدريس منذ عام (٢٣٠ هـ - ٨٤٥ م)، وذاعت شهرته في ديار مضر. كانت الديانة الحرانية ديانة نجومية، تجل وتعظم كتب بطليموس الفلكية، وعمل لها

ثابت أرسداداً في حران وترجم بعضها، معتمداً على النصوص السريانية واليونانية. أما في الهندسة فالكتاب المعتمد، هو كتاب الأصول لافليدس، وقام ثابت بشرحه، كما شرع بترجمته، منذ أيام شبابه، وتصدى للبرهنة على مسلمة أفليدس في الخطبين المتوازيين. حاول ثابت تحويلها إلى نظرية، وكتب عنها رسالة بعنوان: «البرهان أن السطرين المستقيمين إذا ضبطا على أقل من متوازيين مستقيمين، التحما معاً»^(٨).

ومن الكتب التي درّسها كتاب المخروطات لابولونيوس الصوري، وكتاب الإيقاع الهرموني لأرستكسينوس التارنتي (عاش حوالي ٣٥٠ ق. م)، لأن الموسيقى جزء من منهاج الرياضيات، ويبدو أنه درّسه باللغة السريانية، حسب رواية القفطي.

وفي الطب درّس كتب جالينوس البرغامي (١٣٠ - ٢٠٢)، وكان يسميه (بالحكيم الفاضل). وكان يعتمد حكمة ابقراط في الطب، (إن حفظ الصحة هي دفع المرض بما يضاده).

وفي الفلسفة اتخذ ثابت الشاب موقفاً، لم ترض عنه كهنة الحارنة، فهو قد أعلى من الحرية العقلية، وإن الإنسان لا يحتاج إلى الشرائع، لأن العقل وحده كاف، ولا حاجة للوحي الإلهي. من هنا بدأ الخلاف بينه وبين الكهنة الذين استعدوا عليه السلطة. ولكن كثيراً من الشباب كانوا معه، قال القفطي: «إنهم صاروا من المغالاة، ما لا يكون بين غيرهم، وإن بعضهم يسعى في بعض، ويهيج عليه، إن وجد لذلك سبيلاً»^(٩) زاد ضغط الحياة على ثابت، مما اضطره إلى الهرب إلى كفرتوثا، ومنها انتقل إلى الرقة.

ثابت معلماً في الرقة (٢٣٤ - ٢٥٠ هـ).

في سنة (٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م) حدثت هزة أرضية في حران في أول حزيران، والناس نيام، فسقطت كثير من البيوت، وتصدع معبدهم، وسقط ثمانية عشر برجاً من سور المدينة، ومات منهم زهاء مائتي نسمة^(١٠).

وعلى أثر هذا الحادث الأليم، هاجر كثير من الحارنة إلى مدينة الرقة، ومارسوا فيها الحرف اليدوية، كصناعة الموازين، والاسطرلابات، وحياكة الثياب، وكان في المدينة جالية كبيرة من المسيحيين، وعلى رأسهم البطريك مارديو نيسيوس التلمجري (٨١٨ - ٨٤٥)، وازدهرت الحالة العلمية.

وعندما تولى الحكم الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ)، أصدر أمراً لأهل الذمة في سامراء، وبغداد، والرقة. أن لا يتعلم أبناء أهل الذمة في مدارس المسلمين^(١١).

الباب الثاني

فأنشأ ثابت مدرسة لتعليم الفلسفة، والطب، والرياضيات، والفلك. وانتسب إلى مدرسته كثير من أبناء الطوائف الخرائية، والمسيحية، واليهود وقد حفظ لنا التاريخ ذكر بعضهم.

من الخرائية: سنان بن ثابت، وإبراهيم بن ثابت، ولدي ثابت بن قرة. وابن أخته محمد بن جابر بن سنان البتاني، وأولاد الصباح الخرائية: محمد وإبراهيم والحسين كانوا من حذاق المنجمين، وعلماء الهندسة. وقرّة بن قميطا، وأبو روح الصابي، وإبراهيم بن زهرون قريب ثابت بن قرة.

ومن المسيحيين: أسيد بن عيسى النصراني، الذي لحق بثابت في بغداد، ليعاونه في الترجمة. وأيوب بن قاسم الرقي، وعثمان بن عنبسة، اللذين صاروا مترجمين مشهورين.

ومن اليهود: يهوذا بن يوسف، المعروف بابن أبي الثناء، الذي قال عنه المسعودي: تلميذ ثابت بن قرة الصابي في الفلسفة، والطب في الرقة، من ديار مضر^(١٢).

وعندما ذاع صيت ثابت، طلبه أولاد موسى بن شاكر، ولحق بهم في بغداد حوالي سنة (٢٥٥هـ - ٨٦٩م). قال البيروني: «صار ثابت بن قرة الخرائي، صنعة لهم في الترجمة ونقل الكتب، ويصلح لهم أربابهم، ويشرح لهم الغامض من علم الحيل والهندسة».

ثابت في بغداد:

جاء ثابت إلى بغداد في طلب أولاد، موسى بن شاكر، وصار لهم معلماً في علم الحيل، ومترجماً في الهندسة والفلك والحساب.

كيف توصل ثابت إلى أولاد موسى بن شاكر؟

اختلف المؤرخون في ذلك. قال ابن النديم: إن محمد بن موسى استصحبه معه إلى بغداد، لما انصرف من بلد الروم، لأنه رآه فصيحاً، وقيل أنه قرأ عليه فتعلم في داره، فوجب حقه عليه، فوصله بالمعتضد: وأدخله في جملة المنجمين^(١٣). هذه الرواية لا صحتها لها لأن محمد بن موسى بن شاكر توفي سنة ٢٥٩هـ - ٨٧٣ قبل تولي المعتضد للخلافة.

وفي رواية لثابت بن سنان (المتوفي ٣٦٤هـ / ٩٧٥م)، أن الموفق لما غضب على المعتضد وحبه في دار الوزير اسماعيل بن بلبل صار ثابت يدخل عليه ثلاث مرات

كل يوم ولما خرج المعتضد من الحبس سأل علامة بدر عن ثابت بن قرة^(١٤). وصار ثابت أصل مكانة الصابئة في هذه البلاد، وبحضرة الخلفاء ومن بعده ثبتت أحوالهم، وعلت مراتبهم، وبرعوا^(١٥).

وفي رواية المسعودي: «حين وافى ثابت المعتضد في طلب وصيف الخادم سنة ٢٧٩هـ، أتى إلى بيت انطاكية (بحران)، وقدم القرايين فيه تعبيراً عن شكره»^(١٦). وعلى كل حال، وصل ثابت إلى بلاط المعتضد، وكان عالماً موسوعياً، ذا فصاحة، وكان مترجماً بارعاً، ومصنفاً للكتب بالعربية، والسريانية، وكان بهما على أتم مايرام^(١٧).

كان ثابت أحد منجمي المعتضد، الذين سألهم ذات يوم، عن حال السنة المقبلة، عن (سنة ٢٨٤هـ - ٨٩٦م) فقالوا كلهم: إن الأمطار ستهطل مدراراً، وتفيض الينابيع وتغرق بغداد، ويهلك خلق كثير. إلا ثابتاً فإنه خالفهم. قال ابن العبري: «غير أنه من فاتحة السنة، وحتى خاتمتها، لم تسقط على الأرض نقطة مطر. حتى أن الينابيع جفت فاعتري المنجمين الحزني والحجل»^(١٨). فسأله المعتضد أن يضع له كتاباً، في الأنواء فكان ماطلبه^(١٩) مودعاً فيه خبرة الحرائية، وتجد له ملخصاً في كتاب الآثار الباقية للبيريوني.

كان المعتضد، يسأل ثابت بحضور معلمه الفيلسوف النابه، أحمد بن الطيب السرخسي، وكانت أجوبة ثابت، تنال إعجاب الخليفة، وجلسائه، ثم جمع ثابت تلك الأجوبة، وصنع منها كتاباً مؤلفاً من جزئين، في نحو مائتي ورقة^(٢٠).

كتب الحرائية كتاباً في فضائل، ومكانة ثابت، غلفوها بهالة، تضم مجدهم الغابر المفقود، وعزهم الزائل، وحاضرهم المنكود، طبقاً للمثل الفرنسي القائل: «جروح اليوم تصرخ وجروح الأمس تغني».

إذا كان المعتضد قد أقطع ثابتاً ضياعاً جليلاً، وكان يجلسه بين يديه، يحضرة الخاص والعام، بينما بدر غلام الأمير قائماً، والوزير إسماعيل بن بلبل وثابت جالسان، بين يدي الخليفة.

تلك من روايات أبي إسحق الصباييء (٣١٣ - ٣٨٤هـ)، صاحب المقولة المشهورة عندما شرع في كتابة تاريخ آل بويه: «أكاذيب ألقها، وأباطيل اتمقها». فمما قاله «إن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في بستان الفردوس، في دار الخليفة ببغداد. وكان المعتضد، قد اتكأ على يد ثابت، وهما يتماشيان. ثم سحب المعتضد يده من يد ثابت،

ففرع ثابت. فقال المعتضد، يأبأ الحسن، سهوت، ووضعت يدي على يدك، واستندت عليها، وليس هكذا يجب أن يكون. فإن العلماء يعلون ولا يعلون»^(٢١). أين رقة المعتضد وحلمه؟ عندما قتل معلمه ونديمه أحمد بن الطيب سنة (٢٨٦هـ - ٩٠١م)، وهو الرجل الذي وصفه المسعودي بقوله: «كان المعتضد قليل الرحمة سفاكاً للدماء، شديد الرغبة في تمثيل من يقتله. وكان إذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه من غلمان، يأمر أن تحفر له حفيرة بحضرته، ثم يدلي رأسه فيها، ويطر التراب عليه، ونصفه الأسفل ظاهر على التراب، ويداس التراب، فلا يزال كذلك حتى تخرج روحه من دبره»^(٢٢). وله في التعذيب فنون أهونها «كان يقام الرجل في أعلى القصر مجرداً، موثقاً، ويرمى بالنشاب حتى يموت. سأكتفي بهذا القدر من ذكر أفعاله المخيفة وقد اخترت أبسطها، وكان المسعودي يقول عنه لم يكن له رغبة إلا في النساء والبناء»^(٢٣).

ألف الحرائية تلك القصص على أثر ما ألم بهم من المحن، والمصائب ففي سنة (٣٢٠هـ - ٩٣٢م) أستفتى الخليفة القاهر أبا سعيد الاسطخري، محتسب بغداد، في الصابغة الحرائية فأفتاه بقتلهم، لأنهم يعبدون الكواكب. فغرمهم الخليفة حتى جمعوا من بينهم ما لا كثيراً فكف عنهم^(٢٤). وفي سنة (٣٥٠هـ - ٩٦١م) استصدر لهم أبو اسحق الصابي منشوراً للحرائية المقيمين بحران والرقعة من ديار مضر يأمر بصياتهم وحراستهم^(٢٥) وبعدها اختفت هذه الأمة من التاريخ بإعلانهم الإسلام.

من أقوال ثابت التي تدل على رجاحة عقله، وحسن خلقه، قوله: ما أحسد هذه الأمة الإسلامية إلا على ثلاثة أنفس: أولهم عمر بن الخطاب والثاني الحسن البصري والثالث أبو عثمان الجاحظ^(٢٦).

نشاط ثابت العلمي والاجتماعي:

صنف ثابت بالعربية زهاء (١٥٠) كتاباً في مجالات متنوعة في الفلسفة، والرياضيات والفلك، وألف بالسريانية (١٦) كتاباً في الديانات، والعقائد، والموسيقا وكانت تلك المؤلفات في إتقانها، وفصاحتها، على مايرام^(٢٧).

عمل ثابت بصحبة أولاد موسى بن شاكر، أصلح لهم النقل فنال إعجابهم. وكانت تربطه صداقة متينة مع محمد بن موسى، أهده رسالة تتضمن «إجابة في أمر الزمان»^(٢٨). كما أصلح له ترجمة حنين بن اسحق للمجسطي، لإصلاحاً قضى فيه حق إسحق عليه في الصحبة^(٢٩).

كما كانت تربطه بالعالم الفلكي سند بن علي اليهودي، الذي أسلم على يد الخليفة المأمون. أرسل إليه سند بعض الأسئلة الهندسية فكتب له أجوبتها^(٣٠).

واعترافاً بفضل الوزير الشكور اسماعيل بن بلبل ذو الخلق الرضي، والعقل الرصين، أهدها ثابت كتاباً في الشكل الملقب بالقطاع، وهو مقالة واحدة في الهندسة.

- وقد ردّ ثابت في أواخر أيامه في بغداد بالسريانية على الكندي في السكون بين حركتي الشريان، أولاً فيه بتغليط الكندي. ثم نقل الكتاب إلى العربية عيسى بن أسيد النصراني، وأرسله إلى إسحق بن حنين فاستحسنه إستحساناً عظيماً وكتب إسحق في آخر الكتاب بخط يده يقرظ، أبا الحسن ثابت ويدعو له بطول العمر، ويصفه بالفضل^(٣١). ولكن تلميذ الكندي الغيور على سمعة أستاذه أحمد بن كرنيب ردّ على ثابت بكتاب آخر بعد وفاة ثابت (٢٨٨ هـ - ٣٠٢ م)

كان ثابت من أصدقاء الشاعر والنديم علي بن يحيى المنجم فألف له كتاباً ضمنه أبواباً من علم الموسيقى والغناء العربي. وكان يشرح الأصول لعلم الألحان طبقاً للعلم الرياضي اليوناني. ذكر الأصبهاني في كتاب الأغاني «أن عبيد الله بن طاهر، كان يرسل المعتضد بالله، إذا استراب جواربه على ألسنتهن، ومع ذوي الأنس عنده، كعلي بن يحيى المنجم وأحمد بن الطيب وثابت بن قرة الحراني يذكر النغم، وتفصيل مجاريها، ومعانيها. حتى فهم ذلك فصنع لحناً، فجمع النغم العشر على التوالي، فجعلها على الصوت الأخير على التقديم، والتأخير في قول دريد بن الصمة:

ياليتني فيها جذع أحب فيها وأقع

وضع صفة جيدة، منها ماسمعنا من المحسنين والمحسنات وفيها ما لم نسمعه مبلغاً نحو خمسين صوتاً وقد ذكرتها لك فيما صلح في أغاني الخلفاء^(٣٢).

وبمساعدة وتوجيه ثابت جمع يحيى بن علي المنجم (ت ٣٠٠ هـ - ٩١٢ م) غناء عريب البرمكية من صحفها ودفاترها، وقدمه للخليفة المعتمد، فكانت ألف صوت^(٣٣) كما ألف رسالة في الموسيقى، وكتاباً في النغم، أشار فيه إلى من جمع العلم بالصناعة، والعمل، وبين أصحاب الموسيقى من الفلاسفة القدماء، في عدد النغم^(٣٤). وقد نوه فيه بفضل ثابت بن قرة. وعندما توفي ثابت رثاه يحيى بن علي المنجم بقصيدة طويلة، أورد منها هذه الأبيات^(٣٥):

ألا كل شيء ما خلا الله ماثت ومن يغترب يرجى ومن مات فاثت

نعينا العلوم الفلسفيات كلها وخبا نورها إذ قيل قد مات ثابت

الباب الثاني

وأصبح أهلها حيارى لفقده
ولما أتاه الموت لم يغن طبه
عجبت لأرض غيتك ولم يكن
تهذبت حتى لم يكن لك مبغض
وزال به ركن من العلم ثابت
ولا ناطق مما حواه وصامت
ليثبت فيها مثلك الدهر ثابت
ولا لك لما اغتالك الموت شامت

عاش ثابت بن قرّة الحاراني سبعاً وسبعين سنة قمرية (٢١١ - ٢٨٨ هـ). ومن الصفات التي نسبها إليه قومه الحارانية، القدرة على إحياء الموتى:

«قصة القصاب الذي مات بالسكة، وأعاد إليه ثابت الحياة بعد يوم من وفاته». وقال عنه ابن أبي أصيبعة: إنه لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا غيره من جميع أجزاء الفلسفة^(٣٦). بينما يرى سليمان بن حسان المعروف بابن جلدجل: «أن الغالب عليه الفلسفة دون الطب»^(٣٧).

أولاد ثابت بن قرّة:

سنان بن ثابت (توفي ٣٣١ هـ - ٩٤٣ م):

ولد في الرقة وانتقل مع والده إلى بغداد، وصار طبيب الخليفة القاهر، الذي دعاه إلى الإسلام فهرب إلى خراسان، ثم عاد بعد وفاة الخليفة إلى بغداد، وأصبح طبيب الخليفة الراضي الذي دعاه بدوره إلى الإسلام، فأسلم سنان على يدي الخليفة وكتب له كتاباً شرح فيه مذهب صابئة حران.

دعاه الوزير بجكم التركي إلى واسط لمعالجته فأشفاه. وعاد إلى بغداد وكلفه الخليفة بامتحان أطباء بغداد، وكانوا حوالي ٨٦٠ طبيباً، وفوضه لوزير علي بن عيسى الجراح (توفي ٣٣٤ هـ - ٩٤١ م) بالإشراف على طبابة السجون، وأهل السواد من كل الملل، بل وحتى الحيوانات، كانت تنال الرعاية الطبية، وكان العلاج يعطى مجاناً.

كتب ثابت بن قرّة كتاباً خصه لابنه سنان لوحده «في الحث على تعلم الطب والحكمة»^(٣٨). عاش سنان وعمر طويلاً حتى أرى على التسعين.

ابراهيم بن سنان (٢٣٩ - ٢٨٦ هـ):

كان شاباً مقدماً في علم الهندسة، لم يُر في زمانه شاباً أذكى منه، توفي في الأربعين من عمره أثناء حياة والده. كان فاضلاً نبهاً، ألف عدة كتب في أغراض المجسطي لبطليموس، وفسّر المقالة الأولى، من كتاب الخروطات لأبولونيوس

النجار^(٣٩)، كتب له والده كتاباً بالسريانية في علم النجوم والهندسة قال القفطي «رأيت به خطه وعليه عبارة ترجمتها: «مأمله ثابت للفتيان أبقاها الله»^(٤٠).

غاية القول: إذا كان الحرانيون قد زالوا قبل مطلع القرن الخامس الهجري. فما العوامل التي أسهمت في إضمحلالهم؟ الإجابة على هذا السؤال الشائك والمعقد، متعددة المناحي والجوانب.

قال بعضهم: إن الإسلام كدين سماوي، قدّم منظومة من الأفكار، عن الله والعالم والإنسان أكثر عمقاً من الفكر الحراني الوثني.

وقال آخرون: بل إن كل جماعة ذات ديانة سرية، ومغلقة، قد كوّنوا نسقاً من المفاهيم والرموز عبر تاريخهم الطويل ارتبطت بطقوس، وشعائر، كانت تمارس في معابد السرية. مما كان يزيد في ترابطهم، وعندما إنتقل الحرانية إلى بيئة مغايرة، ووسط لم يسمح لهم بممارسة تلك الطقوس، والشعائر، ضعفت الروابط بينهم واشتد الخلاف، مما سهل قبولهم للدين الإسلامي دون إكراه.

ورأى البعض: لم يتخل الحرانية عن عقيدتهم طوعاً، بل تحت الشعور بالدونية أمام المسلمين، لاسيما وأن الحرانية كانوا يتقلدون المناصب العليا في الدولة وفي الوقت نفسه، يدفعون الجزية علامة الصغار والدونية. هذا الشعور دفعهم لقبول الإسلام.

وفي ظني أن الحرانية هفت، بعد طول احتكاكهم وإطلاعهم على ديانات الشعوب الأخرى ففقدت عبادة النجوم، والتقرب إلى الشياطين سحرهما أمام جاذبية تعاليم الإسلام السمحة، وأدركوا أن الكواكب والنجوم كائنات لاعقل لها ولا تدير. فآثروا الإسلام بعد أن سربوا موروثهم الوثني القديم وكيفوه بما يتفق والإسلام وأودعوه رسائل إخوان الصفا.

المراجع:

- ١ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١١٥ اعدت نشره دار المثنى بغداد.
- ٢ - تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨.
- ٣ - المصدر السابق ص ٤٩.
- ٤ - في علم النفس الاجتماعي ص ٧٧.
- ٥ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٤١.
- ٦ - تاريخ حكماء الإسلام ص ٢٠ ظهير الدين البيهقي تحقيق محمد كرد علي مطبعة الترقى دمشق ١٩٤٩.
- ٧ - الفهرست لابن النديم ص ٣٣١.
- ٨ - تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨.
- ٩ - تاريخ الحكماء ص ١٢٣.
- ١٠ - تاريخ الزمان ص ٣٤.
- ١١ - المصدر السابق ص ٣٧.
- ١٢ - التنبيه والإشراف ص ٩٩ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاوي القاهرة ١٩٣٨.
- ١٣ - الفهرست ص ٣٣١.
- ١٤ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٩٥ لابن أبي أصيبعة تحقيق د. نزار رضا دار الحياة بيروت ١٩٦١.
- ١٥ - الفهرست ص ٣٣١.
- ١٦ - مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٥.
- ١٧ - تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٩.
- ١٨ - المصدر السابق ص ٤٧.
- ١٩ - الآثار الباقية ص ٢٤١ لأبي الريحان البيروني تحقيق أدوار سخاو لندن ١٨٧٨ اعدت نشره حيدر أباد الدين.
- ٢٠ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.

- ٢١ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
- ٢٢ - مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٢.
- ٢٣ - المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨٣.
- ٢٤ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٨٥ آدم متر ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده - بيروت ١٩٦٧.
- ٢٥ - المصدر السابق ج ١ ص ٨٦.
- ٢٦ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٢.
- ٢٧ - تاريخ الزمان لابن العبري ص ٤٨ - ٤٩.
- ٢٨ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١١٧.
- ٢٩ - المصدر السابق ص ١١٩.
- ٣٠ - المصدر السابق ص ١١٧.
- ٣١ - المصدر السابق ص ١١٦.
- ٣١ - كتاب الأغاني ج ٩ ص ٥٩ - ٦٠ لابي الفرج الأصفهاني طبعة تونس ١٩٣٦.
- ٣٣ - المصدر السابق ج ١٨ ص ١٧٦.
- ٣٤ - رسالة ابن المنم في الموسيقى ص ١٩٠ تحقيق د. يوسف شوقي دار الكتب القاهرة ١٩٧٦.
- ٣٥ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
- ٣٦ - المصدر السابق ص ٢٩٥.
- ٣٧ - طبقات الأطباء والحكماء ص ٧٥ لابن جلجل (سليمان بن حسان) تحقيق فؤاد سيد القاهرة ١٩١٦.
- ٣٨ - تاريخ الحكماء ص ١٢٠.
- ٣٩ - عيون الأبناء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٦.
- ٤٠ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.

الفصل الثاني

الفكر الفلسفي عند الحرائية

أولاً - فلسفة ماوراء الطبيعة، أو العلم الإلهي:

مدخل البحث:

كل فكر فلسفي هو بالضرورة فكر حضاري، يعبر عن روح عصره. والحرائية كفلسفة هي وليدة بيئة، وحصيلة تاريخ معين، وعقيدة، زال بعضها مع زوال المجتمع الذي أفرزها، وبعضها، بقيت آثاره ماثلة في الفكر الإسلاميين حتى وقتنا الحاضر.

كانت العقيدة الحرائية خليطة أفكار علمية وبقايا أساطير وثنية، قيض الله لها ثابت ابن قرة الذي نقّحها، وأخرج للناس أئمن مافيا من فكر جوهري وطرح منها ماغفى عليه الزمن. ولكن محاولته تلك هي في نظري كانت مغامرة خطيرة، أسهمت في تلاشي العقيدة الحرائية. لأن أي مذهب ديني أو فلسفي، هو جزء من صميم الفكر العام للبشرية، وأن حركة الجدل والمناقشة بين المذاهب في مختلف العصور، هي جزء لا يتجزأ من عملية التفلسف ذاتها، شريطة أن يحافظ المذهب على تماسكه الداخلي، وأن لا يقطع صلته بالحياة.

إن من يكتب تاريخ الفلسفة، لديه أهداف معينة، وتصور كيف يخرج كتابته للناس. لذا طرحت على نفسي السؤالين التاليين:

أولاً - هل تاريخ الفلسفة هو تاريخ عقول متميزة؟.. أخشى أن يؤدي هذا التساؤل إلى كتابة تاريخ الفلسفة، بأنه تاريخ عبقریات فردية، منعزلة وموجهة لتاريخ مجتمعه، في حين تاريخ الفكر الفلسفي - في نظري - هو حلقة في مسار التاريخ الحضاري العام، حتى وإن اقتصر البحث على مشكلات خاصة، أو مواضيع ذات طبيعة ضيقة النطاق.

ثانياً - لم تكن شهرة ثابت الفلسفة كشهرة الكندي؟ علماً أن مكانة ثابت الفكرية كانت أعلى من مكانة الكندي في عصرهما؟ إن ارتباط ثابت بالعقيدة الحرائية، وبالفلسفة الفيثاغورية اللذين هما إنعكاس لفلسفة وثنية، لم يستغفها

الفكر العربي المسلم، مما أخمل فكر ثابت في مجال الفلسفة، وأبقى ذكره عالياً في الرياضيات والطب.

كان ثابت بن قرة الحراني ذا عقلية ممتازة، تركت طابعها الواضح في رسائل إخوان الصفا، وفي حلقات فكر المعتزلة، وعلى مفكرين أمثال أبي بكر الرازي، وأبي نصر الفارابي، وأبي الريحان البيروني، وأبي علي بن سينا وغيرهم.

كانت علاقة ثابت بالحرانية علاقة حميمة، فهو المعبر عن تطلعاتها مما حدا بالباحثين إلى اعتبار أي نص يُعزى إلى الحرانية، هو نص لثابت حصراً. فالحرانية وثابت هما سيتان، كالماركسية وماركس في عصرنا.

قال أبو سليمان السجستاني (المتوفي ٣٧٠ هـ - ٩٨١ م): «كان ثابت بن قرة من الصابئة، وله سوى براعته في علوم الأوائل، رأسمال كثير ورياسة عظيمة في الصابئة. وقد رأيت له عدة كتب مصنفه في مذهبهم، هي عمدتهم الآن. وقد بلغ من جلالة قدره، وعظم محله في العلم، أن جعل كالمتوسط بين يحيى النحوي وبرقلس... وقد اجتمعنا ليلة عند الملك، أبي جعفر بن بابويه في سجستان، فجرى حديث فلاسفة الإسلام. فقال الملك: ما وجدنا فيهم - على كثرتهم - من يقوم في أنفسنا مقام سقراط، أو أفلاطون، أو أرسطو طاليس.

ف قيل له: ولا الكندي؟ قال: ولا الكندي، على غزارة علمه، وجودة استنباطه. رديء اللفظ، قليل الخلاوة، متوسط السيرة، كثير الغارة على حكمة الفلاسفة. إلا ثابت بن قرة فهو أزم لقطب الفلسفة، وأشد اعتناقاً لهذا الفن. ثم جميع الناس يتقاربون بعدهما»^(١).

في هذا النص قدر كبير من الصواب. وتقييم لفلسفة ومكانة ثابت.

- فهو المقدم على فلاسفة الإسلام في عصره.

- وهو المعبر عن العقيدة الحرانية.

قال أبو الفرج ابن العبري (المتوفي ١٢٨٦): لثابت بن قرة مصنفات في التعليمات الرياضية والطب والمنطق، وله تصانيف في السريانية، فيما يتعلق بمذهب الصابئة، في الرسوم والفروض والسنن، وتكفين الموتى ودفنهم، وفي الطهارة والنجاسة، وتقديم القرابين، وما يصلح من الحيوان للضحايا، وما لا يصلح، وفي أوقات العبادات، وترتيب القراءة في الصلاة. وأقوالهم قريبة من أقوال الحكماء الإلهيين، في التوحيد وهي على غاية التقانة»^(٢).

الباب الثاني

إذا كانت معظم كتابات ثابت الفلسفية قد ضاعت، فإنها قد حفظت في رسائل إخوان الصفا، وفي كتابات محمد بن زكريا الرازي (المتوفي ٣١٣ هـ - ٩٢٥ م)، الذي قال عنه المسعودي: «طريقة محمد بن زكريا الرازي، هي رأي الفيثاغوريين في الفلسفة الأولى، وقد صنف كثيراً على مذاهبهم والانتصار لهم، ومنها كتابه المسمى القول في القدماء الخمسة، على مذاهب الحرائيين بعد سنة ٣١٠ هـ»^(٣).

وقد أكد ذلك أحمد بن صاعد الأندلسي (المتوفي ٤٦٢ هـ - ١٠٧١ م). عندما قال: «وقد صنف جماعة من المتأخرين، على مذهب فيثاغورس، وأشباعه، وانتصر فيها للفلسفة الطبيعية الأولى القديمة، ومن صنف في ذلك، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي وكان شديد الانحراف عن أرسطو، وعائياً له، في مفارقه لمعلمه أفلاطون، وغيره. وكان يزعم أنه أفسد الفلسفة، وغير كثيراً من أصولها. ويعلل سبب انتصاره لفيثاغورس، وأفلاطون، لاستحسانه إعتقاد عوام الصابئة في التناسخ»^(٤).

درس أبو زكريا الرازي الفلسفة في بغداد، على ثابت بن قرّة، وما أعجبه فيه، قدرته في استخدام الألفاظ التي تعبر عن المعاني، دون أن تكتنف عباراته، ماهو غامض أو شاذ.

ذكر الفيلسوف النابه الذكر نصير الدين الطوسي (المتوفي ١٢٧٤) الحرائية قائلاً: «وقد نسب إليهم، بعض السلف، القول في قدم الباري، والهيولي، والمكان والزمان إلى الصابئة الحرائيين، وظنوا أن محمد بن زكريا الرازي، قد اقتبس مذهبهم منهم، (أي من كتب ثابت) وعمل فيه كتاباً موسوماً بالقول بالقدماء الخمسة»^(٥).

وفي دراسة حديثة لرسائل الرازي الفلسفية، قال المستشرق بول كراوس (١٩٠٠ - ١٩٤٤): «ليس هناك فرق بين مذهب الرازي، والحرائية، إن الألفاظ المنسوبة إلى الرازي وفي القول المنسوب إلى ثابت بن قرّة، والحرائيين، تتفق إتفاقاً تاماً»^(٦).

كان ثابت هو الممثل الوحيد للفكر الحرائي، وما كتب عن الحرائية في زمانه كان هو الباعث على تلك الكتابة كالفصحة الخيالية، التي جرت بين سقراط والحرائيين^(٧) والتي نسبت إلى الكندي.

كان أحمد بن الطيب السرخسي، صديق ثابت، وزميله في بلاط المعتضد، قال عن الحرائية: «إنه نظر في كتاب يقربه هؤلاء القوم، وهو مقالات لهرمس في التوحيد كتبها لابنه، على غاية من التقانة، لا يجد الفيلسوف، إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها»^(٨).

قصارى القول: إمتاز ثابت بعقلية تحليلية ممتازة، كتب بها عدة كتب ورسائل جمعت بين الاعتقاد بالكهانة، والفكر المنطقي، بإسلوب جلي واضح لاغموض فيه ونسب كل ذلك لأتمته، مما حفظ ذكرهم في التاريخ.

فلسفة ماوراء الطبيعة، أو الميتافيزيقا، فلسفة نظرية، اقتصرت على دراسة المبادئ الأولى للكون، لا على أنه أجزاء متفرقة، بل على أنه كل شامل^(٩).

وانطلق الحرائية، من أولى مراقبي تلك الفلسفة من المقولة التالية: «من عرف نفسه تأله». وستوا علم الميتافيزيقا بالعلم الإلهي، أو علم الوجود والماهية، وميزوا بين موضوعه الوجود المطلق، الذي لا يمكنه البحث في الجسم مثلاً، لأن ذلك البحث، من اختصاص الفلسفة الطبيعية، واقتصروا في العلم الإلهي، على مبادئ الوجود أو العلل الأولى.

وكانت أولى مواضيع هذا العلم الإلهي، هي معرفة الله، جوهر الوجود، ثم انطلقوا في البحث عن ماهية النفس. من أين هيئت، قبل تعلقها بالجسد؟ والفحص عن معادها، بعد فراقها الجسد؟ وعن عالم الأرواح وعن دار القرار؟.

أهم أبحاث العلم الإلهي:

الباري تعالى وصفاته:

كان صابئة حزان يعتقدون، أن الصانع المعبود، واحد وكثير في آن واحد، أما أنه واحد، ففي الذات، والأصل والأزل. وأما أنه كثير فلأنه يتكرر بالأشخاص، في رأي أعين، وهي المدبرات السبع، والأشخاص الأرضية الخيرة، العالمة، الفاضلة، فإنه يظهر بها ويتشخص ولا تبطل وحدته في ذاته^(١٠).

أصل هذه الفكرة موجود في مؤلفات الفيلسوف الأفلاطوني المحدث برقلس (٤١٢ - ٤٨٥)، الذي حدد الباري بالجوهر الفرد، الذي يتكشف في الكثرة، وأن الكثرة تسعى لتحقيق الوحدة فيه^(١١). وأن الباري سبحانه، أصل هذا العالم المائل أماننا.

قال نجم الدين الكاتبي (المتوفي ٦٩٣ هـ - ١٢٩٢م) قالت الحرائية: «إن الباري لاشك أنه حي فاعل لهذا العالم المحسوس»^(١٢). ولا بد من انتهاء الممكنات، إلى مؤثر واجب الوجود ولا يجوز أن يكون حادثاً، وإلا اقتصر إلى محدث، فيلزم التسلسل، وهذا الحال المطلوب^(١٣).

كان ثابت ينزه الله عن العلم بالموجودات، ظناً منه أن هذا العلم يضيف إلى الله

الباب الثاني

الكثرة. فالله لا يعلم إلا ذاته أولاً ودائماً «إن الله عقل العقل» متبعاً خطى أفلاطون (٢٠٤ - ٢٧٠) وإن لم يذكره صراحة.

أما إجابته على السؤال التالي: إن كان الله، خالقاً لكائنات عاقلة، فكيف يكون لها علم، ولا يكون للباري خالقها علم؟ ترى الحرائية أن الباري هو المدبر لهذا العالم بوساطة الكواكب، الصادرة عن العقل الفعّال. والله هو التام الحكمة، الذي لا يلحقه، سهو ولا غفلة، والذي منه تفيض الحياة كفيض النور عن قرص الشمس، وهو العقل التام المحض، الذي يعرف الأشياء معرفة تامة.

هذه الفكرة، وردت عند أفلوطين في كتابه التاسوعات، ومؤداها: أنه يصدر عن الواحد أو الخير، العقل (النوس) كصدور الإشعاع عن قرص الشمس، ولما كان العقل عاقلاً ومعقولاً، أي يعقل نفسه، صدرت عنه النفس الكلية، وهي مبدأ الوحدة في الكون. فالنفس الكلية هي الحلقة المتوسطة، بين عالم العقول، والعالم المحسوس، الذي صدر عنها. كحرارة النار التي تفيض منها على ماحولها من الأجسام من التسخين والحرارة، وهي جوهرية النار المقومة لذاتها. وهكذا فإن وجود العالم، مرتين ببقاء الباري تعالى، فمادام الفيض والجود، والعطاء متواتراً، متصلاً استمر وجود العالم، وإن الله لا يجوز عليه خبر موجب^(١٤).

هل أخرج الباري العالم دفعة واحدة، أم أبدعه على تدرج؟ أجابت الحرائية وثابت جواباً فيه تردد، فهو:

- إما أنه أبدع العالم دفعة واحدة، وأخرجه من العدم إلى الوجود على ما هو عليه.
- أو أنه أبدعه على تدرج، فأخرج الأشياء على ترتيب، على عمر العصور والدهور، وهذا الرأي يتطابق مع مقاله إبراهيم بن النظام السيار في نظرية «الكمون».

شاعت كتب الحرائية العرفانية، منذ منتصف القرن الثالث الهجري. مثل كتاب العلل أو سر الخليفة، وكتاب الخواص، الذي نسبوهما إلى (بلنيس)، ولكن أبو بكر الرازي شك في تلك الكتب، وأرجعهما إلى زمن المأمون وإلى ثابت بن قرة الحرائي رغم اقتباساته الكثيرة منهما، ومن كتاب سر الأسرار المنسوب إلى أرسطو^(١٥).

قال الرازي حول خلق العالم: أول المخلوقات نور روحاني خالص بسيط، وهو الهيولى صدر عن الباري تعالى، أو الأصل الذي تتقوم منه النفوس، وهي جواهر روحانية، نورانية، بسيطة صادرة، عن العالم العلوي، بالعقل والنور الفائض، من الباري

صابئة حركات هم اخوان الصفا

تعالى، نشأت النفوس، وتتبع النور ظل خلقت منه، النفوس الحيوانية خادمة للنفوس الناطقة^(١٦).

ومن الكتب التي أشاعها الحرائية في مطلع القرن الرابع الهجري، كتاب (جماعة الفلاسفة)، تضمن معتقداتهم، مع روايات إغريقية، عن أصل العالم، وفيه أن الكون حيوان حي كبير، حركته من نفسه، لأنه مكون من مبدئين:

أحدهما: مبدأ سام، عاقل، حكيم، هو الباري تعالى.

والثاني: هو الهولي المضطربة، رغم أن الباري نظمها ولكنها تمرت عليه، فخرج العالم مضطرباً، ناقصاً، طافحاً بالشر، رغم أن الباري سبحانه منزّه، عن خلق الشرور والقبائح.

أظن أن هذا الكتاب (جماعة الفلاسفة) هو من وضع ثابت بن قرة، وفيه رأي أفلوطين، وهو أن هذا العالم منوط، بالقضاء المبرم، والقدر المحتوم، للذين هما موجبات أحكام النجوم.

كانت دعوة الحرائية، دعوة الإنسان المظلوم، الخانع لقدره، فهي لاتدعو لتحطيم القيود، بل لضبط سلوك الناس، عن طريق الحكمة، لأن مشاكل الإنسان، يمكن أن تحل بالإيمان وبالتقرب إلى الكواكب مدبرات هذا العالم. قال أفلوطين: «إن العالم كائن حي واحد، لهذا كانت الضرورة اللازمة تحتم أن يكون في تعاطف مع ذاته^(١٧). وإن الكواكب تعرف صلواتنا، لأنها تتصل بنا مباشرة على نحو ما، ولأن لها اتجاهات، تبعاً لعلاقات معينة، في الواقع، و كل عملية من عمليات السحر، تهدف إلى إقامة صلة مباشرة بين أشياء، تسلك نتيجة لتأثيرات صادرة عن الكواكب التي هي متعاطفة معها^(١٨).

وأما عن تأثير الشمس «فإنها تحدث كل ما تحدثه بنفس الطريقة، التي تدفيء بها الأرض، وذلك بأن تنقل قدراً من النفس، بفضل النفس الغازية المتكثرة التي توجد فيها.. وأما عن تأثير النجوم، فإن تأثيرها بنوع، من الإشعاع دون أن تعتمد ذلك، مكونة شكلاً واحداً، اتجاهات تتغير بتغير ذلك الشكل^(١٩).

إشكالات النفوس الكلية والجزئية:

ظهرت فكرة النفس، عند شعوب الشرق القديم، إما نتيجة خبرة الموت، أي عندما ماتغادر النفس، جسد الإنسان، ويفقد روحه، وإحساسه. أو نتيجة للأحلام التي يراها

الباب الثاني

الإنسان أثناء نموه. تساءل الحراني قديماً ما النفس؟ فأجابته الكهنة: إن النفس شبيهة، بالنفس والهواء فهي جسم لطيف، على غرار الأشباح، التي نراها في أحلامنا.

وعندما دخل الفكر الفيثاغوري إلى حران، على أثر فتوحات الاسكندر المكدوني لبلاد الشرق، أصبحت الطبيعة، كلها زاخرة بنفوس شبيهة، بما هو داخل نفسه. فالعالم مغمور بنفوس، هي كذرات الغبار المتحركة، التي نراها في عمود الضوء الداخل إلى المنازل، ولكن أرسطو انتقد تصوراتهم قائلاً: «إنها مجرد خرافة فيثاغورية، ونفى أن تكون النفس إنسجماً للبدن»^(٢٠). كان الفيثاغوريون يشبهون النفس بالإنسجام في أوتار الآلة، مع بعض الاختلاف في المعنى، وتلك الخاصية هي الإنسجام، فالنفس توجد أولاً، وبعدها يتم الإنسجام، وهي التي تأمر الجسم وتسوده وغالباً ماتقمعه^(٢١).

كيف وفقت الحرائية بين عقيدتها والفلسفة الفيثاغورية؟. عندما أخذت الحرائية بتعاليم أفلوطين، واعتبرت أن النفس جوهر روحاني مجرد عن المادة، وهي خالدة، بعد انفصالها عن الجسد، ثم انتقالها إلى جسد آخر. هذه الأفكار حصلت نتيجة تطور وارتقاء الفكر البشري عند شعوب البحر الأبيض المتوسط. فكل فيلسوف. جاء بتصورات، مطابقة لمعطيات عصره.

قال هرقليطس: «إن النفس تتكون من أبخرة حارة ويابسة، وكلما كانت النار صافية، كانت النفس كاملة. فالنفوس اليابسة جداً هي خير النفوس وأصفاهها، وعندما تتوقف شعلة النفس في الموت، فإن شعلة العقل، تنطفئ إلى غير رجعة»^(٢٢).

وتابعه ديمقراطيس: «معتبراً أن النفس ذرة دقيقة، مصقولة، ومستديرة، يعني من نار وتوجد الذرات النارية، في كل الكون، كما تنتشر في أجزاء البدن، وهي تدخل وتخرج في الزفير والشهيق.

وقف أفلوطين ضد هذه التصورات المادية، وترسم حظى أفلاطون. قال «النفس هي مانسميه جوهرراً، لا يطرأ عليه استحالة، ولا فساد، فهي بالضرورة لافانية، وهي جنس من الطبيعة الإلهية ذاتها»^(٢٣). إن أفلوطين رجع إلى التراث الكهنوتي الذي تعرف عليه لدى كهنة حران، ومنبج (هيرا بوليس)، مما دعاه إلى القول: «كم من نفس كانت من قبل في أناس، لا تكف عن أن تضفي الخير عن الناس، فتنفعنا بأن تعرفنا النبوءات، وتعلمنا كل الأشياء»^(٢٤).

وقف ثابت بن قرة الحراني ضد التصورات المادية عن النفس، متبعاً تصور أفلوطين،

الذي اعتبر العالم كله حي يتنفس، له نفس واحدة، وجسد واحد. هذه النفس الكلية، خلقها الباربي حسب/ نسب رياضية، وموسيقية، وهي تمثل همزة الوصل بين المعقول والمحسوس، وهي مبدأ كل معرفة، والرموز الرياضية هي الوسيط بين المعقول والمحسوس، بين المثل والمثول، لأنها أزلية ليست خاضعة للتغير، وهي تتميز عن المثل، بأن الرموز الرياضية كثيرة متشابهة.

قالت الحرائية: إن أجزاء النفس الكلية، التي توجد في الأجرام السماوية، والنفس الإنسانية، تحرك بدن الإنسان، على نحو ما يدير الملاح دفة السفينة. وإذا مات الإنسان، انتقلت نفسه إلى جسد آخر، حتى تتطهر من أدرانها، بالمعرفة الإلهية. والنفس عندهم، لاتزول بزوال الجسد، ولاتفنى بفنائها، فهي ليست كمال الجسد كما قال أرسطو. بل هي كما قال برقلس «إنها داركة لاتبيد وإنها جوهر، وليست بجسم، ولاتلحقها لواحق الجسم»^(٢٥).

كيف هبطت النفس إلى الجسم؟ قال أفلوطين في إحدى تجلياته الروحية النادرة: «كثيراً ما أتيقظ لذاتي، تاركاً جسمي جانباً. وإذا أغيب، عن كل ماعداي. أرى في أعماق ذاتي، جمالاً بلغ أقصى حدود البهاء. عندئذ أتيقن، أنني أنتمي إلى مجال أرفع، فيكون فعلي أعلى درجات الحياة. وأتحد بالموجود الإلهي. وحين أصل إلى هذا العقل. أثبت عليه من فوق، كل الموجودات العقلية. وحينما أعود من معاينة العقل إلى الفكر الواعي. أتساءل: كيف يتم هذا الهبوط الحالي؟ وكيف يمكن أن ترد النفس إلى الأجسام، مادامت طبيعتها كما بدت لي، وإن كانت في جسم»^(٢٦). أعاد أفلوطين لنا تصور هرمس الحكيم، بصورة أكثر جاذبية، وتكثيف للمعاني الفلسفية.

ولكن لم هبطت النفس من عالم البهاء؟ يرى هيرقليطس أن هناك طريقان للنفس، الصعود إلى أعلى والهبوط إلى أسفل. لأن الشيء مع تغيره، يظل في سكون، وإن تكرار مجهود مطرد واحد، أمر ممل. من هنا كانت الراحة في الفرار أو الهبوط^(٢٧). وهبوط النفوس عند أنبادقليس: «قانون محتم على النفوس الخاطئة». وقد علل أفلوطين ذلك بقوله: «إن الحرية في الهبوط لاتتناقص مع الضرورة فالمرء لايتوجه إلى الأسوأ إلا كُرْهاً. ولكن لما كان توجهه، بحركته الخاصة، ففي وسعنا أن نقول إنه، يتحمل عقوبة ما اقترفه. ومادام الهبوط من المحل الأعلى يليي عند وصوله حاجات موجود آخر. فإن المرء لا يكون متجنياً، على نفسه، أو على الحقيقة حين يقول: «إن الله هو الذي أرسله»^(٢٨).

الباب الثاني

أورد المرزوقي الأصفهاني عبارة ثابت بن قرة الخرائني تقول: «إن النفس تفيض منها الحياة فيض النور. مترجحة بين النور والعقل، كالرجل الذي يسهو تارة، ويصحو تارة. وذلك أنها إذا نظرت، نحو الباري الذي هو عقل محض، عقلت وإذا نظرت نحو الهيولى التي هي جهل محض، غفلت، وسهت»^(٢٩).

بينما أورد الإمام فخر الدين الرازي قولاً لثابت، ونسبه إلى ملته الخرائنية: «قالت الخرائنية: وأما النفس فإنه يفيض عنها الحياة. فيض النور عن القرص، لكنها جاهلة لاتعلم الأشياء، مالم تمارسها»^(٣٠). هذه الأقوال، والأفكار، هي ترجمة حرفية لما جاء في كتاب التاسوعات لأفلوطين. الذي ينكر أن تكون المعرفة تذكر، كما قال أفلاطون قال أفلوطين: «ليس لنا أن ننسب الذاكرة إلى الله، ولا إلى الموجود، والعقل الذي لا ينطوي على زمان وإن على أزل»^(٣١).

ولكن، لِمَ لا تتذكر تلك النفوس أنها رأت الله؟. يجيب أفلوطين: أولاً: ليس من الضروري أن تحتفظ ذاكرة المرء بكل ما يراه. لأنه حين توجه النفس انتباهها إلى أشياء أخرى، لا تحتفظ بذكرى الانطباعات السابقة.

وثانياً: ليس من الضروري أن تكون للمرء صورة كل الظروف العرضية لإدراك ما. فخلال عبورنا مكاناً، فلن نحفظ عما نمر به، بأدنى ذاكرة، لأننا لم نفكر به خلال سيرنا. لأن التذكر يحتفظ بالذكرى بتعاقب الأزمنة^(٣٢).

وثالثاً: إن هذه النفس، طالما هي متأثرة بجاذبية، عالمنا الأرضي لا تروى سوى كل مافعله، أو انفع به الإنسان. فإذا مات تقدم الزمن، عادت إليها في ساعة الموت ذكريات «الحيات السابقة». فإذا مافارقت هذا العالم، ثم عادت إلى جسم جديد، أمكنها أن تروى حوادث الحياة، الخارجة عن البدن، وحوادث الحياة التي غادرتها، وإن كانت تنسى، بمضي الزمن كثيراً من الحوادث التي مرت بها^(٣٣).

قالت الخرائنية: إن النفس من جوهر الباري وهي من نوره، وإن الجري وراء اللذات، يحول دون معرفة الأشياء الشريفة، وإذا فارقت النفس البدن، التذت لذة كبيرة، لهذا لا يخشى الإنسان الفاضل الموت، كما فعل سقراط عندما شرب السم طوعاً واختياراً. ولأن النفس تتحرك نحو جسم آخر، دون روية كما يندفع الإنسان نحو الزواج، وإلى إتيان أعمال مجيدة، في بعض الأحيان^(٣٤).

هل النفس الإنسانية قديمة أم محدثة؟. قال فخر الدين الرازي: «ذهبت الخرائنية إلى أن النفس قديمة»^(٣٥). وكان المصدر الذي استقى منه فخر الدين الرازي كتاب زاد

المسافر لناصر الدين خسرو (المتوفي ١٠٨٨). قال: وأما ثابت بن قرة الحاراني المترجم كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية، فإنه أتى على أن الأفلاك والكواكب، أحياء ناطقة، وذلك أنه قال: إن الإنسان ذو حياة ونطق. وهذه النفس حية ناطقة. وهذه مقدمة صادقة.

ثم قال: إن أجساد الأفلاك والنجوم، بغاية الشرف، واللطافة وفي نهاية الطهارة. وهذه مقدمة صادقة ثانية.

والنتيجة من هاتين المقدمتين، أن الأفلاك، والنجوم، أنفساً ناطقة، وأنها أحياء ناطقة، فهذا البرهان على أن الملائكة هم الأفلاك، والكواكب، وأن هذه أحياء ناطقة^(٣٦) وعنهما صدرت النفوس الإنسانية المستقرة، منذ البدء في الكواكب، والتي تهبط إليها بتدبير الكواكب لتتحد بالأجساد عندما تصبح النطفة مهتأة لذلك.

قال ثابت: النفوس الصالحة تسعد بعد الموت برجوعها إلى الكواكب، أما النفوس الشريرة، فإنها تتقمص الجسد الإنساني ثانية، أو أنها تمسخ بجسد حيواني. وحينما تعاني وتتطهر تصعد إلى الكواكب ثانية. قال ابن العبري إن ثابتاً قال: وهذه المدة قد تستمر تسعة آلاف دور^(٣٧) وأظن أن تراث الحارانية، هو الذي أوحى إلى أفلوطين قوله: «بعد وقت معلوم، تعود النفس إلى الحالة المحددة. الحيوانات الدورية، لأن كل أمر في هذا العالم، منظم سواء في ذلك هبوط النفس، وصعودها، تتفق مع الحركة الدائرية للعالم، وترتسم أحوالها وحيواتها ومشياتها في علامات تظهر في الأشكال، التي تكنها الكواكب، والنفس لا تهبط دائماً بنفس المقدار، بل يزيد هبوطها تارة، وينقص تارة أخرى. حتى بالنسبة للنوع الآخر من الكائنات الحية^(٣٨).

يوم المعاد وبعث الأجساد:

في عقيدة الحارانية، الموت معبر نحو حياة أفضل، من هذه الحياة الفانية. وعلى الرجل الحكيم، أن يكون مستعداً لاستقبال الموت، بالرضا والتسليم، والقيامه عندهم، هي قيامة النفس، من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة. وهذه هي القيامة الصغرى، أما القيامة الكبرى، هي التي تشمل الجنس البشري كله.

قال الشهرستاني: قالت الحارانية: إن طبيعة الكل والأجرام، والكواكب، تحدث في كل إقليم من الأقاليم المسكونة على رأس كل (٣٦٤٢٥) سنة. زوجين من كل أجناس الحيوان، ذكراً وأنثى، من الإنسان وغيره، فيبقى ذلك النوع كل تلك المدة. ثم

إذا انقضى الدور، بتمامه انقضت الأنواع، فيبدىء دور آخر كذلك أبد الدهر، هذه هي القيامة الموعودة. على لسان الأنبياء عليهم السلام، فلا دار سوى هذه الدار، والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى لأعمل فيها^(٣٩).
وقال إخوان الصفا معبرين عن عقيدة الحرائية: «المنتظرون لأمر القيامة، طائفتان من الناس:

الطائفة الأولى (أصحاب الديانات السماوية):

الذين ينتظرون حدوثها في الزمان المستقبل، عند خراب السماوات والأرض. ولا يتصورون حقيقة القيامة، إلا إعادة هذه الأجساد برمتها، ثم يحشرون ويجازون بماعملوا من قبل، فإن عملوا خيراً دخلوا الجنة، التي يتصورونها أموراً محسوسة، بساتين وأشجار، وحور وغلمان، على مثال نعيم الدنيا. وإن عملوا شراً، دخلوا جهنم، التي يظنون أنها خندق عميق مملوء نيراناً مستعرة، يرمى فيها البشر، وكلما نضجت جلودهم، أعاد الباري إليها الرطوبة، ثم كَبَّهم من جديد فيها.

الطائفة الثانية (الحرائية):

وهؤلاء ينتظرون القيامة كشفاً وبياناً، لإدراكهم الأمور العقلية، وحقيقة الموت، أنه ترك النفس لاستعمال الجسد. والقيامة عندهم، هي يقظة النفوس الجاهلة، وهم لا ينتظرون بعث الأجساد، ولا يأملون نشرها^(٤٠).

قال الشهرستاني وإنما أصل التناسخ والحلول، نشأ من هؤلاء القوم، وإن التناسخ أن تتكرر الأكوار والأدوار إلى مالا نهاية، ويحدث في كل دور ما حدث في الأول، والثواب والعقاب في هذه الدار، لا في دار أخرى لأعمل فيها. وحياتنا الحاضرة، إنما هي أجزئة على أعمال سلفت منا في الأدوار الماضية، فالراحة، والسرور، هي جزاء أعمال البر، التي سلفت منافي الأدوار الماضية. وكذلك الضنك والحزن، التي نعاني منها اليوم هي جزاء أعمال الفجور، التي سبقت منا. أما الحلول فهو التشخيص، ربما يكون ذلك بحلول الإلهي في ذات الإنسان. وربما يكون بحلول جزء من الإلهي على قدر استعداد مزاج الشخص^(٤١). هذه هي أصل فكرة حلول الله في بعض الأشخاص.

أما تفسير الحرائية للجنة، والنار، فهو تفسير رمزي. فالجنة هي سعادة النفوس الصالحة، عندما نتخرج بالآداب، والنظر في العلوم الإلهية، وكتب الحكماء القدماء، فتصعد نفس الرجل الصالح شيئاً فشيئاً إلى عالم المعقولات، وتتحد بالباري سبحانه عن طريق الوجد، وفي هذه الحالة، تضع النفس يدها على جزئها الحقيقي، الذي هو

صابئة حران هم اخوان الصفا

الوحدة المطلقة، والخير المحض، وتسعد برؤية الله، وتأوي تلك النفوس إلى قناديل معلقة تحت العرش.

وأما جهنم فلا وجود لها إلا أن تظل النفس الشريرة تهيم، تحت فلك القمر تنخطفها الجن والشياطين، وتمنعها من معرفة الحقيقة، واستعمالها للخيرورة^(٤٢).

الأخلاق عند الحرانية:

غاية الأخلاق عندهم تطهير النفس الإنسانية، لكي يتوافق الفرد مع مجتمعه، ويعيش بسعادة في دنياه. وقد صنف ثابت كتاباً بين فيه الطريق لاكتساب الفضيلة^(٤٣). لأن الباري سبحانه هو مبدأ الحياة وغايتها، وإن سعادتنا لا تتم إلا برجوعنا إليه، وإن لكل فرد منا عقل يميز بين القبيح والجميل.

كانت الحرانية، تعتقد أن للكتب الإلهية تأويلات خفية باطنة هي المعاني المعقولة وأحكام ظاهرة جليلة، فيها صلاح ديننا. فمن وفق لفهم الكتب الإلهية، وأرشد إلى معرفة أسرارها واجتهد بالعمل والسنة الحسنة، واتبع السيرة العادلة، وصلحت نفسه، إذا فارقت الجسد، ارتفعت إلى رتبة الملائكة.

كان الحرانية الذين هم إخوان الصفا، يطمحون من أجل خلاص أنفسهم، من محن الدنيا وشقاوتها بإتباع تعاليم فيثاغورس، الذي أعطى كل ذي حق حقه. قال إخوان الصفا إن الموجودات، بحسب طبيعة العدد، وهذا هو مذهب فيثاغورس، الذي كان رجلاً حكيماً موحداً من أهل حران، شديد العناية بالنظر في علم العدد، والبحث عن خواصه ومراتبه ونظامه^(٤٤). والإطلاع على أسرار العدد، يؤدي إلى معرفة الحكمة الطبيعية والعيش فيها يؤدي إلى سعادة الإنسان.

لم تكن الحرانية مذهباً يدعو إلى اعتزال الحياة، إنهم كانوا يحثون الناس على الاجتهاد، وفي اتخاذ الصنائع، والتجارات، من أجل حياتهم المعيشية، والإلتزام بفضائل النفس الأربع، كل لا يلحق المرء مضرة، كفساد العقل وراة الدهن، وأما الفقر والحمول وسائر الأشياء الخارجية، فليست عندهم بقادحة في السعادة^(٤٥).

إن الزهد في الحياة والتمرس بالفضائل الأربع (كالحكمة والشجاعة والعدالة والعفة) كافية لكي تتمكن النفس اليقظة من غفلة الجهالة، والتحرر من أسر الطبيعة، والخروج من هاوية عالم الكون والفساد إلى فسحة عالم الأرواح، والمكث هناك فرحاً مسروراً مخلداً^(٤٦).

كيف يحصل المرء على الخلاص الإنساني؟

قسم الحرائية الأشياء الموجودة في عالمنا إلى قسمين:

- ١ - أشياء ليست موجودة باختيارنا وفعلنا، وتتوصل إليها بالتوسل الإلهي.
- ٢ - وأشياء موجودة باختيارنا وفعلنا، وهذه نتوصل إليها بالفصائل النفسية، وبالأخلاق الحميدة.

يعيش الإنسان ويمارس أفعاله، تبعاً لميوله الباطنة، ووفقاً للعدالة التي تسود الموجودات، وما من أحد يفلت من العقوبة، التي ينبغي عليه تحملها نتيجة لسلوكه الجائر، وقضاء الله لا يرد. وقبل أن يتطهر الإنسان من إثمه، وينال عقوبته، عليه أن يظل مدفوعاً بحركة مضطربة، ويهيم في كل مكان، حتى يهبط في المكان الذي أعد له، ويستسلم لمصير لا سلطان عليه، قال أفلوطين: «ويحدد القانون الإلهي، مدى العقاب وزمنه، فإذا ما انتهى العقاب، أمكنه أن يترك مكان الجزاء، تبعاً لما يقضي به الإنسجام الذي يسود كل الأشياء»^(٤٧). فإذا خلصت النفس من كل جسم، فإن موضعها يكون حيث يكون الجوهر والوجود والألوهية، فهي في الله، مع الجوهر والوجود^(٤٨).

ما الفرق بين واضع الشريعة (النبي) والحكيم الإلهي؟.

الدين في لغة العرب، معناه الطاعة من جماعة لرئيس. ولما كانت الطاعة تقتضي الأوامر والنواهي، والأحكام والحدود سميت هذه كلها شريعة. وأحكامها على وجهين: ظاهر هو العمل بالجوارح. وباطن هو الاعتقاد بالضمائر. وهذا هو الأصل عند الحرائية، وإخوان الصفا معهم.

كانوا يعتقدون: أن جميع أديان الشعوب واحدة، لأن العقل يسود فيها، والخلاف بين الديانات هو فقط في تأويل النصوص، وإقامة الطقوس، مع قولهم بتناسخ الأرواح^(٤٩) وإن اختلاف الشرائع ليس بضار، لأن الدين هو طاعة وانقياد للباري سبحانه، وما شرائع الأنبياء وسننهم إلا بحسب أهل كل زمان، مثل شريعة نوح وإبراهيم وموسى، وشريعة المسيح، وشريعة محمد في آخر الزمان، فهؤلاء كلهم دينهم واحد، وإم اختلفت شرائعهم، وإن الذين أنكروا نسخ الشرائع لم يعرفوا الفرق بين الدين والشريعة^(٥٠).

ماسبب اختلاف الشرائع إذن؟ عللوا ذلك الاختلاف في اختلاف الألفاظ، بين قراء النصوص، واختلاف المعاني، بين المفسرين والمترجمين، واختلاف أسرار الدين، وحقائق معانيه المختلفة، بين الأئمة والفقهاء، والكهنة الربانيون.

- من هو النبي عند الحرانية؟ النبوة أعلى رتبة ينتهي إليها البشر، ينالها الإنسان، بصفاء جوهر نفسه، في قبول الوحى كما يدرك من المعارف الحقيقية بالقوة الناطقة. قالوا: إن نفوس الأنبياء مهياة لصفاء جوهرها، على تقبل الوحى من النفس الكلية، بما في الكتب الإلهية، التي فيها عجائب العلوم الخفية، وما وضعت من الشرائع العلمية النافعة لكل الناس، فيستنفدوا بها نفوساً كثيرة، غريقة في بحر الهيولى، وأسر الطبيعة مثل نفوس المخلصين من الحكماء (الصدّيقين) الذين بنوا هياكل حكيمة، ونصبوا طلسمات عجيبة، مثل نفوس الكهنة المخبرة، بالكائنات قبل كونها بدلائل فلكية^(٥١).

ما الفرق بين النبي والحكيم الإلهي؟

فرق إخوان الصفا بينهم بما يلي:

- النبي أو واضع الشريعة، لا ينسب إلى نفسه شيئاً، مما يقول أو يفعل بل إلى الوساطة التي بينه وبين ربه، أي إلى الملائكة التي توحى إليه، والنبي عندهم بريء من المذمومات في النفس والآفات في الجسم، والكامل في كل محمود، وأن لا يقصر عن الإجابة بصواب في كل مسألة، ويخبرنا بما في الأوهام، وهو مجاب في دعوته ومذهبه يصلح به العالم ويكثر به عامره^(٥٢) ومن مهامه، معرفته كيف تساس النفوس الشريرة، وردّها عن سلوكها، وإجراء السنة في الشريعة، وبيان الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام، في أمور الدنيا، والتزهيد منها، وذم الراغبين فيها، وتفصيل أحكام الخاص والعام بين سائر طبقات الناس^(٥٣).

- أما الحكميم الإلهي أو الصدّيق. فإنه إذا استخرج علماً من العلوم، أو ألف كتاباً، أو استخرج صفة، أو دبر سياسة، نسب ذلك إلى نفسه، واجتهاده وجودة رأيه.

التوسل بالأصنام والهيكل:

عرفت الأمم كافة، عبادة الأصنام والكواكب، وكانوا يتوسلون إليها، بتقديم القرابين والأضاحي والحرانية يدعون أن الكعبة هي هيكل زحل^(٥٤). وأما عن غايتهم من تقديم القرابين، أفصح عنه إخوان الصفا الذين قالوا بصراحة تامة: «إن مذهبنا واعتقادنا هو مذهب صابئة حران»^(٥٥) وبينوا أن غايتهم بقولهم: «يا أخي إن غرض واضعي النواميس، في تحليل ذبح البهائم في الهيكل عند القرابين، إنما هو ليس لآكل لحومها فحسب، بل غرضهم تخليص نفوسها من درجات جهنم عالم الكون والفساد، ونقلها من حال النقص، إلى حال التمام والكمال في الصورة الإنسانية»^(٥٦). فغايتهم إذن من

الباب الثاني

القربان، تحرير النفوس الإنسانية الحبيسة في الحيوان، وإعادتها إلى صورتها الإنسانية، وذلك طبقاً لمذهبهم في تناسخ الأرواح.

وأما عن الهياكل والأصنام قال إخوان الصفا بلسان الحرانية: «ولما مضى أولئك الحكماء والربانون العارفون بالله، وانقرضوا، خلقهم قوم آخرون لم يكونوا مثلهم في المعرفة، والعلم والفهم، فأرادوا الإقتداء بهم في سيرتهم، واتخذوا أصناماً على مثل صورتهم، وصوروا تماثيل على مثل ما فعلت النصارى، في يعهم من الصور والتماثيل»^(٥٧).

وقدّموا لها القرايين التي قدمها الفلاسفة الحكماء القدماء للباري سبحانه، وكانوا يتقربون بالقربان مع الدعاء المستجاب، كما أوصى سقراط تلاميذه «اذبحوا لي ديكاً» في معبد دلفي^(٥٨)، هذا القربان الفلسفي يجمع الخصال التي دلت عليها التنزيلات السماوية، وأفعال الأنبياء، وأفعال الفلاسفة القدماء الذين بنوا الهياكل في الأرض على مثل ماهي مبنية في السماء»^(٥٩).

أما القربان الشرعي، أو الأضحية في الأعياد الإسلامية، التي كانوا يشاركون بها تقية، وقد عبّروا عن ذلك بما قاله إخوان الصفا: «متى كنت مقصراً في العبادة الشرعية فلا يجب أن تتعرض لشيء من العبادة الفلسفية، وإلا هلكت وأهلك، وأما العمل بالعبادة الفلسفية الإلهية، فهو إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً، والإسلام سابق على الإيمان»^(٦٠).

هذا النص يمثل وضع الحرانية في آخر أيامهم عندما خرجوا من كهف السرية ولبسوا قميص التقية، وكانت أولى خطاهم نحو التلاشي والزوال. وكما كان ثابت أصل رئاستهم كانت تعاليمه الفلسفية سبب زوالهم.

كان المجتمع الحراني الكهنوتي مقسماً إلى أربع طبقات:

١ - طبقة الصديقين: لتصديقهم صاحب الشريعة، ونصرتهم له، وهم أهل العرفان، وواضعوا العلم الإلهي.

٢ - طبقة الشهداء: سمّوا بذلك، لمشاهدتهم الأمور الروحانية المفارقة للهيولى، أي عرفوا الأسرار الإلهية والعلوم الروحانية.

٣ - طبقة المؤمنين: من قصر فهمهم عن معرفة الأسرار الإلهية، وتصور الأمور الروحانية، لكنهم أقرّوا بما أخبر به صاحب الشريعة، وقاموا بنصرتهم صابرين.

٤ - طبقة المسلمين: أقرّوا بلسانهم، وشكّوا بقلوبهم، وهؤلاء كالأعراب الذين

صابئة حرّاف هم اخوان الصفا

ذمهم القرآن: قالت الأعراب آمنا. قل لم تؤمنوا، لكن قولوا أسلمنا»^(٦١). هؤلاء هم عوام الصابئة، في آخر أيامهم الذين تحولوا فيما بعد إلى الإسلام، والله أعلم بسرائرهم.

كانت كل الطبقات الأربع السابقة، تعمل بمبدأ التقية، وتدعوا وتتوسل، بالدعاء الأفلاطوني، والمناجاة الأرسطوطالية، والتوسل الإدريسي (الهرمسي)، المذكورة في كتاب ثابت بن قرة الحراني المسمى (أوقات العبادات، وترتيب القراءة في الصلاة).

المراجع:

- ١ - صوان الحكمة ص ١٩٩ لأبي سليمان السجستاني تحقيق. د. عبد الرحمن بدوي طهران ١٩٧٤.
- ٢ - تاريخ مختصر الدول ص ١٥٣ ابن العبري دار المسيرة بيروت.
- ٣ - التنبيه والإشراف ص ١٦٢ المسعودي تحقيق عبد الله اسماعيل الصاري القاهرة ١٩٣٨.
- ٤ - طبقات الأمم ص ٣٣ صاعد بن أحمد الأندلسي مطبعة السعادة بمصر.
- ٥ - كتاب تلخيص المحصل ص ٥٧ نصير الدين الطوسي طباعة حيدر آباد ١٣٥٨.
- ٦ - الرسائل الفلسفية للرازي ص ١٩١ بول كراوي القاهرة ١٩٣٩.
- ٧ - الفهرست ص ٣٨٤ ابن النديم تحقيق رضا نجاد طهران ١٩٣١.
- ٨ - المصدر السابق ص ٣٨٥.
- ٩ - الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٥٦ إشراف على الترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٦٣.
- ١٠ - الملل والنحل ج ٢ ص ١١٢ الشهرستاني في تحقيق عبد العزيز الوكيل القاهرة ١٩٦٧.
- ١١ - الموسوعة الفلسفية ص ٨٢ دار الطليعة بيروت ١٩٨٠.
- ١٢ - كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٣٥ نجم الدين الكاتبي حيدر آباد الدكن ١٣٥٤.
- ١٣ - المصدر السابق ص ١٣٦.
- ١٤ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٥١ دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده القاهرة ١٩٥٧.
- ١٥ - تراث الإسلام ج ٣ ص ١١٥ كتاب عالم المعرفة الكويتي (١٢) ١٩٧٨.
- ١٦ - دي بور ص ١٥١.
- ١٧ - التساوية الرابعة لأفلوطين في النفس ص ٢٦٤ د. فؤاد زكريا وزارة الثقافة المصرية ١٩٧٠.

- ١٨ - المصدر السابق ص ١٩٣.
- ١٩ - المصدر السابق ص ٢٦٦.
- ٢٠ - مشكلات مابعد الطبيعة ص ١١٥ بول جانيه ترجمة يحيى هويدي مكتبة الانجلو مصرية ١٩٦١.
- ٢١ - التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٣٢٢.
- ٢٢ - مشكلات مابعد الطبيعة ص ١١٥.
- ٢٣ - التساعية الرابعة ص ٣١٦.
- ٢٤ - التساعية الرابعة ص ٣٢٢.
- ٢٥ - تراث الإسلام ج ٣ ص ١١٥.
- ٢٦ - التساعية الرابعة ص ٣٢٣.
- ٢٧ - المصدر السابق ص ٣٢٢.
- ٢٨ - المصدر السابق ص ٣٣٠.
- ٢٩ - كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٥.
- ٣٠ - التساعية الرابعة ص ٢٣٢.
- ٣١ - التساعية الرابعة ص ٢٠٨.
- ٣٢ - المصدر السابق ص ٢٢٧.
- ٣٣ - المصدر السابق ص ٢١٣.
- ٣٤ - كتاب الأزمنة والأمكنة ص ١٤٤ المرزوقي حيدر آباد الدكن ١٩٥٤.
- ٣٥ - رسائل الرازي الفلسفية ص ١٧٨.
- ٣٦ - دي بور ص ١٥٢.
- ٣٧ - مختصر تاريخ الدول ص ١٥٢.
- ٣٨ - التساعية الرابعة ص ١٩٤.
- ٣٩ - الملل والنحل ج ٢ ص ١١٣.
- ٤٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٧١.
- ٤١ - الملل والنحل ج ٢ ص ١١٤.

- ٤٢ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٧.
- ٤٣ - تاريخ الحكماء للفقطي ص ١٢٠.
- ٤٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٠.
- ٤٥ - تهذيب الأخلاق ص ١٤٦ - ١٤٧ ابن مسكويه تحقيق سهيل عثمان دمشق ١٩٨٦.
- ٤٦ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٦.
- ٤٧ - التساوية الرابعة ص ٢٠٧.
- ٤٨ - المصدر السابق ص ٢٠٨.
- ٤٩ - ملحق موسوعة الفلسفة ص ٢١٢ عبد الرحمن بدوي بيروت ١٩٩٦.
- ٥٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٧.
- ٥١ - المصدر السابق ج ١ ص ١٠.
- ٥٢ - الفهرست ص ٣٨٤.
- ٥٣ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٩٥.
- ٥٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٢.
- ٥٥ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠.
- ٥٦ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢.
- ٥٧ - الفهرست ص ٣٨٥.
- ٥٨ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧٢.
- ٥٩ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٧١.
- ٦٠ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٢.
- ٦١ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٢.

ثانياً - الفلسفة الطبيعية عند الحراية أو (علم ظواهر الطبيعة):

مدخل البحث:

عاش الإنسان محاطاً بعدد لا يحصى من الظواهر الطبيعية، والأجسام المتنوعة. وكان هم الإنسان الدائم فهم العالم المحيط به. إلا أنه كان يواجه دائماً، بمهمة صعبة الحل.

- ما أصل هذا العالم؟.

- من أين جاء؟.

- وإلى أين يمضي؟.

شكلت الإجابة عن هذه الأسئلة، علم العلل الأولى، والمبادئ التي لاسابق عليها، أو علم الظواهر الطبيعية. وهو العلم الذي يحاول تعليل الوحدة والكثرة في الكون. وكان لفلاسفة المدرسة الأيونية الذين يسميهم العرب «قدماء الفلاسفة» قصب السبق في تحديد أولى مبادئ الموجودات.

قال طاليس «الماء هو جوهر الأشياء» ولكن هذا العنصر عنده ليس مادياً خالصاً، لأن له نفساً جعلته أصل الحياة.

وقال أنكسيمانس، معللاً جوهر الأشياء هو الهواء، إنه إله فسيح، لامتناه دائم الحركة^(١).

وتابعهم إمبادوقليس: «إن وجود الأشياء، وفناءها، ليس إلا مجرد ظواهر، وما يظهر لنا على أنه وجود ليس إلا اجتماعاً للعناصر الأربعة، وما يظهر لنا فناء، ليس إلا انفصال للعناصر الأولى للأشياء. وإن علة الحركة في المادة هي المحبة والكرهية».

كان فلاسفة المدرسة الأيونية مجمعين، على أن المادة قديمة أزلية لافناء لها. ولكن فيثاغورس الساموسي، عارضهم بقوله: «إن العالم خلقه الإله طبقاً للعدد، وإن العدد هو جوهر الأشياء، وإن هذا العالم قديم، وإن الله قد سبقه في المرتبة والوجود.

الباب الثاني

ثم جاء بارمنيدس، وأنكر الصيرورة والكثرة في الوجود، لأن الوجود ثابت لاختلاء فيه وهو هو دائماً، وليست المادة والفكر مختلفين، وهما يلتقيان في التصور العام للوجود^(٣).

هذه الآراء، التي نعرضها بهدوء وروية، كانت تعرض في المدارس والمعابد، والساحات اليونانية، بصخب وأحياناً بقتال. إلى أن جاء الفيلسوف العظيم أنكساجوراس، الذي قال عنه أرسطو: «إنه أول رجل استخدم عقله، وسط أناس كانوا يقولون مايقولونه اتفاقاً».

- فما الذي قاله أنكساجوراس؟. قال: من الضروري الإلتجاء إلى علة محركة قائمة بذاتها هي العقل. وإن كون الأشياء وفسادها، عائد إلى الإتحاد والانفصال، وإن عدد الجواهر الأولى «البذور» غير متناهية وهي مختلفة في الكيف، ولكنها محدودة العدد^(٣).

كان الفلاسفة كلهم، قد عالجوا المبادئ الأولى للوجود، من وجهة نظر مثالية، إلى أن جاء ديمقريطس وقال: إن الذرة هي مبدأ الوجود، وهي الجزء الذي لا يتجزأ، وهي غير محدودة من ناحية الكيف، لامتناهية العدد. يفصل بينها العدم والخلاء، ويجب أن لا يبحث عن الحركة والتغير خارج الذرات، لأن كل حركة هي علة للحركة التي تليها إلى ما لا نهاية. وهكذا عزاء ديمقريطس الحقيقة كلها إلى المادة. ولكن أفلاطون نفاه، عندما قال عنها: «هي شيء غير معين، كالعجين قابلة لكل شيء وباتحادها بالصورة يتكون العالم»^(٤).

ولكن أرسطو قد خطى خطوة إلى الأمام، أفضل مما كان عند معلمه أفلاطون، عندما اعتبر أن المادة هي القوة اللامتعينة، وهي موضوع كل تغير، وشرط كل استحالة، وهي سرمدية، لم تخلق ولن تفنى، ولا يمكن فصل الصورة عن المادة، إلا عن طريق التجريد العقلي، والهوى الأخرى، التي هي في حالة تهيؤ لقبول، أية صورة كالرخام أو النحاس أو الخشب بالنسبة لتمثال فينوس.

والمادة هي كمال ممكن لن يتحقق إلا عن طريق الحركة، وقد أثنى فريدريك انجلز على فكرة أرسطو بقوله: «لن توجد مادة، دون حركة، بل ولا يمكن أن توجد»^(٥).

هل كانت فلسفة أرسطو خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراء بالنسبة إلى فلسفة ديمقريطس؟ يعلق لانج في كتابه تاريخ المادية: «هذه الفلسفة، التي أبعدت الله عن نظام العالم، ولم يعترف إلا بالتحتمية وبالضرورة، في تفسير علل الأشياء الجزئية، دون أن

تلجأ إلى لعل الغائية، هذه الفلسفة (أي فلسفة ديمقريطس) أكثر صلاحية من فلسفتي أفلاطون وأرسطو لأنها نفذت إلى أسرار الطبيعة أكثر منهما^(٦).

ظهرت الفلسفة الخرائية في مجتمع إسلامي صاعد، محتاج إلى كثير من المعارف العلمية مما دفع ثابت بن قرة إلى إخراج علوم الخرائية، مغلفة بالمعرفة العرفانية، (الغنوسية) السرية، مبتعداً عن الجانب المادي قدر الإمكان.

نقل أحمد بن الطيب السرخسي عن الكندي قوله: «إن الخرائية يقولون في الهيولي والصورة، والعدم والزمان والمكان والحركة، كما قال أرسطو في سمع الكيان»^(٧). والمعروف أن ثابتاً هو الذي شرح سمع الكيان. وترجم شروح يحيى النحوي وتعليقاته عليه مبيناً مبادئ الموجودات الطبيعية. وكان الكندي يستخدم رسائل ثابت وكتبه المترجمة في رسائله ومقالاته، وقد اقتدى به ابن سينا في المدخل من شفاؤه قال: «ولا يوجد في كتب القدماء شيء يعتد به إلا وقد ضمنه هذا الكتاب»^(٨).

وقد علق الدكتور محمد عاطف العراقي على قول ابن سينا: «لا نجد ذكراً دقيقاً للمصادر التي استند إليها ابن سينا، ومختلف الآراء التي أدلى بها غيره، من الفلاسفة والعلماء كما يتطلب ذلك الأسلوب العلمي في البحث والدراسة، وعلى سبيل المثال أهم مصادره أرسطو، وثابت بن قرة، ويحيى النحوي، وأفلوطين، والكندي والفارابي»^(٩).

أما كتبه رسائل إخوان الصفا، الذين أغاروا على كتب ورسائل ثابت بن قرة الخرائي، وضمنوها رسائلهم، فلهم العذر لإعتقادهم، أن ثابتاً هو أحد الحكماء الإلهيين والعلماء الأجلاء، وكقدماء فلاسفة الخرائية، الذين يتكتمون عن ذكر أسمائهم حين يستشهدون بكتاباتهم. وسأضرب مثلاً على ذلك:

ذكر أبو الريحان البيروني، في كتابه عن الجبال المصدر الذي استقى منه. قال: لم صارت مياه العيون في الشتاء أغزر؟ فلأن الغرض من إحداث الجبال. ما ذكره ثابت بن قرة في كتابه «السبب الذي له خلقت الجبال». وهذا السبب هو الذي يتمم الغرض في تصيير مياه البحور مالحة... ومن البين أن وقوع الأنداء، في الشتاء أكثر منه في الصيف، وفي الجبال أكثر منه في السهل، فإذا أوقعت فيها وسال ماسال بالسيول، غاص الباقي في المجاري، التي هي تجايف الجبال، وخزن هناك ثم يأخذ في الخروج عن المنافذ التي تسمى العيون، ولذلك صارت في الشتاء أغزر لأن مادتها أكثر، فإن كانت تلك التجايف نقية طيبة خرجت المياه كما هي عذبة^(١٠).

أما إخوان الصفا، فإنهم نقلوا كامل كتاب ثابت، وقد حافظوا على أسلوبه البليغ، والفصيح، دون أن يثيروا إليه من قريب أو بعيد. لأنهم كانوا يتقصدون ذلك.

قالوا: واعلم يا أخي أن الأودية والأنهار كلها تبتدىء من الجبال والتلال في مسيلها وجريانها، نحو البحور والآجام والغدران^(١١). وأما الأمطار التي تكون على رؤوس الجبال فإنها تفيض في شقوق تلك الجبال، وتنصب إلى مغارات وكهوف وأودية هناك، وتمتلئ، وتكون كالحزون، ويكون في أسفل تلك الجبال منافذ طبيعية، وتمر في جريانها راجعة نحو البحار ثم تكون منها، البخارات والرياح والغيوم والأمطار، كما هي في العام الأول^(١٢).

العلل الأولى للكون:

العلل الأولى هي المبادئ الخمسة، التي قال عنها نصير الدين الطوسي: «وقد نسب إليهم بعض السلف، القول في قدم الباري، والهيولى، والمكان، والزمان. إلى الصابئة الحرائين، وظنوا أن محمد بن زكريا الرازي، قد اقتبس مذهبهم منهم، وعمل فيه كتاباً موسوماً، بالقول بالقدماء الخمسة.

سأعرض لهذه المبادئ في دراستي للفلسفة الطبيعية عند الحرائية، مفترضاً من جانبي، أن صابئة حران هم إخوان الصفا.

الهيولى والصورة:

قال ثابت أو الحرائية: الجسم القابل للصورة نسميه «هيولى». وهي جوهر بسيط لا يتم وجوده بالفعل دون وجود ماحل فيه (الصورة) وقد شبه الأوائل طينة العالم به. شرح هذا القول نجم الدين الكاشي في شرحه للمحصل. «وأما الهيولى، وهي منفصلة لأنها تقبل الصور من واهب الصور، ولا معنى لانفعالها سوى ذلك. وقد أثبتتها أفلاطون خالية عن الصور منذ الأزل. بينما قال أرسطو: إنها لا تخلو عن الصورة. وكان الحرائية يرون أن الهيولى أزلية قدم الباري، ولو كانت الهيولى حادثة للزم التسلسل وإن كانت قديمة فهو المطلوب»^(١٣).

وقد عرفها ثابت بن قرة الحرائي في شرحه لسمع الكيان: «الهيولى كل جوهر قابل للصورة، والصورة كل شكل أو نفس، واختلاف الموجودات بالصور لا بالهيولى، وذلك أننا نجد أشياء كثيرة، جوهرها واحد وصورها مختلفة، كالتمثال الذي يصنع من الحديد أو الخشب أو الحجر. والأجسام كلها جنس واحد، من جوهر واحد، وهيولى

واحدة، وإنما اختلافها بحسب اختلاف صورها. وبعض أشرف من بعض، كالأفلاك
أشرف من عالم الأركان، هذا قول ثابت في كتاب السماء وهو قول الحرائية^(١٤).
إذن الصورة النوعية واحدة والصورة الجسمية هي علة الكثرة في الموجودات.
هل يمكن تجريد الصورة عن الهيولى عند الحرائية؟ نعم. فالباري سبحانه دائم
الوجود، الكامل الصورة دون هيولى. بينما لا يمكن للهيولى أن تتجرد عن الصورة بأي
حال من الأحوال.

المكان والخلاء:

المكان لغة الحاوي للشيء المستقر، كمقعد الإنسان من الأرض. وهو أزلي قديم
لامتناهي، ولا يصح عليه الفناء، كما قالت الحرائية:
والخلاء مكان لاجسم فيه.

والخلاف بين الهيولى والمكان، هو أن المكان تكون فيه الحركة، أما الهيولى فلا
تكون فيها حركة، ولو كان المكان صورة، لفسد بانتقال الماء إلى بخاره، واستحالته (أي
تحوله) يوجب فساد صورة الماء. ولكن المكان ليس له كون، وبذلك لا يكون له فساد.
والإتفاق بين الهيولى والمكان إنهما يقبلان تعاقب الصور والأجسام.

كان ديمقريطس وأبيقور يقران وجود الخلاء، إذ لا بد من وجود فراغ بين الذرات
حتى تتمكن من الحركة فيه، بينما ينفي بارمنيديس وجود الخلاء يلاً جميع المكان.
أما الفراغ فهو عدم يستحيل أن يوجد.

أيد أرسطو قول بارمنيديس، وأنه لا يوجد مكان خال عن كائن يشغله، لا خارج
الكون ولا داخله، بل هناك تحولات من مكان إلى آخر، دون أن يكون هناك مبرر
للتسليم بوجود الخلاء.

ولكن الحرائية قالوا: كيف توجد الحركة دون وجود شيء تتحرك فيه؟ وأكدوا
وجود الخلاء في الطبيعة. وأيدهم أبو البركات البغدادي بقوله: «إذا كان المفكرون
لوجود الخلاء، يقولون بتخلخل الهواء وتكاثفه، وإن الأشياء تتخلخل بالهواء، وضرب
مثلاً ملموساً: «إن القارورة التي تمص ثم تكب على الماء، فإن الهواء يدخلها ولو كانت
مملوءة لما وسعت شيئاً آخر يدخل فيها»^(١٥). فالخلاء كما أكدته ثابت بن قرة هو سبب
الحركة وليس الملاء كما قال أرسطو: «إن الطبيعة تفر من الخلاء».

دارت معركة في الأسكندرية في القرن السادس الميلادي بين يحيى النحوي

وسنبليقيوس حول الخلاء والملاء داخل العالم وخارجه نفى سنبليقيوس، وجود الخلاء بينما أكدّه يحيى النحوي، «فيلوبونوس». نقل ذلك الخبر ثابت بن قرة في شرحه على السماع الطبيعي لأرسطو. قال: ولو كانت الأجسام كلها صلبة متماسكة الأجزاء، كالحجر والحديد، لكان الملاء يمنع من النقلة والحركة، ولكن لما كان بعض الأجسام رخواً لطيفاً سيئاً كالماء والهواء لم يمتنع أن تتحرك بعض الأجسام بين أجزائه، كما يتحرك السمك في الماء، والطير في الهواء، وسائر الحيوانات على وجه الأرض.

أما بالنسبة للخلاء خارج العالم: قال يحيى النحوي والعبارة لثابت بن قرة «العلاء كلهم لم يتفقوا أن خارج العالم جسم آخر، لأن الحس لم يدركه، والعقل لم يقض به لأن الجسم ذو نهاية، وأنه ليس في الخلاء قوة جاذبة، ولا دافعة، لأنه خلاء محض ونفي صرف، يشبه الوهم ولا يتطابق مع الواقع، نقد أحمد بن الحسن المرزوقي أبا بكر الرازي ورماه بالزندقة لاتباعه الحرائية في معتقداتهم. قال: ومن زعم من الأولى أكثر من واحد محمد بن زكريا المتطبيب قال بالقدماء الخمسة (الباري والهيول والنفس والخلاء والمدة). إثنان حيان الباري والنفس وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى الذي منه كونت الأشياء الموجودة. وإثنان لآحيان ولا فاعلان وهما الخلاء والمدة (الزمان). وأما الباري تام الحكمة، لا يلحقه سهو ولا غفلة وتفيض منه الحياة كفيض النور عن قرص الشمس والعقل التام المحض^(١٦).

وذكر ذلك الإمام فخر الدين الرازي «قالت الحرائية في إثباتهم للقدماء الخمسة، إثنان حيان فاعلان وهما الباري والنفس، وواحد منفعل غير حي وهو الهيولى وإثنان لآحيان ولا فاعلان ولا منفعلان وهم الدهر والفضاء»^(١٧).

وحول ماهية المكان. هل هو جوهر أم عرض؟. قدّم ثابت بن قرة ثلاث تصورات للمكان:

- ١ - من قال إن المكان جوهر - وهو الفضاء الذي يكون فيه الجسم ذاهباً طولاً وعرضاً وعمقاً، حتى قيل إن المكان مكيال الجسم، والجوهر المحسوس له مكان.
- ٢ - ومن قال إن المكان عرض. أي إن المكان هو الفصل المشترك بين سطح الجسم المادي وسطح المحوي. قال أرسطو «إنه لافرق بين النقطة وموضع النقطة». وإن سطح الجرة، هو مكان الماء، وسطح الماء هو مكان الجرة. ثم ضرب ثابت مثلاً من الفلك الأعلى «إذا كان الفلك الأعلى متحركاً، وكل متحرك له مكان.

فللفلك الأعلى مكان. ولكن ليس له نهاية حاوية من محيط، وعلى ذلك فالمكان هو السطح الظاهر من الفلك الذي تحته.

٣ - ومن قال إن المكان هو الفضاء. إنما نظروا إلى صورة الجسم، ثم انتزعها من الهيولى بالقوة الفكرية وسماها الفضاء. ومن نظر إلى الهيولى سماها المكان فإن ذلك يعود إلى أخطاء النفس وتوهمها.

ثم توصل ثابت إلى النتيجة القائلة: «إن مكان كل متمكن، هو الجسم المحيط به، وهذا هو رأي أفلاطون الذي قال: «مكان كل شيء هو الوعاء الذي هو فيه». وقد أيدته ثابت.

الزمان والحركة:

عالج ثابت فكرة الزمان في عدة رسائل وكتب منها:

كتابه عن الزمان الذي أهدها لمحمد بن موسى بن شاكر، فترق فيه بين الزمان المؤلف من أنات صغيرة، غير قابلة للتجزئة. ولهذه الأنات عوارض كثيرة، ولكن لاعارض منها يدوم أكثر من (آن) واحد يخلقه الباري باستمرار، وإذا توقف خلق الزمن لإنحل العالم ومات^(١٨). وهذا هو رأي أفلوطين في الزمان الذي ربط فيه بين الزمان والإله الموجود منذ الأزل وإلى الأبد، فالزمان أزلي ولكنه بدرجة أقل، من أزلية الباري^(١٩). وقد استعارها أفلوطين من ارختياس الفيثاغوري الذي جعل الزمان، قوة فاعلة مرتبطة، بالنفس الكلية للكون وقد فصلها فرفوربوس الصوري بقوله إن الزمان لاينفصل عن النفس الكلية، لأن السرمدية لا تنفصل عن العقل، وهذا الزمان يمكن أن ينظر إليه على أنه ذو دورات كدورات الفلك، والكواكب المختلفة وكل دورة من دورات النفس الكلية التي تكون السنة الكبرى^(٢٠) التي قدرها ثابت بـ ٣٦٤٢٥ سنة شمسية.

قال فخر الدين الرازي: قالت الحرائية، وأما الدهر فهو الزمان، وهو غير قابل للعدم، لأن كل قابل للعدم كان عدمه بعد وجوده، فيكون الزمان موجوداً حال ما فرض معدوماً، وهذا خلف فإذا مالزم فرض عدم الزمان محال لذاته. وأما الفضاء فهو أيضاً، واجب لذاته، لأن الواجب لذاته يشهد له صريح الفطرة بامتناع ارتفاعه^(٢١).

وكان برقلس يذهب إلى القول: بأن الزمان هو بقاء العالم المتغير، والدهر هو مدة بقاء العالم الفعلي والأبدي الذي لا يوجد له تغير، متمثلاً قول أفلوطين «إن الله فوق الأزمنة، لأنه دائم الوجود، فهو فوق الدهر والعقل مع الدهر، والنفس الكلية تحت

الدهر، وقد فسر دي بور قوله: إن ماقصده بالزمان العلوي، هو الوقت الذي ظهر فيه العقل والزمان السفلي الذي، هو حركات الفلك^(٢٢).

أما تفسير ثابت بن قرة لقول برقلس: «إن العالم لم يخلق في زمان ولا في مكان». لأن العالم قديم كان مع الباري سبحانه، وأنه لازمان ولامكان، قلما أبدع الباري الفلك وأداره، وأوجد الزمان والمكان معاً، جعل الزمان جملة السنين والشهور والأيام والساعات والدقائق والثواني، التي تحصل صورها في النفس من جملة الأشياء الخمسة المحتوية على كل جسم.

ما علاقة الزمان بالنفس؟

جعل ثابت مقولتي الزمان والمكان فطريتين في العقل. قال أحمد بن الحسن المرزوقي: إن أبا بكر الرازي، كان يقول كالخرانية إن الدهر والخلاء قائمان في فطر العقول، بلا استدلال وذلك أنه ليس من عاقل إلا وهو يتصور في عقله، وجود شيء للأجسام، بمنزلة الوعاء والقراب، ووجود شيء يعلم التقدم والتأخر، وإن وقتنا ليس هو وقتنا الذي مضى والذي يكون من بعد بل هو شيء بينهما، وإن هذا الشيء ذو بعد وامتداد دائم الجريان لآقرار له^(٢٣). وعنه أخذ أبو العباس الإيرانشهرى قوله المحير «إن الزمان دليل علم الله، وإن المكان دليل قدرته، والحركة دليل فعله، والجسم دليل قوته، وكل هذه الأشياء جواهر قديمة لانهاية لها^(٢٤).

وعن الخرائية أخذ الفيلسوف ناصر خسرو رأيه الغريب عن التراث الإسلامي، وهو أن المكان مظهر قدرة الله. قال: بما أن قدرة الله، تشمل مقدراته، وإن هذه المقدرات أجسام مصورة لايمكن أن توجد إلا في مكان، فالمكان مظهر قدرة الله.

لقد أكد أرسطو وجود العلاقة بين النفس والزمان «لأن بداية النفس هي بداية الزمان، والعالم قديم ليس من جهة الزمان بل من جهة النفس. ثم تلاه أفلوطين الذي اعتبر الزمان مدة حياة النفس، وأنه لايقع تحت العدد كما يضاف إلى الزمان، بتوسط حركة الأفلاك التي لا توجد الزمان وإنما تظهره، لأن الزمان دائم الوجود على سبيل الانقضاء والتجدد، وهو بحاجة إلى حافظة فلكية بها تقدر الحركات. فالزمان موجود خارج النفس كما أنه من جهة أخرى فعل النفس. «إن النفس الكونية التي تولد الزمان، ليست هي ذاتها في الزمان؟ وكل النفوس أزلية، وهي سابقة على الزمان. ففي الفعل الأزل وفي النفس الزمان، إذ ليس للزمان وجود إلا في فاعلية النفس، وهو ناتج عن هذه الفاعلية^(٢٥). وهكذا يربط ثابت الزمان بالعنصر الذاتي

صابقة حراف هم اخواف الصفا

ففي النفس، مخالفأ بذلك تعريف أرسطو: «إنه مقدار الحركة بحسبان المتقدم والمتأخر».

ويبدو أن القديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) أخذ بفكرة أفلوطين عندما ربط الزمان بالعقل الإنساني قال: «الأزمنة الثلاثة موجودة في عقلنا، ولا أرى لها وجوداً إلا فيه فالماضي هو تذكر، والحاضر هو رؤية مباشرة، والمستقبل هو الترقب والانتظار»^(٢٦).

اعتبر ثابت وإخوان الصفا أن من شرف جوهر النفس، ومن شدة قوتها الوهمية أنها تنظر إلى العالم، وكأنها خارجة منه، وتنظر إليه، وكأنها داخله فيه، وربما ترفع العالم من الوجود أصلاً وربما تقدمت الزمان الماضي، ونظرت إلى بدء الكون والعالم، وربما سبقت زمان المستقبل، ونظرت إلى فناء العالم قبل حينه، وتصورت كيف يكون ذلك اليوم (يوم القيامة)^(٢٧).

ذكر البيروني تعريفاً للزمان يقرب من تعريف الحرائية، وهو قولهم «إن الزمان مدة لما له أول وآخر، والدهر مدة مالا أول له وآخر»^(٢٨).

الحركة والسكون:

لاشعور بالزمان، إلا بشعورنا بالحركة والتغير. فالزمان هو مقياس الحركة، والسكون هو عدم الحركة، ولكل نوع من أنواع الحركة سكون يقابله، والحركة والسكون بمعنى التغير وعدم التغير. ففي الحيوان والنبات جميع ضروب التغير (كالنقلة والنمو والإستحالة والكون والفساد). فالحركة إذن هي أسلوب لوجودها. لأن الحركة هي خروج الشيء عن القوة إلى العقل في الزمان. فالحركة إذن كمال فعل الشيء.

- ما الصلة بين الحركة والتحريك؟. يئن (ثابت): أن الحركة إما أن تكون للمتحرك عن ذاته، من حيث أنه جسم طبيعي (حيوان). أو أن تكون صادرة عن سبب ما. ولو كانت ذات المتحرك سبباً للحركة، بحيث يكون محركاً ومتحركاً، لأدى هذا بالضرورة إلى القول. بأن الحركة تصدر عن ذاته وهذا محال.

قد تكون الحركة بالعرض، كحركة الساكن في المركب بحركة المركب، وللحركة ستة أشكال:

- ١ - الكون - هو خروج الشيء من العدم إلى الوجود أو من القوة إلى الفعل.
- ٢ - الفساد - هو عكس الكون أي خروج الشيء من الفعل إلى القوة أو العدم.

الباب الثاني

٣ - الزيادة والنقصان - والزيادة تعني تباعد نهايات الجسم عن مركزه. والنقصان على عكسه. إنكماش نهايات الجسم.

٤ - التغير - هو تبدل الصفات على الموصوف من الألوان والطعوم والروائح وغيرها من الصفات.

٥ - النقلة - هذه الحركة هي الخروج من مكان إلى مكان. وقد يقال عنها هي الكون في محاذاة ناحية أخرى في زمان ثانٍ. وكلا القولين يصح على الحركة، التي هي على سبيل الإستقامة.

٦ - الحركة على الاستدارة - لا يصح فيها أن المتحرك ينتقل من مكان إلى مكان، ولا يصير في محاذاة أخرى في زمان ثانٍ. فإن قيل إن المتحرك على الاستدارة أجزاؤه كلها تتحرك في أماكنها، وتصير هو ساكن في المركز، فإنه ساكن فيه لا يتحرك. مثال ذلك حركة لعبة الأطفال المسماة البلبل تدور في مكانها.

حاول ثابت تفسير الحركة على الاستدارة تفسيراً رياضياً. قال: إن المركز هو نقطة متوهمة وهو رأس الخط. ورأس الخط لا يكون مكان الجزء من الجسم المتحرك، وهو لا ينتقل من مكان إلى مكان.

وقال أيضاً: «ظن بعض أهل العلم أن المتحرك على الإستقامة يتحرك حركات كثيرة، لأنه في حال حركته، يحاذي أماكن عديدة، ولا ينبغي أن نعتبر كثرة الحركات لكثرة المحاذيات. كالسهم الذي لا تكون له إلا حركة واحدة، وإن مرّ بمحاذاة كثيرة، ولا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما، وهذا يعرفه أهل صناعة الموسيقى، لأن الأصوات لا تحدث إلا بالحركات التي لا ينفصل بعضها عن بعض، إلا بسكونات تكون بينها. وإن الحركة حكمها كحكم الضوء، وذلك لو أن خشبة طولها من المشرق إلى المغرب، ثم جذبت إلى المشرق والمغرب عقداً واحداً لتحركت جميع أجزائها دفعة واحدة لأن (الآن السيل) أمر بسيط لا تركيب فيه.

الحركة والخلاء:

نفى بارمنيديس فكرة الخلاء، لأن الوجود يملأ جميع المكان، أما الفراغ فهو عدم يستحيل وجوده. ثم تلاه أرسطو مؤيداً رأيه قائلاً: «لا يمكن أن توجد الحركة إلا إذا كان العالم ملاء».

أيد ابن سينا والمشائون العرب رأي أرسطو قائلين: «لو رمينا حجراً إلى أعلى فإنه لولا مقاومة الملاء لذلك الحجر عن الحركة لوصل الحجر إلى السماء».

ولكن ثابت بن قرة خالفهم في ذلك. قال فخر الدين الرازي في كتابه المباحث الشرقية: «إن ثابت خالف رأي المشائين بوجه عام، وهو إنكاره أن يكون للعناصر مكان طبيعي. وأنه ليس لشيء من الأماكن حال يختص بها دون غيره، حتى يتصور أن جسماً معيناً يطله بطبعه دون ماعداه. مثال ذلك أننا لو رمينا مدرة (أي حجرة) إلى فوق فإنها تعود إلى الأرض، ولا يرجع ذلك إلى أن الطبيعة الأرضية تطلبها، أو أن الملاء يقاومها، بل لأن الجزء يميل إلى الكل»^(٢٩).

هذه الفكرة التي تكاد تكون إرهاباً لاكتشاف الجاذبية الأرضية، أخذها ثابت عن يحيى النحوي الذي قال أيضاً: «إن كل جسم معزول عن المؤثرات الخارجية يظل ساكناً. كما يتضمن التأكيد على عامل المقاومة، باعتباره العامل العكسي الذي يعارض حركة الأجسام، ضد العامل الطردى، الذي تمثله القوة الدافعة، أي سرعة الأجسام تتناسب مع القوة المؤثرة في حركتها سواء كانت دافعة أو ساحبة. تتناسب عكساً مع مقاومة المادة التي تتحرك فيها. إذ الواقع يشهد أن مقاومة الهواء تؤدي إلى نقص سرعة الجسم المقذوف لا إلى زيادة حركته. كما لاحظ ذلك أرسطو فقال: «إن المتحرك يستفيد ميلاً من المحرك أي أن الجسم في حالة إنطلاقة من القاذف يظل متحركاً بفعل الهواء المحيط به. ولكن يحيى النحوي ذهب إلى أن القوة المسيّرة للجسم بفعل عملية القذف ذاتها، لأن القدرة المحركة الداخلية، تضغط في الجسم في أثناء الإنطلاق. ثم تعمل بعد ذلك دافعة له. وقد مثل ذلك ثابت بن قرة بالسهم الذي ينطلق في الهواء. فإن القوس يعطيه قوة دافعة، بمقتضاها يستمر السهم في حركته بعد ترك القوس القاذف له»^(٣٠).

الكون والفساد:

قسم فلاسفة اليونان الكون إلى عالمين، عالم مافوق فلك القمر، وعالم ماتحت فلك القمر. وقد تابعهم فلاسفة العرب.

عالم الأفلاك (مافوق فلك القمر):

تصوروا عالم الأفلاك كروي الشكل، لأن الكرة هي الشكل الكامل، وهي تدور في دائرة لأن الحركة الدائرية، هي فقط التي لا بداية لها ولا نهاية. هذا العالم كائن حي واحد، وهو يحاكي النموذج الواحد الأبدي (الباري سبحانه).

الباب الثاني

ومادة هذا العالم من طبيعة خاصة (الأثير) لا يعترىها الكون والفساد، وهو صادر عن النفس الكلية التي تصدر أفعالها بالإرادة.

قال أفلوطين «إن الكائن الحي الواحد، ليست له سوى إرادة واحدة، بينما له قوى كثيرة لكل منها موضوع مختلف، وإن حوادث العالم الأرضي، تتم متعاطفة مع الأشياء السماوية، فالنجوم ذاتها، عندما تغير مواقعها، تختلف الآثار الناتجة عنها، وكذلك الحال في النجم الواحد إذا تغير موضعه»^(٣١).

عالم ماتحت فلك القمر (عالمنا الأرضي):

الأرض ساكنة في مركز العالم، وهي المكان الطبيعي له. وهي مكونة من التراب أثقل العناصر. وهي غير متحركة، رغم أنها كروية الشكل.

لقد استدل يحيى النحوي على الصلة بين كتابي أرسطو كتاب السماء، وكتاب الكون والفساد من خلال عبارة أرسطو في آخر كتاب السماء «والآن انتهينا من بحثنا في الثقيل والخفيف والظواهر التي ترتبط بهما». وقوله في أول الكون والفساد «إن بحثنا التالي دراسة الأشياء التي تكون وتفسد. ولذلك يلزمنا التمييز بين عللها والنسب التي توجد عليها»^(٣٢)، هذه هي ملاحظة ثابت بن قرة أثناء شرحه لكتابي أرسطو المذكورين.

المذاهب الفلسفية التي فسرت الكون والفساد:

انقسم الفلاسفة والشرح إلى خمسة مذاهب:

١ - الذين أنكروا الكون والفساد:

وحجتهم أن العناصر الأربعة، لا تفسد جواهرها. ولا يوجد شيء منها، من حيث طبيعته بل إنه مركب من الطبيعة التي تنتسب إليها، ومن طبائع أخرى، وغلبة بعض العناصر وسيادته، يفسره الحس بأنه قد استحال. ومثالهم على ذلك:

النار لا تكون من شيء، إذ أن الكامن منها يبرز، ويدو للحس أنه ظهور لاحدوث. وقد فصل ذلك ثابت في رسالته في تولد النار بين حجرين. قال:

إن النار ذات طرفين، طرف منها متصل بالهواء، وطرف منها متصل بالنور والضياء، وذلك أن النار إذا قدحت، خرجت من احتكاك الأجسام، بحدوث ذلك القرع في الهواء. واتصلت بالأجسام، وأكلتها وأحرقتها وزالت بزوالها. والأجسام

كلها نيران بالقوة جامدة، فإذا أصابتها نار بالفعل، صارت نيراناً بالفعل، والدليل على ذلك أنها كلها يمكن أن تحرق بالنار. هكذا حكم كل المأكولات والملبوسات نيران جامدة، كونت من العناصر الأربعة، وإليها تستحيل، بعد مفارقة النفوس لنا» (٣٣).

ومن العناصر المتممة للنار اللطافة التي تولدها الحرارة ثم تتلوها سرعة النفوذ في الأجسام الشفافة ثم البيوسة. وهكذا اجتمعت في جرم النار عدة صور متممة (الحركة والحرارة والبيوسة واللطافة والنور). والحركة جوهرية في النار، فإن سكنت حركتها طفت وبطل وجودها» (٣٤).

٢ - الذين أقروا وجود الإستحالة ونفوا كون الأشياء:

هؤلاء قالوا: بعنصر واحد، إما نار وإما هواء وإما ماء وإما تراب.

فإذا كان العنصر ناراً، فإنه يمكن تكوين الأشياء عنه بما يسمونه التخلخل والتكاثف. بمعنى أن المادة الواحدة، تغير كيفي بهذه المادة، وإذا قيل: ما العلة في أن الياقوت لا يذوب ولا يحترق في النار؟ يجب ثابت: فلأن أجزاء الياقوت، مائية غلظت وصفت بطول الوقت بين الصخور، وأنضجت واتحدت أجزاءها ويست فصارت لا تذوب في النار، لأنه ليس فيها رطوبة دهنية. وأما علة صفاء الياقوت فمن أجل أنه ليس فيه أجزاء ترابية مظلمة، بل كلها أجزاء مائية، قد غلظت وصفت ونضجت وجمدت ويست، فلا تقدر النار على تفريق أجزائها لشدة اتحادها ويسها.

٣ - الذين أنكروا وجود الكون وأثبتوا الإستحالة:

وهؤلاء افترضوا أكثر من عنصر واحد في الكون. وأكثر من عنصر واحد عملت في الإستحالة، ومن ذلك فعل الأجرام العلوية، في المركبات الموجودة، في عالم الكون والفساد.

قالت الحرانية: إن للأجرام السماوية، دوراً كبيراً، إذا كانت أموراً متبدلة لزمتهما الحركة المكانية. فالشمس، تميل بحركتها إلى الشمال، فتبقى مدة على تلك الجهة، لادائمة على سمت واحد بل متكررة إتباعاً للحركة. ولو أنها بقيت دائمة، كما لو دام هجيرها وتأثيرها على جميع الأقاليم الأخرى. فلما كان للشمس ذلك النظام حركت العناصر إلى غذاء للنبات والحيوان. لانبعاث الحرارة والبرودة في الأجسام السفلية بقوى فاضت عن الأجسام العلوية.

٤ - مذهب الجواهر الفرد:

هؤلاء يضعون مبادئ الأجسام كلها أجراماً غير متجزئة، سواء من قال عنهم: بأن أشكالها متناهية، أو من قال منهم: بأن أشكالها غير متناهية، فأيقور يقول بعدم تناهي الذرات في العدد، وهي متناهية في الأشكال.

ويعتقد الحرائية: أن الذرات ليس كون وفساد في طبيعتها، ولكن للمركبات منها كون وفساد بل يكون الكون في اجتماعها، والفساد باقترافها واستحالتها بافتراق الوضع و الترتيب لتلك الأجزاء في المجتمع فيها. وهكذا نراهم أقرب إلى التفسير المادي للطبيعة. وإلى الأخذ بفلسفة أيقور.

٥ - مذهب الكمون:

المبدع الأول لهذا المذهب هو (أنكساغوراس) القائل: «بأنه لا يمكن إرجاع الأشياء المركبة إلى عناصر بسيطة، إذ مهما بالغ المرء في تقسيم الأجسام. فإن التقسيم ينتهي دائماً إلى أجسام متجانسة، في الكل فالعظم في العظم واللحم في اللحم. ولكن أفلوطين نفى أن تكون حوادث الكون تعتمد على مبادئ بذرية، بل على مبادئ أشمل تنتمي إلى موجودات سابقة على المبادئ البذرية، وإن الاستحالة حين تكون علة للفساد، تقضي على الصورة، ولكن ترك المادة، وهذا لا يحدث إلا لموجود مركب»^(٣٥) وفي هذا الرأي تابعه ثابت بن قرة الحرائي.

وفي الإسلام نسب مذهب الكمون إلى الفيلسوف المعتزلي إبراهيم بن نظام السيار (المتوفي سنة ٢٣١ هـ). الذي جعل مذهب الكمون حجر الزاوية في مباحثه الطبيعية. قال: «بكمون بعض الأشياء في بعض، وأن العالم يتألف من أشياء متضادة، وأن أجزاء العالم تتألف من أركان مختلفة بطبيعتها، وبعضها كامن في بعض، وعلى ذلك يكون الجواهر مؤتلفاً من أعراض اجتمعت.

أما العالم فقد خلق دفعة واحدة، على ماهو عليه من معادن ونبات وحيوان، وكل ماهتالك هو أن المتأخر منه في الزمان كامن في المتقدم، فالتقدم والتأخر يقعان في ظهورها من كمون دون خلقها واختراعها، وعلى ذلك يكون كل شيء في كل شيء، دون الحاجة إلى فاعل الكون لإخراج بعضها من بعض، وتتميز بعضها من بعض»^(٣٦). ومثاله على ذلك خروج أسنان الوليد بعد سنتين، وظهور علامات الرجولة في المراهقة.

ولكن ابن سينا عارض مذهب الكمون. وقد فسر الكون والفساد على أساس فكرة التداخل بدلاً من التمسك بالقول بأنه بروز عن الكمون. قال ابن سينا: «إنهم يقولون لاستحالة في الكيف وفي الصورة أيضاً، وأن الماء لا يسخن في جوهره، بل فشفت فيه أجزاء نارية، داخلية، وما يظن أنه برد فشفت فيه أجزاء جمدية. ومن المستحيل أن يتكون الشيء عن اللاشيء، لأن الشيء كان موجوداً قبل تكونه والمتكون إنما هو البروز عن الكمون^(٣٧). وكان ثابت يميل إلى مذهب الكمون.

علم حوادث الجو:

يبحث هذا العلم في معرفة كيفية، تغيرات الهواء، بتأثير الكواكب، وبحركاتها ومطارج شعاعاتها على الأركان، وانفعالاتها، وخاصة الهواء، فإنه كثير التلون، والتغير من النور والظلمة، والحر والبرد، وتصاريق الرياح، والضباب والغيوم والأمطار والثلوج، والبروق والرعود، والشهب والصواعق، والمذنبات، وقوس قزح والهالات، وما شاكلها، مما يحدث فوق رؤوسنا من التغيرات والحوادث.

ذكر ابن النديم في الفهرست أثناء ترجمته (ابافروطيوس) أن له من الكتب، كتاباً قرأه بخط يحيى بن عدي، كتاب تفسير كلام أرسطوطاليس في الهالة، وقوس قزح نقله ثابت بن قرة الحراني^(٣٨).

كما ذكر ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء، كتاباً تعليمياً آخر لثابت بن قرة الحراني، وضح فيه كيفية نبغي أن يسلك إلى نيل المطلوب من المعاني الهندسية. ذكر فيه الآثار التي تظهر في الجو، وأحوال أخرى كانت تظهر في الهواء، مما رصده ثابت لبني موسى بن شاكر^(٣٩). درس في ذلك الكتاب عدة ظواهر منها الهالة، وكرة النسيم، وقوس قزح، والشهب والمذنبات، وكيفية حدوث الرؤية البصرية. وسأعرض لها مفصلاً عند ذكرها.

الهالة HALO:

الهالة حلقة خافتة من الضوء، تُشاهد حول الشمس، أو القمر وتشبه قوس قزح. وهي ظاهرة ضوئية، تنسب عن الإنعكاس والانكسار في بلورات الثلج الدقيقة السابحة في الطبقات العليا. وهذه البلورات سداسية الشكل وتعمل بمثابة موشورات تكسر الضوء الأبيض، وتفرقه إلى طيف^(٤٠). جاء هذا الوصف في موسوعة علمية حديثة.

بينما قال ثابت: الهالة دائرة تحدث فوق سطح الغيم، من إنعكاس شعاع الشمس

الباب الثاني

أو القمر والكواكب. وعندما تكون حول الشمس أو القمر، فإنها تدل على المطر ورطوبة الهواء، وذلك أنها تحدث في أعلى سطح كرة النسيم، وقت ما يرتفع البخار إلى هناك ويتألف منه الغيم.

وعلة الهالة أن النيرين إذا أشرقاً على ذلك السطح انعكس شعاعهما من هناك إلى فوق، وحدث من ذلك الإنعكاس، دائرة كما يحدث من إشراقهما على سطح الماء. ويشف رسم تلك الدائرة من تحت ذلك الغيم الرقيق، كما يشف من وراء البلور والزجاج، ويكون مركز تلك الدائرة مسامتاً للبقعة التي يمر به المسقط الخارج من مركز النيرين إلى مركز الأرض^(٤١).

كرة النسيم (الغلاف الجوي) Stratosphere:

تقع فوق منطقة الرياح. توجد طبقاتها السفلية على إرتفاع (١١) كم تقريباً. ومكوناتها الرئيسية هي الآزوت، والأكسجين، وثنائي أكسيد الفحم، وبخار الماء، وبعض الغازات النادرة، بنسب ضئيلة، وتتناقص كثافتها حتى تصل إلى الصفر عند محيط الغلاف الخارجي، كما تتناقص درجة حرارتها حتى إرتفاع (١١) كم وبعدها تظل درجة الحرارة ثابتة.

أما قول ثابت عن كرة النسيم «أما سطح كرة النسيم، مما يلي الأرض. فتبين أنه متداخل الأجزاء إلى عمق الأرض، بحسب تداخل الأجزاء الأرضية، إلى نهاية ما. ثم يقف ولا يدخل أكثر من ذلك، والدليل على ذلك ما يعرض لحافري المعادن إلى أسفل، حتى أنهم ربما يحتاجون لترويح النسيم هناك بالمنافع والأنايب من المعادن لتضيء سرجهم هناك. فمتى انقطع النسيم العارض، اختنق من كان في المعادن (المتاجم) فمات. ولا يمكن أن يكون في المواضع التي لا يخترقها النسيم حيوانات. وإن أكثر ما يكون سمك النسيم (١٦) ألف ذراع ارتفاعاً في الهواء، وأقله ما يطابق سطح الأرض. وإن أعلى جبل يوجد في الأرض لا يجاوز ارتفاعه في الهواء هذا المقدار. (من كتاب سبب خلق الجبال).

قوس قزح Rain Bow:

هو عبارة عن تأثير لوني، يشاهد عندما ينعكس ضوء الشمس، من قطرات المطر، فينعكس ضوء الشمس عند مروره خلال تلك القطرات، وتشتت ألوانه. قد يظهر قوس آخر معكوساً إلى جانبه. وقد يرى قوس قزح عند ظهور القمر بدرأ في السماء،

وسقوط الأمطار في جزء آخر، وعندها لا يرى من الألوان إلا الأحمر والأصفر. أما عند ثابت وفي رسائل إخوان الصفا: إن قوس القزح، هو نصف محيط دائرة، ترى في الجو المعتدل، مما يلي وجه الأرض، ولا يكون وضعه إلا منتصباً قائماً، وحده الأعلى مما يلي سطح الزمهرير وحدية السفليان، مما يلي وجه الأرض، ولا يكاد يحدث إلا في طرفي النهار في الجهة المقابلة لموضع الشمس، مشرقاً أو مغرباً. ولا يرى منها إلا أقل من نصف الدائرة، إلا أن تكون الشمس في الأفق سواء، فإنها عند ذلك ترى في نصف محيط الدائرة سواء لأن الخط الخارج، من مركز جرم الشمس يمر مماساً يلي وجه الأرض، ومركز هذه الدائرة، فيرى القوس قائماً منتصباً مستوياً. وإذا كانت الشمس مرتفعة فإنها ترى، أقل من نصف محيط الدائرة، وكلما كان الارتفاع أكثر، كان القوس أقل وأصغر، لأن القوس يكون مائلاً منحطاً إلى الجهة المقابلة لموضع الشمس، وإن بين وتر هذا القوس، وبين قطره دائرة الهالة نسبة متساوية.

ماعة حدوث هذا القوس؟. علته أنه عند إشراق الشمس على أجزاء ذلك البخار الرطب الواقف في الهواء، وإنعكاس شعاعها منه إلى ناحية الشمس.

وما علة أصباغ هذا القوس؟. الأصباغ التي ترى في القوس أربعة مطابقة لكيفيات الأركان الأربعة. وكلما كانت الألوان مشبعة دلت على ترطيب الهواء وكثرة العشب والكلاء. وظهورها منذرة بريف الزمان وخصبه. وأما ترتيب ألوانها، فإن الحمرة تكون فوق الصفرة، والصفرة دونها والزرقة دون الخضرة، فإن وجدت قوساً آخر دونها، فإن ترتيب الألوان فيه عكس ألوان القوس السابق. وأكثر ما يرى قوس القزح، في يوم الضباب وفي البلدان القريبة من سواحل البحار^(٤٢).

المذنبات Comets:

المذنب جرم سماوي خفيف، مكوّن من نواة كروية ثلجية عملاقة، مؤلفة من الجليد، ومواد صلبة، وجزئيات عضوية، ولها ذيل شفاف، يختلف طوله من ميل إلى ملايين الأميال.

كان أرسطو يعتقد أن المذنبات التي تراها، لا تتحرك ضمن جو الأرض، فهي أبعد من القمر ودون كوكب زحل. وقد وصفها بطليموس حسب أشكال ذيلها الشفاف فقال عنها: «إنها حزم أشعة، وأبواقاً، وجراً»^(٤٣) وكان البابليون يظنونها أن لها (لحى سماوية) وتصورها الإغريق شعراً جارياً، وهي تأتي مقرونة بالحروب والطقس الحار، والأحوال المضطربة^(٤٤).

الباب الثاني

لقد رصد مار يعقوب الرهاوي (المتوفي ٧٠٨) ظهور علامات مخيفة في الشرق، تحمل أشعة مضيئة، تبعث منها شبه جداول بيضاء كأضواء ساطعة، بعضها شكل المكاسح، وللبعض الآخر شبه الرماح، أو شبه ديدان طويلة، كما يوجد في مؤخرة البعض، ما يشبه الكواكب، ويظهر غيرها تحتها أو إلى جانبها، وكأن لها شعراً، لهذا دعاها اليونان «مذنبات». وهي تقف وترى وتحرك في جميع أجزاء الفلك خلال أيام معروفة معلومة^(٤٥) ثم قال: «قد يكون حدوثها من قبل الله لتخويف الناس أو علامة حدوث أمر ما في المستقبل، وقد كان رصده هذا المذنب عام (٦٨٤) وهذا يتطابق وموعد ظهور مذنب هالي.

اعتمد ثابت في وصفه للمذنبات على تفسير أرسطو لها. قال: الكواكب ذوات الأذنان التي تظهر في بعض الأحيان، قبل طلوع الشمس أو بعد غروبها، فإنها لا تحدث إلا في كرة الأثير قريباً من فلك القمر، والدليل على ذلك دورانها مع فلك القمر تارة، بالتقدم على التوالي في دائرة البروج. وأما مادتها التي تتكون منها، فهي دخان وبخار لطيفان يصعدان إلى هناك فينفدان بقوة زحل وعطارد. وتكون شفافة كشيء البخور، إذا أشرقت عليها الشمس شفت من الجانب الآخر، فلا تزال تدور مع الفلك وتطلع وتغيب حتى تضمحل وتلاشى. كل هذه الحوادث ترى في الهواء. وهي - إما بشارات من الله بالرخص والخصب والسلامة للناس والحيوان. - وإما إنذارات وتخويفات من الحدثن بالجدب والقحط. وذلك أن الله ليجعل العباد والمكلفين يعتبرونها ويرتدون عن معصية الله.

ذكر العالم الأمريكي كارل ساغان أن هذا الاعتقاد نجده عند إسحق نيوتن الذي قال عنها: «أظن أن الأرواح تأتي بصورة رئيسية من المذنبات، التي هي الجزء الأصغر والأكثر فائدة في الجو المحيط بنا، من أجل الحاجة الماسة أن تستمر حياة كل الأشياء لدينا»^(٤٦). هذا الاعتقاد هو نفس اعتقاد صابئة حوران.

الشهب والنيازك Shooting star:

الشهاب قطعة صغيرة من مادة صلبة، تدخل في الغلاف الجوي للأرض مندفعة مبدعة هالة، تجعلها تتوهج، نتيجة للإحتكاك الشديد، إذ تتراوح سرعتها ما بين (٨ - ٤٥) ميلاً في الثانية، ولا يرى الشهاب إلا للحظة.

قال تعالى: «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح، وجعلناها رجوماً للشياطين» (سورة الملك: ٥). ولا يرى الشهاب إلا للحظة في السماء، وقد يصطدم بالأرض كما حدث

في ٣٠ حزيران ١٩٠٨ في منطقة (تونغوسكا) في سيبيريا، عندما شوهدت كرة نارية كبيرة في السماء، أضاءت شوارع لندن، وأحدثت حريقاً هائلاً في الغابات قدرت مساحته بحوالي (٢٠٠٠) كم^٢، وهذه هي النيازك التي لم يعرفها القدماء.

كانت هذه الشهب تخيف الناس، وقال مار يعقوب الرهاوي: «وفي الليالي تظهر في الجو شهب نارية، مضيفة، تتطاير في مختلف الجهات، كسهام طائرة يحسبها كثير من السذج، كواكب سياره. وهي تكون عندما يريد الله المدبر، أن يجري تغييرات في سلطات الشعوب، وتكون بمثابة تأديب، وتخويف للكثير من الذين يخشون مثل هذه المناظر»^(٤٧).

وهي عند الحرائية: تحدث الشهب قرية من الأرض، بعيدة عن فلك القمر، وهذا سبب سرعة حركتها فإنها في لحظة تمر من المشرق إلى المغرب، أو من المغرب إلى المشرق، فلو كانت هذه قرية من فلك القمر، لما رأيت حركتها بهذه السرعة. وإذا حدث فمرت قرية مقبلة على الناظرين، وجازت على سمت رؤوسهم إلى الجانب الآخر ذاهبة إلى الأفق بسيرها على الرؤية، يخيل للناظرين أنها وقعت إلى الأرض، وليس الأمر كذلك لأنها مادة خفيفة تطلب العلو، ولايزدها إشعالها إلا خفة. فأما التي تقع منها إلى الأرض فهي التي تحدث في كرة النسيم، فيضغطها السحاب ويردها إلى أسفل كنار البرق التي يضغطها السحاب من فوق إلى أسفل»^(٤٨).

نلاحظ من النصوص السابقة التي أوردتها عن القدماء أنهم كانوا يجهلون المادة التي تتكون منها الشهب «فهي عندهم مادة خفيفة». أو هي «كنار البرق». غايتها إما أن تكون رجوماً للشاطين أو لتخويف الناس. ما عدا الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس الملطي (٥٠٠ - ٤٢٨ ق. م) فإنه لاحظ سقوط كتلة كبيرة من الشهب في نهر إيجوس مما دعاه إلى القول: إن النجوم تتكون من صخور ساخنة متوقدة، وإن كنا لانحس حرارتها، لبعدها عنا، ثم علل سبب هذه الحرارة سرعتها الكبيرة، فاعتبر رأيه هذا تجديفاً نحو الآلهة، لأن السماء والنجوم مكوّنة من مادة أثيرية لطيفة. وسجن لرأيه هذا في أثينا ثم هرب من السجن بمساعدة صديقه الحاكم بركليس.

كيفية حدوث الرؤية أو الإبصار:

عالجت الفلسفة اليونانية، هذا الموضوع، فمن أبحاث النفس، باعتبار البصر أحد الحواس الخمس. وخصه أفلوطين بالمقال الخامس من التساعية الرابعة. بعنوان «في الإشكالات المتعلقة بالنفس في الإبصار». واستمر هذا الإشكال دون حل في الشروح

الباب الثاني

الفلسفية في مدارس الاسكندرية والرها حتى القرن التاسع الميلادي على أيدي العلماء العرب.

قال أفلاطون: إن الإبصار، ككل حاسة، يتم بتوسط جسم، عندما تتحد النفس عن طريق تبادل التأثير الذي يقوم بينها وبين الأشياء الخارجية. وذكر ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول - لأفلاطون وأتباعه:

قالوا: قوام الإبصار، هو ضم الضوء المنبعث من العين، إلى الضوء الذي يقوم بينها وبين الشيء المحسوس، فلا بد من وسط هو الضوء.

وتساءلوا: ما علاقة الضوء الملامس للعين، بالضوء الذي فيها، والضوء الذي يمتد من العين إلى الشيء المحسوس؟ فتبين لهم: أن العين لا تحتاج إلى ضوء خارجي معترض لترى بوجه عام، بل لترى عن بعد، لأن الحياة تدب في ضوء العين إذا امتدت النفس إليه، مثلما تدب الحياة في النور الكائنة خارج العين، إذ تدركه ملكة الإبصار^(٤٩).

المذهب الثاني - لأرسطو والمثاليين:

قالوا: إن النظرة هي شعاع مضيء، يخرج عن العين في خط مستقيم. وبنوا رأيهم على ملاحظاتهم للأحياء.

وقالوا: ما يمكننا أن نلمسه من الحيوانات، ذات العيون اللامعة، كعيون الأسود والأفاعي في الظلام، فالضوء يخرج من عينيها، كما نرى حشرات لها نار مركزية في باطنها، فإذا انفتحت الأجنحة لمعت في الظلام، وإذا طويت لم يظهر النور^(٥٠).

المذهب الثالث - لأفلاطون وأتباعه (أصحاب فكرة الصور أو الأشباح):

قالوا: إن الصور تعبر الخلاء شريطة أن لا يوجد تحت وسط، وعقبات فيه حتى لا تتوقف الصور.

وقالوا: إن المرء لا يرى الشيء، وهو قريب من العين، أكثر مما ينبغي، لأن الشيء يجلب معه، ظل الهواء وظله هو. كما أن الضوء الصادر عن الجسم هو فعل للجسم المنير الذي يتبدى في الخارج. والضوء لا يحدث اللون، بل ينير سطح الأشياء التي يضيئها فحسب. والنفس تظل في ذاتها تستخدم الضوء كأنه عصا تساعد على السير نحن الشيء المنظور. وإن الإدراك فعل عميق يرجع إلى مقاومة الشيء وإلى تواتر الضوء. ومن الأدلة الناصعة عندهم على ذلك. أن صور الأشياء لا تنقل إلى البصر

بواسطة الهواء الذي تنتقل إنطباعاته تدريجياً. لأننا نرى النار والنجوم بصورها في الليل وظلمته. ولن يقال إنها وردت على العين ولمستها من خلال الظلمة، وإنما تم الإبصار بسبب تعاطف الكل الحي مع ذاته، وتعاطف أجزائه معه هذا هو شرط وحدة الإبصار^(٥١).

أعاد تأريخ هذه المسألة ابن سينا في كتابه العظيم الشفاء، وخصها بالمقالة الثالثة من الفن السادس من الطبيعيات. وذكر المذاهب الثلاثة السابقة:

المذهب الأول: يرى أن شعاعات خطية، تخرج من البصر على هيئة مخروط يلي رأس العين، قاعدته الشيء المبصر، وإن إبصار الشيء هو نقل السهم فيه. مستندين إلى الحجة التالية: إنما جاز في سائر الحواس، أن تأتيها المحسوسات، ولا يمكن أن يكون هذا في البصر، لأن الأعراض لا تنتقل. فإذا كان الضوء على هذا، فالخري أن تكون القوة الحاسة ترتحل إلى موضوع المحسوس لتلاقيه، ومحال أن تنتقل القوة إلا بتوسط جسم يحملها، ولا يكون هذا الجسم إلا لطيفاً من جنس الشعاع أو الروح، وهذا موجود في العين^(٥٢).

المذهب الثاني: يرى أصحابه أن الشعاع قد يخرج من البصر على هيئة مخروط إلا أنه لا تبلغ قاعدته أن تلاقي نصف كرة السماء إلا بالانتشار، وهذا يوجب انتشار الرؤية، لكنه إذا خرج واتصل بالهواء المضيء صار ذلك آلة له وأدرك بها.

وهؤلاء استنكروا أن يكون جسم مثل العين، يسع من الشعاع ما يتصل خطأ واحداً، بين البصر والكواكب الثابتة. كما استنكروا أن يتحرك هذا الشعاع الخارج في زمان غير محسوس حركة من العين إلى الثوابت، بنسبة زمان حركة شيء بينه وبينك ذراعان، فلا بد أن يكون بين الزمانين اختلاف.

قال ابن سينا. (فنعم ما قاله المعلم الأول (يعني أرسطو) حين قال: لأن يمتد المبصر من سعة إلى ضيق فيجتمع فيه ليكون ذلك أعون فيه على تحقيق صورته من أن يخرج الرائي من العين منتشراً في السعة^(٥٣)).

المذهب الثالث: (وهؤلاء يرون أن المحسوسات، لا يكون إدراكها بأن يرد عليها شيء من الحواس، متصلاً بها أو مرسل إليها. كذلك الإبصار، ليس يكون بأن يخرج شعاع البتة، فيلقى المبصر بل أن تنتهي صورة المبصر إلى البصر، ولا يمكن أن يعرض، زمان غير محسوس، قصراً، أو أكثر، فيكون الزمانان اللذان بينهما البعد كلاهما غير محسوسين.

ويقولون: إن الشبح (الصورة) يقع على القطع الواقع على المخروط الموهوم عند

الباب الثاني

سطح الجليدية الذي رأسه في داخل العين، فإن كانت الزاوية أكبر لأن الشيء أقرب كان القطع أعظم، والشيء الذي فيه أعظم، وإن كانت الزاوية أصغر لأن الشيء أبعد كان القطع أصغر والشيء فيه أصغر.

ولكن أصحاب المفاهيم السابقة يردون عليهم: إن المرايا تشهد بوجود هذه الشعاعات وانعكاساتها^(٥٤).

جرت بعض التعديلات على هذه التصورات عند يحيى النحوي (المتوفي ٥٣١ م) في مدرسة الاسكندرية.

وعند السريان عند سرجيوس الراسعيني المتوفي (٥٣٦) م. قربت مفهوم كيفية حدوث الرؤية إلى الصورة التي أخذها عنهما حنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني وأبي بكر الرازي الذين جعلوا هذا الموضوع جزءاً من الطب (علم الفيزيولوجيا) وخصوه بالعين. بينما أخرجه ابن الهيثم من حيز الطب إلى علم البصريات وكتب عنه بدقة علمية متناهية.

وسأعرض الصورة التي استعارها إخوان الصفا عن ثابت بن قرة «في كيفية إدراك الباصرة لمحسوساتها». قالوا: إن النور والظلمة، يسريان في الأجسام المشققة كسريان الروح بالجسد، وينسلان منها يلازمان، ولكن الضوء إذا سرى في الأجسام المشققة حمل معه ألوان الأجسام حتى يبلغها أقصى غايتها عند القوة الباصرة، المستبطنة في الرطوبة الجليدية، التي في الحدقتين اللتين هما أحد الأجسام المشققة، وهما مرآتا الجسد وهما رطوبتان مغطتان بغشائين شفافين، هما غشاء القرنية. فإذا سرى الضوء في الأجسام، وحمل معه ألوان الأجسام الحاضرة، واتصل بحدقتي العين الحاضرة هناك وسرى فيهما، كسرى كما في سائر الأجسام المشققة. إنطبع الجليدية بتلك الألوان، كما ينطبع الهواء بالضياء، فعند ذلك تحس القوة الباصرة بذلك التغير فيؤدي خبره إلى القوة المتخيلة، كما تؤدي سائر القوى الحساسة أخبار محسوساتها.

وقالوا: وقد ظن أكثر أهل العلم أن إدراك البصر للمبصرات، إنما يكن بشعاعين يخرجان من العينين، وينفذان في الهواء، وفي الأجسام المشققة، ويدركان هذه المبصرات. وهذا ظن من لارياضة له بالأمور الطبيعية ولو ارتاض فيها لبان له صحة، ماقلنا وماوصفنا^(٥٥).

وهكذا نجد العرب أول من وصف عملية الرؤية، وصفاً علمياً دقيقاً.

المراجع:

- ١ - مشكلات مابعد الطبيعة. ص ٧٦.
- ٢ - المصدر السابق ص ١٥.
- ٣ - المصدر السابق ص ٧٦.
- ٤ - المصدر السابق ص ٨٠.
- ٥ - أسس المعارف الفلسفية ص ٤٣ أفاناسيف دار التقدم موسكو ١٩٧٩.
- ٦ - مشكلات مابعد الطبيعة.
- ٧ - الفهرست لابن النديم ص ٣٨٤.
- ٨ - المدخل من الشفاء ص ١٠ لابن سينا.
- ٩ - الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص ٢٥. د. محمد عاطف العراقي دار المعارف بمصر ١٩٦٩.
- ١٠ - الآثار الباقية ص ٢٦٢ لأبي الريحان البيروني.
- ١١ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٩٣.
- ١٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٢.
- ١٣ - شرح كتاب المحصل ص ١٣٦.
- ١٤ - تاريخ الحكماء ص ١١٧ نشر ليرت ليزينغ ١٩٢٣.
- ١٥ - الاعتبار في الحكمة ج ١ ص ٥٩ أبو البركات البغدادي - حيدر آباد الدكن ١٣٥٨هـ.
- ١٦ - الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٤٤ المرزوقي الأصفهاني حيدر آباد الدكن ١٩٤٥م.
- ١٧ - كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٦.
- ١٨ - تاريخ الحكماء ص ١١٧.
- ١٩ - موسوعة الفلسفة ج ١ ص ٥٥٦. د. عبد الرحمن بدوي دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥.
- ٢٠ - رسائل الرازي الفلسفية ص ٦٩ تحقيق بول كراوس القاهرة ١٩٣٩.

- ٢١ - كتاب محصل أفكار المتقدمين ص ١٣٧.
- ٢٢ - الموسوعة الإسلامية ج ١٠ ص ٣٨٤.
- ٢٣ - الأزمنة والأمكنة ج ١ ص ١٤٨.
- ٢٤ - الموسوعة الإسلامية ج ١٠ ص ٣٩٣.
- ٢٥ - التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٣٥ تحقيق د. فؤاد زكريا وزارة الثقافة القاهرة ١٩٧٠.
- ٢٦ - اعترافات القديس أوغسطين ص ٢٥٧ ترجمة يوحنا الحلو المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٢.
- ٢٧ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١٢.
- ٢٨ - تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٩٥ البيروني حيدر آباد الدكن ١٩٥٥.
- ٢٩ - المباحث الشرقية ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ فخر الدين الرازي، حيدر آباد الدكن ١٩٢٤.
- ٣٠ - آراء الفلاسفة المسلمين في الحركة ص ٤٦ مصطفى نظيف مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم القاهرة ١٩٤٢.
- ٣١ - التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٦٣.
- ٣٢ - كتاب الكمون والفساد لأرسطو ص ١٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن بدوي القاهرة.
- ٣٣ - عيون الأنباء ص ٣٠٠ لابن أبي أصيبعة د. نزار رضا بيروت ١٩٦٢.
- ٣٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٦٠.
- ٣٥ - التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٦٩.
- ٣٦ - تفسير مابعد الطبيعة لأرسطو ج ٣ ص ١٤٩٧ لابن رشد تحقيق الأب بويج المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٢.
- ٣٧ - الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ص ٣٧٩.
- ٣٨ - كتاب الفهرست لابن النديم ص ٣١٤.
- ٣٩ - عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٩٩.
- ٤٠ - موسوعة الثقافة العلمية ص ٣٩٧ دار الكتاب الجديد القاهرة ١٩٦٤.

- ٤١ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧.
- ٤٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٧٧ - ٧٨.
- ٤٣ - الكون ص ٦٩ كارل ساغان ترجمة نافع أيوب لبس كتاب عالم المعرفة (١٦٧) ١٩٩٣.
- ٤٤ - المصدر السابق ص ٦٩.
- ٤٥ - الأيام الستة (الهكساميرون) ص ٥٧ يعقوب الرهاوي ترجمة المطران صليبا شمعون دار الرها حلب ١٩٩٠.
- ٤٦ - الكون ص ٧١.
- ٤٧ - الأيام الستة ص ٥٦.
- ٤٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣.
- ٤٩ - التساعية الرابعة لأفلوطين ص ٢٨٥.
- ٥٠ - المصدر السابق ص ٢٩٠.
- ٥١ - المصدر السابق ص ٢٨٤.
- ٥٢ - كتاب الشفاء لابن سينا ص ١١٤ نشر مكتب الدراسات الجامعية بيروت ١٩٨٥.
- ٥٣ - المصدر السابق ص ١٤٤.
- ٥٤ - المصدر السابق ص ١١٥.
- ٥٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

الباب الثالث

إخوان الصفا هم صابئة حران

- الفصل الأول - إخوان الصفا (التاريخ والعقيدة).
- الفصل الثاني - هل الرسائل من إنتاج الفكر الإسماعيلي أم الحراني؟
- الفصل الثالث - الفارابي وصابئة حران وإخوان الصفا.
- الفصل الرابع - أهم المرتكزات النظرية والمواضيع الفكرية في الرسائل.

الفصل الأول

إخوان الصفا (التاريخ والعقيدة)

إخوان الصفا... من هم؟ وما حقيقة دعوتهم؟

إخوان الصفا، دعوة فلسفية ظهرت في القرن الرابع الهجري في بغداد في سوق الوراقين، بباب الطاق تجاه باب البصرة. وقد أغفلت هذه الرسائل من أسماء مؤلفيها، مما جعلها عرضة لكثرة الظنون.

والسؤال الملح في هذا البحث. كيف ومتى ظهرت هذه الرسائل؟. للإجابة على هذا السؤال لابد من ذكر الظروف التاريخية والاجتماعية التي ارتبطت بها.

إن أقدم النصوص التاريخية التي أرخت لرسائل إخوان الصفا، ما ذكره أبو حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) في مجلس الوزير صمصام الدولة بن عضد الدولة البويهري (٣٧٣هـ - ٩٨٤م) وكان ذلك الوزير رجلاً مثقفاً، كان مجلسه يضم علماء من مختلف العقائد والملل والاختصاصات، فيهم الفيلسوف والطبيب والمهندس والفلكي والأديب والمؤرخ والشاعر، وفيهم المسلم والمسيحي والمجوسي والصابي والزنديق. وكانوا كلهم يتراشقون سهام الجدل فيما بينهم. بينما كانت العراق في حالة فتن واضطراب. قال الرحالة المقدسي البشاري عنه: «إنه بيت الفتن والغلاء، وهو في كل يوم إلى الوراء، ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء»^(١).

ومن الشخصيات العلمية البارزة في ذلك المجلس، الفيلسوف أحمد بن يعقوب مسكويه (ت ٤٢١هـ).

ووهب بن يعيش الرقي، وأبي الخطاب الصابي الكاتب، وأبو إسحاق الصابي الحراني (ت ٣٨٤هـ).

وأبو الوفاء البوزجاني (٣٩٠هـ) المهندس الفلكي العظيم، والفيلسوف المترجم نظيف بن يمين الرومي، وغيرهم آخرون.

قال الوزير صمصام الدولة لأبي حيان: حدثني عن شيء هام خطر على بالي، إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولاً ومذهباً لا عهد لي به، وكناية عمالاً أحقه،

وإشارة إلى ما لا يتوضح منه شيء. يذكر الحروف ويذكر النقط، ويزعّم أن الباء لم تنقط من تحت واحدة إلا بسبب، والتاء لم تنقط من فوق إثنين إلا لعلّة، والألف لم تعرّ إلا لغرض وأشباه هذا. فما حديثه؟ وما شأنه؟ وما دخله؟ وما خبره؟. فقد بلغني أنك تغشاه، وتجلس إليه، وتكثر عنده، وتورّق له، ولكّ معه نوادر مضحكة، وبوادر معجبة. ومن طالّت عشرته لإنسان، صدقت خبرته به وانكشف أمره له، وأمّكن اطلاعه على مستكن رأيه، وخافي مذهبه وعويص طريقته؟.

قال أبو حيان: أيها الوزير.. أنت الذي تعرفه قبلي، قديماً وحديثاً بالتربية، والإختبار والاستخدام وله منك الأصرة القديمة والنسبة المعروفة!

قال الوزير: دع هذا وصفه لي؟.

قال أبو حيان: هناك ذكاء، غالب وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، ومتسع في فنون النظم النثر مع الكتابة البارة، في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات!

قال الوزير: فعلى هذا. مامذهبه؟.

أجاب أبو حيان: لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط لجيشانه، بكل شيء وغليانه مع كل باب، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادق بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة منهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي. صحبهم وخدمهم، وكانت هذه العصاة قد تألفت العشرة، وتصافت بالصدّاقة، واجتمعت على القدس والطهارة، والنصيحة. فوضعوا بينهم مذهباً، زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز بروضان الله، والمصير إلى جنته. وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك أنها حاوية للحكمة الإعتقادية، والمصلحة الإجتهدية. اوزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية، والشريعة العربية، فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في أجزاء الفلسفة (علميّها وعمليّها) وأفردوا لها فهرساً وسموها (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء)، وكتبوا أسماءهم وبنوها في الوراقين، ولقنوها الناس، وادعوا أنهم مافعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله، عز وجل، ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة، التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة، التي تضر أصحابها والأفعال المذمومة، التي يشقى بها أهلها. وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية، والحروف المحتملة، والطرق الموهمة.

قال الوزير: هل رأيت هذه الرسائل؟.

أجاب أبو حيان: رأيت جملة منها مبثوثة من كل فن تنفأ، بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنائيات وتلفيقات، وقد غرق الصواب فيها، لغلبة الخطأ عليها. وقد حملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام ت ٣٧٠ هـ) وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً واختبرها طويلاً، ثم ردها إليّ قائلاً: تعبوا وأفنوا وغنوا وما أطربوا، ونسجوا ففلقوا، ومشطوا فغلغلوا. ظنوا مالا يكون ممكن ولا يستطاع. ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطي، والمقادير والآثار الطبيعية، والموسيقى التي هي معرفة النغم، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات، والكميات والكيفيات في الشريعة، وأن يضبطوا الشريعة للفلسفة. وهذا مراد دونه حد، وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد نياباً، فلم يتم لهم ما أرادوا، وحصلوا على لوثات قبيحة، وألقاب موحشة، وعواقب مخربة وأوزار مثقلة^(٢).

قال أبو حيان: فسأله أبو العباس البخاري: ولم ذلك يا شيخ؟ فأجابه أبو سليمان: لأن الشريعة مأخوذة عن الله، من طريق الوحي وظهور المعجزات، وليس في حديث الشريعة، حديث المنجم في تأثير الكواكب، ولا حديث صاحب الطبيعة وآثارها، ولا فيها حديث المهندس الباحث عن مقادير الأشياء، ولا حديث المنطقي الباحث عن مراتب الأقوال. فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة، في طريق الشريعة؟ على أن وراء هذه الطوائف جماعة لهم مأخذ هذه الأغراض، كصاحب العزيمة، وصاحب الطلسم وعابر الرؤيا، ومدعي السحر وصاحب الكيمياء، ومستعمل الوهم. والرسول الكريم قال: «من أتى عرافاً، أو طارِقاً، أو حازِياً أو كاهناً أو منجماً، يطلب غيب الله منه، فقد حارب الله»^(٣).

قال أبو حيان: الشريعة مأخوذة بالوحي، والفلسفة من العقل الذي هو موهبة من الله، والعقل لا يدرك ما يعلوه وليس كذلك الوحي. فالنبي فوق الفيلسوف، لأن النبي مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه^(٤).

ولكن الوزير. استنكر قول أبي حيان، ماسمعت شيئاً من هذا من المقدسي؟.

أجاب أبو حيان: بلى! قد سمعت منه هذا، وما أشبهه في أوقات كثيرة بحضرة (حمزة الوراق) وقد سألته. فسكت ومارأني أهلاً للجواب. ولكن الحريري غلام ابن أبي طرادة هيّجّه يوماً في الوراقين بمثل هذا الكلام!

فقال المقدسي: الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء. وغاية مدبر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حفظ فقد أفاده كسب الفضائل، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وصار مستحقاً للحياة الإلهية، من الخلود والديمومة السرمديّة^(٥). والشريعة عامة، والفلسفة خاصة، وهما متطابقتان.

قال الحريري: لِمَ جمعتم رسائل إخوان الصفا ودعوتهم النار إلى الشريعة؟؟ وهي لانلزم إلا للامة! ولِمَ تقولوا للناس؟ من أحب أن يكون من العامة فليتحلّ بالشريعة؟؟. وحشوتهم رسائلكم بآيات من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلول عليها بالشريعة. ثم أن الشريعة مدلول عليها بالمعرفة. حدثني أيها الشيخ على أي شريعة دلت الفلسفة؟ أعلى اليهودية أم على النصرانية أم على المجوسية أم على الإسلام أم ما عليه الصابغون؟.

أفتقول: إن الفلسفة أباححت لكل طائفة، من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين، الذي نشأت عليه؟ إنك من أهل الإسلام. أين كان الصدر الأول من الفلسفة؟ أعني الصحابة والتابعين وماعندي، أن الأئمة، الذين يأخذ عنهم، ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس وأفلاطون وسقراط، رهط الكفر ذكروا في كتبهم، حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القدّاحين في الإسلام، الساترين على أنفسهم ما هم فيه، من التهم وهذا بعينه دبره (الهجريّون) بالأمس، وبهذا دندن الناجمون (بقزوين)، وبثوا الدعاة في أطراف الأرض^(٦).

قال المقدسي: الناس أعداء ماجهلو، ونشر الحكمة في غير أهلها، يورث العداوة، وي طرح الشحنةاء، ويقدر زند الفتنة^(٧).

قال الوزير: ماعجيني من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان (المنطقي) في هذا الاستحقار والتعصب، وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عدي النصراني (ت ٣٦٤هـ). ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير كتبهم بغاية الإقتان.

قال أبو حيان: إن شيخنا أبو سليمان، غزير البحر لا يغلق عليه في الأمور الروحانية، والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية. وقد رأيت صاحباً لأبي بكر محمد بن زكريا المتطبيب (ت ٣١٣هـ). في هذه الأيام، ورد من الري. يقال له أبو غانم الطبيب، يُشادّه في هذا الموضوع، ويضايقه، ويلزمه القول بما يلزم به على الخصم. وإذا أذنت، رسمت كلامهما في ورقات.

قال الوزير: قد بان الغرض، الذي رمى إليه، والوقوف عليه كافٍ^(٨).

الباب الثالث

نجد مما مؤان رسائل إخوان الصفا قد ظهرت في القرن الرابع الهجري، في مجتمع متعدد الثقافات، متباين الأجناس والعقائد، في مجتمع بغداد. كان فيه من الحرية الفكرية الشيء الكثير، فيه فلسفة أبي بكر الرازي وأبي زيد البلخي، اللذين قالاً بتحكيم العقل في كل الأمور، مما قادهما إلى القول بعدم ضرورة النبوة طالما أن العقل يوصلنا إلى مظان الوحي، وفيه فلسفة أبي الخطاب الصائبي، وأبي إسحق الصائبي، وهما من المتعصبين للمذهب الخرائي، وأصحاب الديانة النجومية يقولان ماتقولوه رسائل إخوان الصفا، ويجعلان الفلسفة هي المخلصة للإنسان من ظلام الجهالة، وهي التي ترتفع بالعقل إلى مقام الألوهية.

بالإضافة إلى الفلسفة الإسلامية، التي تحاول جاهدة، أن توافق بين العقل والنقل أو بين الشريعة والفلسفة، كمذهب الفارابي في التوفيق بين أفلاطون وأرسطو وبين الفلسفة والدين، ومدرسة أبي سليمان السجستاني. قال دي بور «نجد نزعة الفارابي المنطقية تستحيل إلى فلسفة لفظية، وترى الجدل، يدور حول تحديد المعاني، والتدقيق في التمييز بينها، وكانت تبحث إلى جانب هذا مسائل متفرقة في كلام الفلاسفة المتقدمين، ومن فروع العلم من غير نظام يؤلف بينها ولا يكاد يبدو لهذه المباحث شأن يستحق التنويه، ونرى مسألة النفس الإنسانية تستأثر بالمكان الأول، كما كان الحال عند إخوان الصفا غير أن هؤلاء إنما عالجوا عجائب أفعال النفس، على حين أن أهل المنطق، كانوا ينظرون في جوهرها العقلي، وفي العروج بها إلى العالم الأسمى.. وكانت جماعة السجستاني (يعني أبي سليمان) تتلاعب بالألفاظ والمعاني، بينما كان إخوان الصفا يتلاعبون بالأعداد والحروف، وكانت الصوفية نهاية لكلا الطرفين»^(٩).

إن أول من ذكر الرسائل في تاريخ الأدب العربي أبو حيان التوحيدي، بل إنه قد أعطانا فكرة وافية عنها، وصوّر الجو الثقافي الذي أحاط بها، وأوحى لنا أن مؤلفيها، هم زيد بن رفاع وجماعته، ولكن الوزير صمصام الدولة نفى ذلك.

لِمَ لم يذكر هذه الرسائل أحد قبل أبي حيان؟ لِمَ لم يذكرها شيخ الوراقين ابن النديم؟ هل كان أبو حيان أميناً في نسبته الرسائل إلى زيد بن رفاع وجماعته؟ انقسم الباحثون حول أمانة أبي حيان التوحيدي. فالبعض يشك في صحة ما يرويه، لأن له سابقة في الوضع كما ثبت في رسالة السقيفة، وأعتقد آخرون بصحة أمانته وتجوده في كل ما أودعه كتبه^(١٠). وهو حين يذكر عدد الرسائل يقارب الحقيقة، وكذلك حين يصف مضمون الرسائل، ولكن نسبته الرسائل إلى زيد بن رفاع وجماعته، ربما قال بهذا ليخفي أسماء مؤلفيها الذين كانوا معه في بلاط صمصام الدولة، إن فلسفة

الرسائل هي عين فلسفة الخرائية أصحابه أمثال وهب بن يعيش الرقي وأبي الخطاب الصابي وأبي اسحق الصابي (إبراهيم بن هلال ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م). وكان إمام الكتابة الرسل في زمنه، قال عنه آدم متر «مفخرة النثر العربي»^(١١).

إن أسلوب رسائل إخوان الصفا، تشبه كتابته في سلاستها، وعدوبة لفظها، وكان متعصباً لدينه وقد عرضت عليه الوزارة إن أسلم فأبى^(١٢)، وظل طول حياته يعتنق دين الصابئة، ولكن كان رضي الخلق يحبه الجميع. فلما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة من عيون الشعر العربي، وكان مما يؤله أن يرى ديانته تتلاشى في الذوبان أمام عينيه. ولا أستبعد أن يكون وجماعة له من الصابئة قد دسوا تلك الرسائل في الوراقين بعد أن كئفوها مع الفكر الإسلامي، وبقية الديانات السماوية الأخرى، وقد ضمنوها موروث الصابئة الفكري، ومعظمها اعتمدت كتابات ثابت بن قرة الخرائي.

كان أبو حيان التوحيدي، يميل إلى الفكر الفلسفي الأفلاطوني الحديث، وكان ينسب أقواله وحكمه لأناس قد ماتوا من قبل. لكي يفلت من رقابة الدولة، ورجال الدين، مما دعا ابن الجوزي للقول عنه «إنه أحد الزنادقة الأربعة في الإسلام».

وحول مدرسة أبي سليمان السجستاني الفلسفية، قال المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون:

«إنهم أرادوا أن يوفقوا بين العلم والدين على بساط التصوف، فمزجوا بين آراء الفلاسفة ورموز الحلاج، وأن الغموض في كتاباتهم مقصودة، لأن من عادة الفلاسفة حماية أفكارهم بالرموز، والإصطلاحات على شاكلة الفرق الباطنية»^(١٤). وهذه الطريقة تعود إلى أيام فيثاغورس. الذي حاول تفسير العالم وما فيه برموز العدد، وكان يقول إن للمعاني قشوراً ولباً. وتابعهم أفلاطون الذي كان أحد أفراد نحلته السرية، ولكنه عندما خشي على فلسفته من الزوال والتلاشي كتبها، في أسلوب رمزي، صيانة لها من العامة والاندثار معاً. وقد وضع ثابت بن قرة كتاباً يبيّن فيه لِمَ يلغز الناس في كلامهم؟ يبيّن فيه أن لكل فلسفته باطن وظاهر، وللخاصة المعنى الباطن، وللعمامة المعنى الظاهر، وفي الديانة للعمامة المعنى الظاهر، وكان الخرائية، يموهون بإظهارهم للدين الإسلامي، وإظهار الشهادة.

قال ابن الجوزي: «إنهم كانوا يقولون: (لا إله إلا الله) وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول (لا إله إلا الله). قال ابن زيد»^(١٥). ثم قال وهؤلاء لا ينكرون البعث». وقد اتبع أبو نصر الفارابي طريقتهم عندما اتبع المذهب الأفلاطوني الحديث، ومزج بين

الباب الثالث

رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وهذا مانراه ميثوثاً في رسائل إخوان الصفا. قال عنه دي بور «وهنا نرى مدرسة الفارابي، تزول زوالاً واضحاً، وكما أن الفلسفة الطبيعية، تحولت إلى علوم، تجري وراء الأسرار، وكما أن مدرسة الكندي، رغبت عن الفلسفة إلى فروع الرياضيات، والعلم الطبيعي كذلك. وجرت حول الأسرار الباطنية.

وهذا هو المنهج الذي أتبعه إخوان الصفا في رسائلهم، فما هي حقيقة فلسفتهم، وما علاقتها بالإسلام، أو بالديانات الأخرى. قال إميل برهيه (١٨٧٨ - ١٩٥٣): لا يكفي البتة حقيقة أي فلسفة، ذكر المذاهب التي تقول بها وحسب، بل الأمر الأكثر أهمية، هو فحص الروح الحقيقية، التي تدعم بها هذه الفلسفة مذاهبها الخاصة، وذلك بدراسة النظام الفكري الذي تنتمي إليه تلك الفلسفة»^(١٦).

خص الدكتور عادل العوا كتاباً عن (حقيقة إخوان الصفا) قال فيه إن النظام الذي تنتمي إليه هذه الرسائل هو الدين الإسلامي. وذكر أخطاء الباحثين الجسيمة التي اقترفت بحق إخوان الصفا، وكان الأجدى بهم أن يستخلصوا من نقص المعلومات التاريخية، عن هؤلاء الإخوان التعمق بدراسة نصوص رسائلهم التي وضعوها لتحمل نداءهم العاجل الملح إلى الشباب، من جميع الأوساط ومختلف الفرق في كل الديانات، للأنضواء تحت رايتهم لبلوغ هدفهم الأسمى»^(١٧).

سأعرض هذه الرسائل على كل الديانات والنحل، التي تعرضوا لها في رسائلهم.

معلقة إخوان الصفا بالديانات المعاصرة لهم؟:

مع أن إخوان الصفا، كانوا أناساً لاتعصب لديهم، إلا أن الدارس لرسائلهم، يجدهم يفضلون بعض الديانات على بعض. وقبل أن أذكر ماهي الديانة المفضلة لديهم سوف أذكر الديانات التي يعتبرون أهلها من أصحاب الآراء الفاسدة، ومن هذه الديانات مايلي:

الديانة اليهودية:

قال الإخوان عنها: «إن الله وإن اصطفى من خلقه آدم أبا البشر وأولاده ومن ذريته نوحاً وإبراهيم خليل الله، ومن ذريته إسرائيل، ومن ذريته، موسى بن عمران، كلمه وناجاه وأعطاه، آية اليد البيضاء، والعصا والتوراة، وفلق له البحر وأغرق فرعون عدوه، وجنوده وأنزل على آل إسرائيل في التيه المن والسلوى، وجعلهم ملوكاً، وآتاهم مالم يؤت أحد من العالمين.

ولكن صاحب العزيمة (في مآدبة الحيوان والإنسان)، ردّ على الرجل اليهودي الذي عدد فضائل بني إسرائيل قائلاً: نسيت ولم تقل، منا القردة والخنازير وعبداء الطاغوت، وضربت عليكم الذلة والمسكنة والخزي لكم في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم^(١٨). من هذا النص نستدل مدى إحتقار إخوان الصفا، لهذه الديانة، فهم ليسوا منها، ولا إليها يميلون، وهي ليست من الديانات الناجية، وأصحابها من أصحاب الآراء الفاسدة.

الديانة المسيحية:

في المآدبة التي أقامها صاحب العزيمة، قام رجل سرياني من آل المسيح وقال: الحمد لله الذي اتخذ من العذراء البتول جسد الناسوت، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيده بروح القدس وأظهر على يديه العجائب.. وجعل في قلوبنا رحمة ورأفة، ورهبانية فله الحمد والشكر والثناء. ولكن أصحاب الرسائل قالوا عن أتباع السيد المسيح (ومن أصحاب الآراء الفاسدة، من يرى أن بارث وإلهه الروح القدس، الذي قتله اليهود وصلبت ناسوته، وذهب لاهوته فتركه مخذولاً)^(١٩). نستدل من ذلك أن إخوان الصفا لا علاقة لهم بالديانة المسيحية، وأصحابها من أصحاب الآراء الفاسدة.

المجوسية والمناوية:

المجوسية هم أتباع زرادشت، وهؤلاء يعتقدون أن للعالم صانعين، أحدهما خير فاضل (أهورا مزدا) والآخر شرير رذل، وهو إله الشر (أهرمان) وهذان الإلهان متجاوران، مختلطان، متنازعان، وكل واحد مخالف للآخر في شيء، أو أشياء، حول الدهر أو الزمان^(٢٠).

وكان مما سنّه زرادشت، عبادة النار والصلاة إلى الشمس، يتأولون فيها أنها ملكة العالم، تحيي النبات والحيوانات، وترد الحرارة إلى أجسادها، وأن السماء جلد من جلود الشياطين، وأن الأرض لانهاية لها من أسفلها^(٢١). ومما نصّ عليه زرادشت، أن للعالم قوة إلهية، هي المدبرة لجميع ما في العالم المنتهية، مبادئها إلى كمالاتها، وهي القوة التي تسمى (مشاسبند)، وهي على لسان الصابئة: المدير الأقرب، وعلى لسان الفلاسفة العقل الفعّال، ومنه الفيض الإلهي، والعناية الربانية. وعلى لسان المناوية (الأرواح الطيبة) وعلى لسان العرب، الملائكة، وعلى لسان الشرع (الروح)^(٢٢). ولكن أصحاب الرسائل اعتبروهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

الباب الثالث

أما المانوية فهم أتباع ماني (٢١٥ - ٢٧٦). وهؤلاء يعتقدون، أن العالم محدث مصنوع، وأن له علتين قديمتين أزليتين مختلطتين، وأن الشرور، تجري في عالم الكون والفساد، وأن هناك فاعلين، أحدهما نور (خير)، والآخر ظلمة (شر)، ويعتقدون أن إحدى العلتين، فاعل وهو النور، والآخر منفعل به وهو الهوى.

وقال ماني إن الله واحد، يعرف بثلاثة ألقاب، (أقنوم الله ويسمى برقليطوس)، وأقنوم الخير ومعدن النور والصلاح، وهو ذاهب علواً بلا نهاية، والأقنوم الآخر، هو الهوى معدن الجهل والظلمة، والفساد، وعليه فإن الكون شرير. وقالوا: بتناسخ الأرواح، وأنكروا قيامة الموتى^(٢٣). وحكى عنهم أبو عيسى الوراق (محمد بن هارون) وكان عارفاً بمذاهب القوم: إن الحكيم ماني زعم، أن العالم مصنوع، مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان، لم يزالا، ولن يزالا وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، وهما متضادان وفي الحيز متحاذيان، تحاذي الشخص والظل^(٢٤).

وزعم زعيمهم أبو سعيد المانوي (أن الذي مضى من المزاج إلى الوقت الذي هو فيه وهو سنة (٢٧١ هـ) أحد عشر ألفاً وسبعمائة سنة، وأن الذي بقي إلى وقت الخلاص (٣٠٠ سنة) وعندها يتم الخلاص الكلي وانحلال التراكمات وذلك في سنة ٥٧١ هـ^(٢٥). ولم يتحقق قولهم.

كان إخوان الصفا يعتبرون أصحاب الديانتين السابقين، من أصحاب الآراء الفاسدة.

أصحاب الدهر:

وهؤلاء يعتقدون أن العالم قديم لاصانع له ولا مدبر، وهؤلاء لا يرجون بعد الموت خيراً. وهؤلاء طائفتان:

- أهل الآراء الفاسدة الظاهرة التي ألفوها وأنسوا بها.

- وأهل الآراء الفاسدة الباطنة، التي أسروها وأستجنوا بها، وإخوانهم وأتباعهم وتلامذتهم وشيعتهم، الذين يُقْفون آراءهم ويسلكون مذهبهم.

قال إخوان الصفا: ومن هؤلاء من لا يرون العالم محدث مصنوع له صانع واحد حكم ولكنهم لا يرون البعث والنشور ولا القيامة والحشر ولا لقاء ربهم وشعارهم حياتنا الدنيا نموت ونحيا^(٢٦). وهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

ما علاقة اخوان الصفا بالمذهب السني الإسلامي؟:

كان إخوان الصفا يحقدون على الدولة، لأنها دولة أهل الزمان، ويتنبؤون بانهيائها، طبقاً لعلم النجوم، وما ذلك إلا لأن الدولة والدين توأمان، والأيدلوجية التي تتبناها الدولة العباسية هي المذهب السني. قالوا: ونرى أيها الأخ البار الرحيم، أيك الله وإيانا بروج منه، أنه قد تناهت دولة أهل الشر، وظهرت قوتهم وكثرت أفعالهم، في هذا الزمان، وليس بعد هذا التناهي إلا الإنحطاط والنقصان: وأعلم أن الدولة والمملك، ينتقلان في دهر وزمان ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن بلد إلى بلد^(٢٧).

قال الدكتور جبور عبد النور: «إن إخوان الصفا كانوا بانتظار القران الأوسط، الذي يتم عندما ينتقل هذان الكوكبان (زحل والمشتري) من مثل إلى آخر ويتم هذا الأمر بعد (٢٤٠) سنة وعند ذلك يحدث التبديل، وإذا فرضنا أنهم يعنون بذلك حكم العباسيين الذي بدأ عام ١٣٢هـ واضفنا إليه مدة (٢٤٠) عاماً يعتبرونها ضرورية لاكمال القران الأوسط. تبين لنا أنهم عينوا تاريخاً لحدوث هذه الثورة الانقلابية حول (٣٧٢هـ). وهو تاريخ، يتأخر قليلاً عن ابتداء الدعوة (الإسماعيلية)، ويتفق مع ماتطلبه من زمن لنشرها، وتصميمها في مختلف البلدان»^(٢٨).

وإذا بلغ الدور العقب، ومدة ذلك (٣٣٠) سنة وأربعة أشهر، يحل بالعالم مصائب لا تحصى، وتسقط هبة السلطان، الذي في يده زمام الشريعة، ويطمع سائر الملوك به، ويصير الحكم عند ذلك لدولة إخوان الصفا، وتكون مدة تسلطهم (١٥٩) سنة^(٢٩). وهذا التاريخ يصادف حوالي عام (٤٩٠هـ - ١٠٨٧م). وعند ذلك تقوم دولة أهل الخير، أو دولة إخوان الصفا.

أولها من قوم علماء، حكماء، وأخيار فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ويعقدون بينهم عقداً وميثاقاً، أن لا يتجادلون، ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً. ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصرة الدين، وطلب الآخرة، لا يتفنون سوى وجه الله ورضوانه»^(٣٠).

ولكن نبؤتهم لم تتحقق.

تحمل الرسائل في ثناياها عداء تاماً للإسلام، بكل مذاهبه، وتفرعاته وفرقه، وقد قالوا عنهم «وما مثلهم في ذلك إلا مثل الكلب، ينام في المعلق، فلا هو يأكل، ولا

الباب الثالث

يدع الخيل تأكل، حتى يموت هو وهي هزلاً. وقد روي عن الحسن عليه السلام قوله: «يا علماء سوء، جلستم على باب الجنة، فلا أنتم تعلمون، فتستوجبون الجنة، ولا تركتم غيركم، يجوز، فدخل الجنة»^(٣١).

وقالوا: واعلم أن الآراء الفاسدة كثيرة، وأن أهلها جم غفير، لا يؤمن من غلواتهم، وهم جنود إبليس أجمعين. وأشدهم عداوة للحكماء، الطائفة الظالمة المجادلة المخاصمة، الذين يخوضون في العقولات، وهم لا يعلمون في المحسوسات، ويتعاطون البراهين والقياسات، ولا يحسنون الرياضيات، ويتكلمون في الالهيات، ويجهلون في الطبيعيات، ويتصدرون في المجالس، ويتجادلون في أشياء لاتفيد علماء، ولا تتيح في الحكمة فائدة، مثل كلامهم في التعديل والتجوز والجزء الذي لا يتجزأ، وما شاكلها من المسائل الموهمة، المزخرفة التي لاحقيقة لها، ولا وجود إلا في الأوهام الكاذبة. وإذا سئلوا عن أشياء موجودة، مقدرة بين الناس ومعروفة مشهورة عند الحكماء، وإذا استعصى عليهم السؤال والبحث أنكروها، وجحدوها، ولا يأنفون أن يقولوا: لاندرى. أو يقولوا: الله ورسوله أعلم. ويخوضون في طغيانهم وجهالاتهم، ويدعون فيها المحالات، ويعارضون بها العلماء والحكماء، ويشنعون عليهم مثل قولهم «إن علم الطب والنجوم باطل، وإن الكواكب جمادات، وإن الأفلاك لا وجود لتدبيرها، وإن علم الطب لامنفعة فيه، وإن علم الهندسة لاحقيقة له، وإن المنطق والطبيعيات كفر وزندقة، وإن أهلها ملحدون، ويدعون عليها المحالات، ويحكون عنها الخرافات ويقولون: هذا كلامهم ومذهبهم ورأيهم واعتقادهم. وإلى يومنا هذا ماروي، أن يهودياً، تاب على يد واحد منهم، ولانصرانياً أسلم ولا مجوسياً آمن بأرائهم»^(٣٢) أظنهم جملوا كل المذاهب الإسلامية بما فيها المعتزلة.

وفي الرسائل حوار بين الرجل الناجي، وهو من إخوان الصفا، والرجل الهالك، ويمثلون به الرجل المسلم الخنيلي ولطرافة الحوار سأورده:

قال الناجي للهالك: كيف أصبحت يا فلان..؟

قال الهالك: أصبحت في نعمة الله. طالباً للزيادة رغباً فيها حريصاً على جمعها، ناظراً لدين الله، معادياً لأعداء الله محارباً لهم.

قال الناجي: ومن هم أعداء الله..؟

قال الهالك: كل من خالفني في مذهبي واعتقادي.

قال الناجي: وإن كان من أهل لا إله إلا الله..؟

قال الهالك: نعم!

قال الناجي: إن ظفرت بهم، ماذا تفعل بهم؟

قال الهالك: أدعوهم إلى مذهبي واعتقادي ورأيي.

قال الناجي: فإن لم يقبلوا منك؟

قال الهالك: أقاتلهم، وأستحل دماءهم وأموالهم، وأسبي ذراريهم..

قال الناجي: فإن لم تقدر عليهم، ماذا تفعل؟

قال الهالك: أدعوا عليهم ليلاً ونهاراً، وألعنهم في الصلاة تقريباً لله!

قال الناجي: فهل تعلم، أنك إذا دعوت عليهم ولعننتهم، يصيبهم شيء؟

قال الهالك: لا أدري. ولكن إذا فعلت ماوصفت لك، وجدت لقلبي راحة ولنفسي لذة، ولصدري شفاء.

قال الناجي: أتدري لِمَ ذلك؟

قال الهالك: لا... ولكن قل أنت؟

قال الناجي: لأنك مريض النفس، معذب القلب، معاقب الروح، لأن اللذة إنما هي خروج النفس من الآلام. ثم اعلم أنك محبوس في طبقة من طبقات جهنم.

قال الهالك: أخبرني أنت عن رأيك، ومذهبك، وحالك كيف هي؟

قال الناجي: نعم - أما أنا، فأني أرى قد أصبحت من نعمة الله وإحسانه، لا أحصي عددها، ولا أودي شكرها، والخلق من جهتي في أمان، أسلمت لربي مذهبي وديني دين إبراهيم عليه السلام، وأقول كما قال: فمن اتبعني فإنه من الناجين ومن عصاني فإنك غفور رحيم^(٣٣).

من هذا النص، ندرك مدى حقد إخوان الصفا على المسلمين المتعصبين.

إخوان الصفا والمذاهب الشيعية والمعتزلة:

استخدم إخوان الصفا أسلوب التلميح باستشهادهم بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، مما جعلها مستساغة من كل المذاهب الإسلامية، إلا أن حيلهم تلك لم تخف على حجة الإسلام الغزالي، الذي أدرك خطر دعوتهم

الباب الثالث

باستدراجهم «قلوب الحمقى» بجملة من آيات القرآن وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الصوفية^(٣٤). قال الغزالي محذراً من قراءة هذه الرسائل «إن من نظر في كتبهم فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسناها، وحسن إعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم. ولأجل هذه الآفة، يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر والخطر، كما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزلق الشطوط^(٣٥)».

وقد أعطى الغزالي حكماً صائباً عن مصدر هذه الرسائل قال: وحاصل علمهم شيء من ركيك فلسفة فيثاغورس المحكي، في كتاب إخوان الصفا، وهو على التحقيق «حشو الفلسفة»^(٣٦).

الشيعة إحدى الفرق الإسلامية التي تأخذ تعاليمها من كتاب الله وسنة نبيه الصادقة المروية عن أهل البيت وتعاليمهم. وفي الشيعة مذاهب معتدلة، كالمذهب الإمامي الإثني عشري، والمذهب الزيدي، وهؤلاء لا يختلفون عن المذاهب السنية إلا ببعض الفروع دون الأصول. وهناك مذاهب مغالية حكمت العقل في أمور العقائدية، وأخذت بالفكر الفلسفي، والتراث الإنساني في طقوسها وعقائدها مما جعلها تبدو - أحياناً - مخالفة للإسلام في نظر المذاهب السنية والشيعة معاً.

ومن أهل الآراء الفاسدة في نظر إخوان الصفا المذاهب الشيعية التالية:

الكيالية:

أتباع أحمد بن كيال، كان شيعي المذهب، ولكنه أبدع مقالة، عاند بها الإمام الحسن العسكري (عليه السلام)، فثيرأمنه، ولعنه، وترك مخاطبته، فأدعى أحمد بن كيال الإمامة لنفسه، ثم ادعى أنه القائم بأمر الله.

وكان يدعي: أن كل من قدر الآفاق على الأنفس، وأمكنه أن يبين مناهج العالمين، - أعني عالم الآفاق (العلوم العلوي)، وعالم الأنفس (العالم السفلي). كان هو الإمام. وكل من قرر الكل في ذاته، وأمكنه، أن يبين كل كلي في شخصه المعين الجزئي، كان هو القائم. وأن الأنبياء، هم قادة أهل التقاليد، وأهل التقليد عميان، والقائم قائد أهل البصيرة، وهم أولو الألباب^(٣٧). وحملة الميزان. وكان يطلق الصراط على نفسه والجنة هي الوصول إلى علمه.

فما رأي إخوان الصفا بهم؟

قالوا عنهم: «والكثيالية في متسعاتهم، وليس هذا مذهب إخواننا الكرام أيدهم الله وإيانا بروح منه، حيث كانوا في البلاد، بل نظرهم كلي، وبحضهم عمومي، وعلمهم جامع، ومعرفتهم شاملة، وهم من أهل الآراء الفاسدة»^(٣٨).

المعتزلة:

ذكر القفطي «أن رسائل إخوان الصفا هي من تضيف بعض متكلمي المعتزلة»، ربما دعاه ذلك ماجاء في رسائل إخوان الصفا، من وصف إخوانهم «أهل العدل وأبناء الحمد»، وهذه سمة يتصف بها المعتزلة دون غيرهم ولكن القفطي، عدل عن ذلك الرأي. قال: «ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها، حتى وقفت على كلام لأبي حيان التوحيدي»^(٣٩). وفيه نسبهم إلى جماعة بصرية، وهذا مادعا الأستاذ أحمد أمين إلى القول إن دعوتهم انطلقت من البصرة، بفضل ماسبقها من فكر فلسفي كان للمعتزلة في ترقية العقل، ورفع مستواه في المملكة الإسلامية، وإنهم كانوا السباقين الأوائل، الذين شقوا الطريق، لمن أتى بعدهم من أمثال إخوان الصفا، وفلاسفة المسلمين»^(٤٠) وإلى ما يشبه ذلك الرأي قال المستشرق الإسباني (أسين بلا سيوس): إن الفكر الحر لدى المعتزلة ممتزجاً بالتلفيقية الشيعية، قد أنجبت بالبصرة في منتصف القرن الرابع الهجري مدرسة سياسية فلسفية، أطلق أتباعها على أنفسهم إخوان الصفا، وخلان الوفا، وقد أيده المستشرق الإنكليزي نيكلسون حينما اعتبر أن الإخوان فرعاً معتزلياً ليبرالياً^(٤١).

ولكن التدقيق في نصوص الرسائل يدعونا إلى رفض تلك الآراء، فهم يهاجمون المعتزلة وشخصيتهم الفلسفية البارزة إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م) الذي ناقش فيها الهيولى والصور والكمون والنقلة والطفرة، والجزء الذي لا يتجزأ. قال الإخوان: «واعلم أن في الناموس أقواماً يتشبهون بأهل العلم، ويتدلسون بأهل الدين لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يحققونها، ويدعون مع هذا معرفة حقائق الأشياء، ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم، التي هي أقرب الأشياء إليهم، ولا يميزون الأمور الجلية ولا يتفكرون الموجودات الظاهرة المدركة بالحواس المشهورة في العقول، ثم ينظرون في الطفرة والنقلة والجزء الذي لا يتجزأ، وماشاكلها من المسائل في الأمور المتوهمة، التي لا حقيقة لها في الهيولى وهم شاكون في الأشياء الظاهرة الجلية، ويدعون فيها المحالات بالمكابرة، في الكلام والحجاج في الجدل، مثل دعواهم أن قطر المربع مساوٍ لأحد أضلاعه، وإن النار لا تحرق، وإن شعاع

البصر جسم، يبلغ في طرفه العين إلى فلك الكواكب، وإن علم النجوم باطل، وما شاكل ذلك من الزور والبهتان. فاحذروهم يأخى فإنهم الدجالون الذلقون الألسن، العميان القلوب، الشاكون في الحقائق، الضالون عن الصواب، ويدعون مالا يعرفون، ويتكلمون فيما لا يحسنون^(٤٣). إن نقد إخوان الصفا للمعتزلة، مستمد من نقد أبي بكر الرازي لهم. وهم عند إخوان الصفا من أصحاب الآراء الفاسدة.

المذهب الإثنا عشري وإخوان الصفا:

قال القفطي: «ولما كنتم مصنفوها أسماءهم، اختلف الناس في الذي وضعها، وكل قول قالوا: بطريق الحسد والتخمين، الواضع لها اختلافاً لا يثبت لها حقيقة»^(٤٣). وقد نفى ذلك محمد بن عثمان الذهبي (المتوفي ٧٤٥هـ) قال: إن قوماً زعموا رسائل إخوان الصفا مأخوذة عن جعفر بن محمد (الصادق) (ع) وهي معمولة بعده بنحو مائتي سنة، عند ظهور دولة الباطنية الذين ملكو مصر، فأظهروا إتباع الشريعة، وأن لها باطناً مخالفاً. وباطن أمرهم الفلسفة، وعلى هذا وضعت الرسائل، وضعها جماعة قد ذكروا فيها ما استولى عليه النصارى من الشام^(٤٤).

ربما دعاهم إلى ذلك قول الإخوان: «وما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام، وأهل بيته الطاهرين وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خير الوصيين صلوات الله عليهم أجمعين»^(٤٥). ويقولون: «وما يجمعنا وإياك حرفة الأدب، والخروج من جملة العوام، وهو العماد لما نحن بسبيله ونشير إليه، وهو دين النبيين، ومذهب الربانيين والأحبار، الذين استحفظوا في كتاب الله من الأسرار المكنونة، التي لا يمسه إلا المطهرون، وهم أهل البيت، الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»^(٤٦).

إن الإخوان يقولون بهذا القول لأنهم أظهروا رسائلهم في وسط شيعة أيام الدولة البويهية، وكانوا يلّمون دائماً بنصف الحقيقة، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، وكانوا دائماً يلغزون بكلامهم إتباعاً لمبدأ التقية.

قالوا: إن من خواص إخواننا الفضلاء، أنهم العلماء بأمور الديانات، العارفون بأسرار النبوات، المتأدبون بالرياضات الفلسفية، فإذا لقيت أحداً منهم، وأنست منه رشداً، فبشره مما يسره، وذكره باستئناف دور الكشف، والإنتباه، وانجلاء الغمة عن العباد، وذكر من وثقت بهم من إخواننا، بما ألقينا إليك من علمنا، وأخرج إليهم من رسائلنا، ما ترغب نفوسهم فيه وترتاح إليه، على ذلك النظام، والترتيب كما بينا لك^(٤٧).

وقد فصلوا في مذاهب الشيعة التي كانت معاصرة لهم، وقد جعلوا التشيع مكسباً لهم مثل النائحة والقصاص، لا يعرفون من التشيع إلا التبري والشتيم، والطعن واللعنة والبكاء مع النائحة، وحب المتدينين بالتشيع، وترك طلب العلم، وتعلم القرآن والتفقه بالدين، وجعلوا شعارهم لزوم المساجد، وزيارة القبور كالنساء الشاكر، يكون على فقدان أجسادنا، وهم بالبكاء على نفوسهم أولى^(٤٨) وهؤلاء لا يدرون حقيقة ما يقرون به وصحة ما يعتقدونه.

ومنهم من يقول: «إن الإمام المنتظر مختفي من خوف المخالفين، وهؤلاء من أهل الآراء الفاسدة، والاعتقادات المؤلمة لنفوس معتقد بها، وهذا الرأي والاعتقاد يكسب صاحبه غيظاً على القاتل، وحنقاً على المقتول، حُزناً وغماً، ثم يبقى طول العمر متألماً منتظراً الهادي المختفي من خوف المخالفين. قال الإخوان: اعلم أن صاحب هذا الرأي يبقى طول عمره منتظراً خروج إمامه، متمنياً لحجته، ثم يُفني عمره، ويموت بحسرة وغصة، لا يرى إمامه، ولا يعرف شخصه، كقول دعبل الخزاعي:

ألم تر أني مذ ثلاثين حجةً أروح وأغدو دائم الحسرات^(٤٩)

كانت فرق الشيعة في أيام ظهور الرسائل عديدة، وهي متصارعة فيما بينها، رغم أنهم كلهم يقرون، أن الأنبياء خزان علم الله، وأن خلفاءهم الأئمة المهديون وارثون علم النبوات، لكنهم لا يدرون حقيقة ما يقرون، ولا تصديق ما يعتقدون. قال الإخوان: «أعذك أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه أن تكون منهم بل كن هادياً مهدياً رشيداً طيباً رقيقاً لإخوانك وأصدقائك وجيرانك، ترشد الضال، وتبرئ الأكمه والأبرص وتحيي الموتى بإذن الله^(٥٠). هذه العبارات ذات معان دالة في المذهب الحرائي فإحياء الموتى تنبيه الغافلين من رقدة الجهالة وتبصيرهم بأمور المذهب كما سنرى فيما بعد.

وكل المذاهب الشيعية بلا استثناء عندهم من أصحاب الآراء الفاسدة.

المراجع:

- ١ - أحسن التقاسيم ص ١١٥ المقدسي تحقيق غازي طليمات دمشق ١٩٨٠.
- ٢ - من كتاب الامتاع والمؤانسة ص ٢٥٤ - ٢٥٩ أبو حيان التوحيدي تحقيق إبراهيم الكيلاني دمشق.
- ٣ - المصدر السابق ص ٢٦٢.
- ٤ - المصدر السابق ص ٢٦٤.
- ٥ - المصدر السابق ص ٢٦٦.
- ٦ - المصدر السابق ص ٢٧٣.
- ٧ - المصدر السابق ص ٢٧٤.
- ٨ - المصدر السابق ص ٢٨٤.
- ٩ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢٢٧ دي بور ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة القاهرة ١٩٥٧.
- ١٠ - المقابسات ص ٤١ لأبي حيان التوحيدي تحقيق إبراهيم الكيلاني دمشق.
- ١١ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ٢ ص ١٨٣ آدم متر نقله محمد عبد الهادي أبو ريدة دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧.
- ١٢ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٨.
- ١٣ - تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٣٨ طه حسين.
- ١٤ - المقابسات ص ٢٩ - ٣٠.
- ١٥ - تلييس إبليس ص ٨٤ ابن الجوزي تحقيق خير الدين علي دار الوعي بيروت لبنان.
- ١٦ - حقيقة إخوان الصفا ص ٦ عادل العوا، دار الأهالي دمشق ١٩٩٣.
- ١٧ - حقيقة إخوان الصفا ص ٤١.
- ١٨ - رسالة الحيوان والإنسان ص ٨٣ - ٨٤.
- ١٩ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٣٥.
- ٢٠ - المصدر السابق ج ٣ ص ٤٦١.

- ٢١ - تلبس إبليس ص ٨٥.
- ٢٢ - الملل والنحل ج ٢ ص ٤٨ الشهرستاني تحقيق عبد العزيز الوكيل القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٣ - كتاب العنوان المكلل بفضائل الحكمة ص ٢٧٣ اغايوس بن قسطنطين المنبجي تحقيق لويس شيخو الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٧.
- ٢٤ - الملل والنحل ج ٢ ص ٤٩.
- ٢٥ - المصدر السابق ج ٢ ص ٤٩.
- ٢٦ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٢٤.
- ٢٧ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨١.
- ٢٨ - إخوان الصفا ص ٢٣ د. جبور عبد النور دار المعارف القاهرة ١٩٧١.
- ٢٩ - الرسالة الجامعة ج ٢ ص ١٢٦.
- ٣٠ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢.
- ٣١ - المصدر السابق ص ٥٣٦.
- ٣٢ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٣٥.
- ٣٣ - المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٢ - ٣١٣.
- ٣٤ - المنقذ من الضلال ص ٣١ الغزالي تحقيق محمد محمد جابر القاهرة.
- ٣٥ - المصدر السابق ص ٣٢.
- ٣٦ - المصدر السابق ص ٤٢.
- ٣٧ - الملل والنحل ج ١ ص ١٨٣.
- ٣٨ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢١٧.
- ٣٩ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ٨٢.
- ٤٠ - ضحى الإسلام ج ١ ص ٧٥ أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٣٦.
- ٤١ - مقدمة رسائل إخوان الصفا المطبوعة في القاهرة ص ٥ سنة ١٩٢٨.
- ٤٢ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٥٠ - ٥١.
- ٤٣ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ٨٢.

الباب الثالث

- ٤٤ - كتاب المتفتى ص ١٨٣ للذهبي نشر محب الدين الخطيب دمشق.
- ٤٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٩٥.
- ٤٦ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٩٧.
- ٤٧ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٦.
- ٤٨ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٨.
- ٤٩ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٣.
- ٥٠ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٣.

الفصل الثاني

هل الرسائل من إنتاج الفكر الإسماعيلي أم الحراني؟

منذ ظهور الرسائل في القرن التاسع عشر في بعض البلدان الأوروبية، وعلى أثر نشر المستشرق الفرنسي ستانيسلاس غويارد S. Guyard (١٨٤٦ - ١٨٨٤) مقتطفات منها تتعلق بعقائد الإسماعيلية في باريس ١٨٧٤، قال: إن هذه الرسائل تعود إلى أوائل الملحدين في الإسلام، وهي ذات طابع إسماعيلي، وربما استخدموها في أدبهم الديني والسياسي.

ترسخ هذا الرأي لدى الباحثين عرباً وأجانباً، قال المستشرق الحجري أغناطيوس جولدمان (١٨٥٠ - ١٩٢١) «إن بدء الإسماعيلية بنظرية الفيض الأفلاطونية، هي نفسها التي بنت عليها جماعة إخوان الصفا البصرية فلسفتها الدينية، في موسوعتها المصنفة واستنبطت من هذه الفلسفة أعمق نتائجها»^(١). وأكد ذلك المستشرق الفلسطيني بتدلي جوزي. قال: «إن الأفكار التي بثها دعاة الإسماعيلية، بين طبقات المسلمين، وغير المسلمين، كان من شأنها أن قلبت حياتهم رأساً على عقب، وأحدثت بينهم من التغير ما تزال آثاره باقية إلى هذا اليوم، فالفلسفة مديونة لهم برسائل إخوان الصفا، وهي أول دائرة للعلوم والمعارف، ظهرت في العالم»^(٢).

وجد هذا الرأي صدى طيباً لدى مفكري الإسماعيلية، قال الدكتور عارف تامر: «لقد سبق لي أن بينت في أكثر من دراسة كتبها عن الموضوع الذي نحن بصدد، أنه لا يمكن للباحث في رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء مهما أوتي من علم وذكاء وفهم، أن يفهم الموضوع حقاً، وأن يسلك السبيل المؤدي إلى الهدف الأسمى، والغاية المثلى، ما لم يضع نصب عينيه المصادر الإسماعيلية، التي تؤلف عنصر الموضوع، والتي هي متممة له، وذات ارتباط بفصوله وأبوابه وموضوعاته. هذه المصادر كانت مفقودة وبعيدة عن تناول أيدي العلماء، وإن ظهورها من كهف تقيتها، لم يتعد سنين عديدة، وهذا هو عذر الباحثين الذين لم يقدر لهم الإطلاع عليها، والتعمق في دراستها، ومقابلة نصوصها الفلسفية»^(٣). كان الرسائل طلسم مغلق، لامجال للكشف عن

معانيه وأسراره، إلا بعد إلمام الباحث بالفلسفة الإسماعيلية، التي صدرت عنها الرسائل. وللتدليل على صحة رأيه اتبع الباحث الكريم منهجين:

أولاً - دراسة البنية الداخلية:

قال الدكتور عارف تامر: «إن الإسماعيلية عرفت بالفرقة السبعية» لاعتمادها على العدد سبعة في تفسير مبادئ الكون. ويضرب لنا مثلاً على ذلك، أن عدد الرسائل من أجل حكمة دينية، هي عدد ركعات الأوقات الخمس (٥١) ركعة وأضافوا إليها «النية» التي لايجوز أن يقدم الإنسان على عمل شرعي دونها، والنية المتممة للصلاة تمثل الرسالة الجامعية، التي هي زبدة رسائل إخوان الصفا والمتممة لها^(٤).

سمي إخوان الصفا إحدى الفرق العلوية المغالية باسم (المسبعة) لأنهم ذهبوا إلى أن النطقاء بالشرعية سبعة، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة، ولا بد في كل شريعة من سبعة يقتدى بهم في الكشف عن الأشياء السباعية، فظهر لهم منها أشياء عجيبة شغفوا بها، وأطنبوا في ذكرها، وأغفلوا ما سوى ذلك من المعدودات. فماذا قال عنهم إخوان الصفا في بحثهم عن الموجودات على رأي الفيثاغورين. قالوا: وأما المسبغات من الأمور الموجودة، تركنا ذكرها إذ كان قوم من أهل العلم، قد شغفوا بها وأطنبوا في ذكرها، وهي معروفة في أيدي أهل العلم^(٥). ثم قالوا عنهم في موضع آخر «ولتعلم أن «المُسَبَّغَةَ» شغفوا بذكر المسبغات على غيرها، إنما كان نظرهم جزئياً، وكلامهم غير كلي، وكذلك «الكيالية» في متسعائهم. وليس هذا مذهب إخواننا الكرام أيدهم الله وإيانا بروح منه، حيث كانوا في البلاد إذ نظرهم كلي وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع ومعرفتهم شاملة»^(٦). نرى من هذا النص، أن إخوان الصفا يتبرأون من فرقة المسبعة (أي الإسماعيلية).

وهناك فرق آخر بين أصحاب الرسائل والإسماعيلية، هو مسألة «الإمامة» فالإمام كما قال الدكتور عارف تامر في كتابه «الإمامة في الإسلام». أول حد من حدود الموجودات فهو المنبعث الأول والواحد بترتيب العدد (الواحد في المذهب الأفلاطوني هو الله)، وأول خلق الله، وأول خلق ظهر تعالى، وسمي العقل، لأنه المبدع، حصر في جوهره صور المبدعات كلها، كي لا يذهب شيء منها. والعقل هو الأول في الوجود، والسابق في الوجود، كما وأنه أداة باطنة في الإنسان، فيه يصير ما يظن^(٧). وهو الصراط المستقيم. كما قال عنه الدكتور مصطفى غالب: «الإسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر، أن الأئمة من البشر، ولكنهم في التأويلات

الباطنية، يسبغون عليهم وجه الله، ويد الله، وجنب الله، وهو الذي يحاسب الناس يوم القيامة»^(٨).

إذا كان الإمام في المذهب الإسماعيلي، هو العقل الكلي، بالنسبة للموجودات، فهو ليس كذلك عند إخوان الصفا بل هو لازوم له، فسنة صاحب الشريعة تكفي لإرشاد البشر. قالوا: واعلم أن العقلاء الأخيار إذا انضاف إلى عقولهم القوة بواضع الشريعة (النبي أو الحكيم) فليس يحتاجون إلى رئيس يرأسهم، ويأمرهم، ويزجرهم، ويحكم عليهم، لأن العقل والقدوة لواضع الناموس، يقومان مقام الرئيس (الإمام)، فهل بنا أيها الأخ نقتدي بسنة الشريعة، ونجعلها إماماً لنا، فيما عزمنا عليه^(٩). فهل يعقل أن تكون الرسائل من وضع الإسماعيلية وفيها ينفون دور الإمام، لأن العقل وحده وبهديه وبسنة صاحب الشريعة لا حاجة للإمام.

قال الدكتور إحسان الهي ظهير: «لا ندري كيف يقول الإسماعيلية، أن كاتب رسائل إخوان الصفا هو الإمام الإسماعيلي أحمد بن عبد الله التقي، فكيف يخالفون رأيه إذا كان الإمام معصوم لا يخطئ عندهم؟ (وهو ينفي دور الإمام) وهذا من الأدلة على أن الإمام المذكور لم يكتب هذه الرسائل»^(١٠).

إن البناء الداخلي لرسائل إخوان الصفا. لم يُسَعَف: الدكتور عارف تامر بما يذهب إليه، فهذه الرسائل لا علاقة لها بالمذهب الإسماعيلي بتاتاً، بل المذهب الإسماعيلي اعتمدها لنصرة دعوته، بعد ظهورها وشيوعها بين أيدي الناس، وفي دكاكين الوراقين.

ثانياً - المنهج التاريخي في تحديد هوية الرسائل:

بعد ظهور الكتب الإسماعيلية من كهف تقيتها، استطاع الدكتور عارف تامر أن يحدد هوية الرسائل. قال: إن رسائل إخوان الصفا وضعت بمعرفة أحد الأئمة الإسماعيليين المستورين، أو بعض دعاة، أو حدوده الأربعة «الحرم» في عهد الخليفة المأمون (١٩٧ - ٢١٨ هـ). مستنداً إلى ما ذكره الداعية القرمطي عبدان، من أن الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ٢١٢ هـ - ٨٤٨ م) (عليه السلام)، هو مؤلف رسائل إخوان الصفا^(١١). وعن هذا الداعية نقل الفقيه اليميني شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (ت ٨٣٤ هـ - ١٤٣١ م) في رسالته الموسوعة (الموقظة). قال: «وَهَمَّ المتسمي بالمأمون (يقصد الخليفة المأمون)، أن يُرَدِّد الأمة إلى دين القول بالنجوم، حتى ظهر ولي الله، وابن رسول الله، برسائل إخوان الصفا، وفيها ماتحير به جميع العالم من العلوم في كل فن، والاستشهاد على شريعة الرسول

وهو في كهف التقية مستتر، ودعائه الباقون مفرقون لتلك الرسائل في كل شهر (مدينة) وقطر^(١٢). يذكر النص أن غاية الإمام، كان إبعاد النجوم عن معتقدات الناس، ولكنه في الرسائل يدعو إلى ديانة نجومية، مما يقول به صابغة حرّان، الذين كانوا يؤلهون الكواكب، وبها يبررون عبادة الأصنام قالوا: إن بدء عبادة الأصنام عند الأمم، أولاً كان عبادة الكواكب، وبدء عبادة الكواكب كان عبادة الملائكة، وسبب عبادة الملائكة، كان التوسل بها إلى الله تعالى، وطلب القربة إليه... ولما علموا، أن ملائكتهم هم صفوته من خلقه، وخالص عباده، تقربوا إلى الله بهم وتوسلوا إليه بهم^(١٣). هذا النص التاريخي غير صالح لإثبات هوية الرسائل للإمام التقي.

وأما النص الثالث فهو للمؤرخ اليمني إدريس عماد الدين (ت ٨٧٢ هـ - ١٤٦٦ م): في كتابه عيون الأخبار (ص ٢٢٩). قال: وقام الإمام التقي أحمد بن عبد الله بأمر الإمامة وبث دعائه في الآفاق من سلمية، وحين ظهر المأمون العباسي ووهم وسعى في تبديل شريعة محمد وتغييرها، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم اليونانيين، فخشى الإمام أن يميل الناس إلى مازخرف المأمون عن شريعة جده «ألف رسائل لإخوان الصفا». لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة. إذا كانت غاية الإمام هي إبعاد الناس عن الفلسفة اليونانية جزاء الله خيراً وألف الرسائل كما ذكر لتلك الغاية، فالإخوان يقولون: وأما أولئك الحكماء، الذين كانوا يتكلمون في علم النفس قبل نزول القرآن الكريم، والإنجيل، والتوراة، فإنهم لما بحثوا عن علم النفس، بقرائح قلوبهم، واستخرجوا معرفة جوهرها بنتائج عقولهم، ودعاهم ذلك إلى تصنيف الكتب الفلسفية، التي تقدم ذكرها في أول هذه الرسالة (فيثاغورس، ونيقوماخوس) ونقلها من لغة إلى أخرى، من لم يكن فهم معانيها، ولا عرف أغراض مؤلفيها، انغلق على الناظرين في تلك الكتب، فهم معانيها، وأقصى أغراض واضعيها وأردنا بأوجز ما يمكن من الاختصار في (٥٢) رسالة، أولاً هذه الرسالة (رسالة العدد)، ثم يتلوها أخواتها على الولاء، كترتيب العدد، تجدها إن شاء الله^(١٤). إذن كانت غاية واضعي الرسائل هي تقريب الفلسفة اليونانية إلى أذهان الناس بعد أن انغلق معانيها في الكتب المتداولة بين أيديهم. وهذا يعني أن الداعية والمؤرخ إدريس عماد الدين، لم يطلع على الرسائل، وإنما نقل عما سبقه دون معرفة بما يكتب عنه.

النص الرابع للمؤرخ نور الدين أحمد (ت ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م): من مصياف، وهذا المؤلف لم يكن أفضل حظاً مما سبقه، وإنما أضاف أربعة مؤلفين إلى الإمام. قال: إن محمد التقي بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر لما علم بما آلت إليه الشريعة

الباب الثالث

في عهد العباسيين، من الإنحطاط والضعف شرع بتأليف كتاب رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا مع دعائهم الأربعة، وهم أمناء سره، وأعضاء مجلسه الأعلى، الذين يعيشون بالكتمان الشديد، والسرية التامة، وهم: عبد الله بن حمدان وعبد الله بن ميمون، وعبد الله بن مبارك، وعبد الله بن سعيد، اجتمع هؤلاء الأربعة مع غيرهم، ووضعوا رسائل طويلة في شتى العلوم، والفنون عددها (٥٢) رسالة^(١٥). ما الذي أضافه هذا النص إلى معلوماتنا؟ إنه يؤكد النصوص السابقة التي تنقل عن بعضها وهي في الحقيقة نص واحد لا يعكس أي واقع تاريخي، فقولهم: إن واضع الرسائل هو الإمام أحمد بن عبد الله أو ولده محمد لا يغير في واقع الأمر شيئاً. طالما أن الزمن هو عصر الخليفة المأمون.

ولكن المستشرق الهولندي دي بور، رغم اعتباره أن إخوان الصفا جماعة سياسية دينية إسماعيلية متطرفة، وجدت بعد عام ٢٧٣ هـ (٨٨٧)، لورود اسم أبي معشر الفلكي فيها وهو متوفي بعد عصر المأمون^(١٦). وفي دراسته المتميزة قال لويس ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢): إن إخوان الصفا يعتنقون تقليداً فلسفياً، يمزج مزجاً صحيحاً بين الأفلاطونية الحديثة، بالفيثاغورية الحديثة، كما حدد تاريخ هذه الرسائل قبل عام (٣١٧ هـ - ٩٢٩ م)، وهي سنة وفاة محمد بن جابر بن سنان البتاني، مادام تعريف الجيب في المثلثات الذي يستخدمه إخوان الصفا، لم يصبح بعد تعريفاً للمدرسة الرياضية، التي أسسها هذا العالم في مدينة الرقة^(١٧).

وأضيف مؤكداً إلى مقالته لويس ماسينيون إن قياس حركة الأوج، والمقدرة بدرجة واحدة، لكل مائة سنة، وهو نفس المقدار الذي حدده بطليموس في كتاب المجسطي، بينما حددها البتاني في زيج الصابي سنة (٢٩٩ هـ - ٩١٢ م) بدرجة واحدة لكل ٦٦ سنة شمسية^(١٨).

وبينما اعتبرهم المستشرق الإنكليزي برنارد لويس «جماعة سرية نهضت في القرن الخامس الهجري بنشاط كبير لنشر التعليم الفلسفي بين الجماهير، دون أن يحدد هويتهم الإسلامية. قال الدكتور مصطفى غالب إنها من وضع الإمام أحمد بن عبد الله في سلمية عام (٢٠٩ هـ - ٨٢٥) يؤازره أربعة من دعامة، عاد ليقول إنها وضع عشرة أشخاص ليس فيهم الإمام قال هنري كوربان إن الرسالة الجامعة فقط من وضع الأئمة المستورين^(١٩). وقال سيد حسين نصر: إن الإخوان يرتبطون بالإسماعيلية بصورة هشة^(٢٠).

صدر كتاب الأستاذ خير الدين سعيد باسم النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا. قال فيه: «وعندي أن الرسائل بعد تطور الحركة السياسية الإسماعيلية، بحيث أن وجودها، أصبح له تأثيراً، مما دعا (إخوان الصفا)، أن يذيعوا رسائلهم بين الناس، في مستهل القرن الرابع الهجري، ودليله على ذلك، ما ذكره ظهير الدين البيهقي عن ابن سينا، أنه كان يتأمل مع أبيه رسائل إخوان الصفا، وهو ابن عشر سنين (أي حوالي ٣٨٠ هـ - ٩٩١ م)^(٢١). ثم أورد دليلاً آخر ربط به بين الإسماعيلية وإخوان الصفا من خلال الرسائل:

- ١ - كلاهما أشار إلى أن الأئمة هم خلفاء الأنبياء.
 - ٢ - وهاجموا فرق الشيعة الغلاة الخمسة.
 - ٣ - وهاجموا الإثني عشرية، من خلال مهاجمتهم للإمام المختفي.
 - ٤ - وهاجموا الزيدية، لإقرارهم بوجود إمامين في وقت واحد.
 - ٥ - واعتمد على ملاحظة الدكتور محمد فريد حجاب «أنه لم يبق من فرق الشيعة الرئيسية سوى فرقة الإسماعيلية، التي ترى أن عقائدها ونظرياتها الفلسفية، خصوصاً فيما يتعلق بالإمامة لا تمثل سوى الامتداد الطبيعي لفلسفة إخوان الصفا»^(٢٢).
- إن الأدلة السابقة يمكن اختزالها بدليلين هما:
- إن إخوان الصفا هاجموا المذاهب الشيعية، ماعدا المذهب الإسماعيلي.
 - تطابق رأي إخوان الصفا والإسماعيلية حول الإمام.
- وهذان الدليلان قد بنيت خلال ردّي على الدكتور عارف تامر فسادهما:
- هاجم إخوان الصفا مذهب المسبقة الذين قال عنهم الأستاذ خير الدين سعيد: «قالت الإسماعيلية، إن الأئمة، تدور أحكامهم على سبعة سبعة كأيام الأسبوع، والسموات السبع، والكواكب السبع، وعلى هذا وقعت عليهم الشبهة بالسبعة»^(٢٣).
 - وعنهم تبرأ إخوان الصفا الذين اعتبروا المسبقة «نظرهم جزئي وكلامهم غير كلي بينما كلام إخوان الصفا ونظرهم كلي وبحثهم عمومي، وعلمهم جامع، ومعرفته شاملة»^(٢٤). وليس هذا هو مذهب إخواننا الكرام، أيدهم الله وإيانا بروح منه.
 - وأما بالنسبة للإمام، فهو غير ضروري عند إخوان الصفا لأن الإمامة هي السبب في تقاتل الناس، وقيام الفتن والحروب، والعقلاء والأخيار لا يحتاجون إلى رئيس

يرأسهم، لأن العقل والقدوة لواضع الناموس (أي الشريعة)، يقومان مقام الرئيس الإمام، فهلهم بنا أيها الأخ نقتدي بسنة الشريعة، ونجعلها إماماً لنا فيما عزمنا عليه»^(٢٥). فالإمامة ليست امتداداً طبيعياً لفلسفة إخوان الصفا، كما قال الدكتور محمد فريد حجاب، ووافقه الأستاذ خير الدين سعيد. بل الإمامة هي من أسباب شقاء الناس. كما قال أبو بكر زكريا الرازي: «كان الأنبياء والأئمة ممخرقين موهين على الناس، والعقل يكفي الإنسان في سيرته العادلة».

وبما أورده الأستاذ خير الدين سعيد وفيه ملاحظة جديرة بالاعتبار قوله: «إن إخوان الصفا قد اطلعوا على بواكير الفلسفة اليونانية، أي أنهم قرؤوها مترجمة، وهذا الإشكال يعيدنا إلى تاريخ تطور الترجمة والعقل ونقل العلوم»^(٢٦). إن كتابات إخوان الصفا هي الكتب التي ترجمها ثابت بن قرة الحراني لفيثاغورس، وكتاب العدد لنيقوماخوس الجهراسيني (الأعداد المتحابية)، وكتب أرسطو المنطقية وكتاب أفلاطون في النفس، وحكم هرمس الحكيم، وكتاب المجسطي، وغيرها من الكتب والرسائل، التي شملت كل حقول المعرفة في زمنه. ولم يكن غرضهم سياسياً، بل علمياً محضاً، وهم القائلون برسائلهم: واعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه، بأن غرض الفلاسفة، والحكماء من النظر في العلوم، وتخريجهم تلامذتهم بها، إنما هو السلوك، والنظر منها إلى علوم الطبيعة، وأما غرضهم من النظر في الطبيعيات فهو الصعود منها والترقي إلى العلوم الإلهية، التي هي أقصى غرض الحكماء، والنهاية التي إليها يرتقي بالمعارف الحقيقية»^(٢٧).

توصلنا إلى أنه لاصحة للرأي القائل أن رسائل إخوان الصفا، من صنع الإمام أحمد بن عبد الله التقي، التي جعلها سبيلاً لترويج دعوته. وأن أول الدعاة الذين نشروا الدعوة عن طريق الكتابة، هو الداعية محمد بن أحمد النسفي، الذي عاش في بلاط نصر بن أحمد الساماني، ثم أعدم في بخارى سنة (٣٣١ هـ - ٩٤٣ م). قال عنه صموئيل شتيرن (١٩٢٠ - ١٩٦٨): إنه مؤسس الفلسفة الإسماعيلية بإدخاله الفكر الأفلاطوني المحدث في كتابه (المحصول). عرض فيه الأدوار النبوية السبعة، في التاريخ الإنساني. بدءاً بآدم، بالنبي (محمد «ص») ووصف الله سبحانه بالوصف الأفلاطوني المحدث «منزه بشكل مطلق، وخارج حدود الفهم والصفات، وغير قابل للمعرفة بأي وجه، والله هو الواحد وهو المبدع الأول للعقل والعقل أزلي ساكن وتام في حالتي القوة والفعل كليهما، والله مصدر كل نور. وعن العقل صدرت بطريق الفيض النفس الكلية، وهي بالتالي غير تامة، ونقص النفس يعبر عنه بالحركة بينما السكون يعبر عن

الكمال^(٢٨) والزمان هو مقياس الحركة الناجمة عن نشاط النفس وإن نقص النفس هو الذي أدى إلى هبوطها، وعنها صدرت الأفلاك السبعة والطبيعة، وعنها ظهر الإنسان ذو النفس الناطقة والخلاص الإنساني يتم عن طريق المعرفة الصحيحة المتأتبة عن القائم الناطق^(٢٩). هذه النظرية الهرمسية من أين حصل عليها النسفي؟ إنه حصل على هذه المعارف من دروس ثابت بن قرة الحراني أو عن أبي بكر الرازي، الذي كان يعلم في بادئ أمره الفلسفة الأولى. قال هنري كوربان «إن الصابغة من أهل الحران، كانوا ينسبون حكمتهم إلى هرمس المثلث الحكمة، وعاذيون» وقد ترجم ثابت بن قرة الحراني كتاباً بعنوان «أنظمة هرمس» وليس من العجب أن يكون الشيعة أول من تهرمس في الإسلام^(٣٠).

إن الداعية النسفي أول داعية إسماعيلي أظهر الفكر الأفلاطوني المحدث، فقتل متهماً بالإلحاد، وشاعت أفكاره باسم الدعوة العلوية، فيما وراء النهر، وكادوا يختلطون بالفكر الفيشاغوري المحدث، ولكن إخوان الصفا سارعوا للتبرأ منهم، فقالوا: ومن الناس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم، وهم براء من نفوسهم، ويسمون أنفسهم العلوية، وماهم من العلويين، ولكنهم من أسفل السافلين، لا يعرفون من أمرنا إلا بنسبة الأجسام، ولا يعرفون من القرآن إلا اسمه، ولا من الإسلام إلا رسمه، لا علماً يتعلمون ولا فقهاً يدرون، ولا صلاة يقيمون، ولا زكاة يؤدّون، ولا البيت يحجون، ولا جهاداً يعرفون، ولا حراماً يجتنبون، ولا عن منكر ينهون، وكل قبيح يركبون، ولا يتوبون، ولا هم يذكرون ومن شيعتنا ينفرون، فهم أبعد الناس من أهل ملتنا^(٣١).

هاجم الداعية الإسماعيلي أبو حاتم الرازي كتاب النسفي المحصول بكتاب سماه (كتاب الإصلاح). فرد عليه أبو يعقوب السجستاني، نصرة لمعلمه بكتاب سماه (النصرة)، للدفاع عن آرائه الإلحادية. ومنذ مطلع القرن الرابع الهجري، بدأ الإسماعيليون يظهرون تعاليمهم الأفلاطونية الحديثة. مما دفع الأستاذ حسين مروّة للقول: «إذا رجعنا إلى الرسائل نفسها لنبحث في مضمونها وجدنا علاقة واضحة بين المبادئ الفلسفية التي تأسست عليها جماعة إخوان الصفا وأصول التنظيم لدى الجماعة، وبين مبادئ الإسماعيلية، وأصولهم التنظيمية، ولنا مجالاً للقول بأن هذه العلاقة، لا تبلغ درجة التماثل الكامل، بحيث لا يصبح النظر إلى الجماعة كأنها تنظيم إسماعيلي صرف، فقد كان للإسماعيلية سبق وجود على إخوان الصفا بزم طويل^(٣٢).

أما الدكتور عمر فروخ فلم ينسب إخوان الصفا إلى أي مذهب ديني، واعتبرهم قد أخذوا من كافة الأديان والمذاهب^(٣٣).

رأي الدكتور جبور عبد النور في إخوان الصفا:

كتبت دراسات كثيرة حول إخوان الصفا ومن بين تلك الدراسات، دراسة لطيفة ومتأنية للدكتور جبور عبد النور. أعطي في دراسته عدة آراء حول هذه الجماعة الخيرية: - جمعية سرية متطرفة: قال «كان الناقمون يتسترون بالتشيع، فيمزجون آراءهم الدينية بنظريات فلسفية وعقائد الأديان القديمة، ويخرجون من هذا المزيج بتعاليم جديدة، يثونها في البيئات الإسلامية، وينظمون أتباعهم تنظيمًا دقيقًا، ويوزعونهم حلقات، بحيث يتيسر تدريبهم، والإتصال بهم عند الحاجة».

ومن أشهر الجماعات السرية آنذاك جمعية إخوان الصفا^(٣٤). ثم أضاف «التي هي تصويب للدعوة العلوية، ومسعى جدي لإقامة نظام سياسي جديد»^(٣٥) قائم على عقيدة تضم تعاليم شتى، لأن «إخوان الصفا علويون باطنيون، وإسماعيليون، ومعتزلة وفيثاغوريون، وأفلوطينيون، ومجوس، لأن لكل هذه النزعات أثرًا بارزاً في هذه الرسائل وهم في الواقع ليسوا شيئاً معيناً، بل هم كل شيء»^(٣٦). من تلك النصوص لانستطيع تحديد هوية إخوان الصفا.

- جمعية ينطقون بحرفية مايعتقده الصابئة الحرائية: ثم قال عن إخوان الصفا أيضاً: «ونحن واجدون في نصوصهم فقرات كثيرة، ولكنها موهمة، تشيز إلى أن في قرارة نفوسهم، ميلاً إلى الوثنية، غير أن هذه الوثنية، غامضة الملامح، ليست بالأغريقية الخالصة، ولا بالبابلية، والآشورية، وليست مزدكية، ولا مانوية، وإنما هي خليط من جميع هذه العناصر، معدلة هنا مخففة هناك، مكثفة هنالك، بحيث يضيق الدارس في تعداد الأصداء واختلاف الأهواء»^(٣٧). وبما لاشك فيه أن هذه الآراء قد وردت في نصوصهم غامضة مضطربة، طلباً للتمويه والتقية، أو نتيجة لما دخلها من عناصر غريبة، بعضها مجوس وبعضها الآخر، من صنع الغلاة في الإسلام^(٣٨). ومن تلك النصوص: نجد الدكتور جبور عبد النور لازال محتاراً.

وفجأة يغير الدكتور جبور عبد النور رأيه قائلاً: «وبعد أن كان قولهم في تأثير النجوم والسيارات على شيء من الغموض في الرسائل العامة، اتضح بعض الشيء في الرسالة الجامعة فإذا بهم يكادون ينطقون، بحرفية مايعتقده الصابئة الحرائية»^(٣٩). ولكن إن إخوان الصفا منذ الرسالة الأولى قالوا: إن اعتقادهم هو اعتقاد الفيثاغورية. قالوا:

وهذا الغرض الأقصى من النظر في العلوم الرياضية، التي كان يخرجون بها أولاد الحكماء، وتلامذة القدماء هكذا مذهب إخواننا الكرام وفقك الله وإيانا إلى سبيل الرشاد، وإنه رؤوف في العباد»^(٤١).

منذ الصفحات الأولى أعلن إخوان الصفا، أن غايتهم تقديم الفلسفة اليونانية بأوجز ما يمكن من الاختصار في (٥٢) رسالة، أولاها رسالة العدد، المتضمنة تعاليم فيثاغورس^(٤١).

هل إخوان الصفا هم صابئة حران؟

قال الفيلسوف أميل برهيه (١٨٧٨ - ١٩٥٣) لا يكفي البتة في تبيان حقيقة أي فلسفة ذكر المذاهب التي تقول بها وحسب، بل الأمر الأكثر أهمية هو فحص الروح الحقيقية التي تدعم بها هذه الفلسفة «مذاهبها الخاصة». وذلك بدراسة النظام الفكري الذي تنتمي إليه تلك الفلسفة^(٤٢). بناء على هذه الرؤية، درس الدكتور عادل العوا تلك المذاهب الخاصة فتوصل إلى النتيجة التالية: «كان النظام الذي تنتمي إليه هذه الرسائل هو الدين الإسلامي». لأنه استدرك على الباحثين، الذين سبقوه، بأن استخلص نقص المعلومات التاريخية عن الإخوان من التعمق بدراسة نصوص رسائلهم، التي وضعوها لتحمل نداءهم العاجل الملح إلى الشباب من جميع الأوساط، ومختلف الفرق من كل الديانات، للانطواء تحت رايتهم لبلوغ هدفهم الأسمى^(٤٣). والهدف الأسمى هو ما أشار إليه الدكتور طه حسين في مقدمته للرسائل المطبوعة في القاهرة ١٩٢٨. قال: «إن قوام جماعتهم فيما يظهر سياسي وعقلي فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر، على العالم الإسلامي، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام الفعلي المسيطر على حياة المسلمين، بإقامة فلسفة جديدة، تستطيع أن تشيد فوق دعائم جديدة الحياة العقلية، والحياة العملية للأفراد والمجتمع على قدر سواء»^(٤٤).

وأفترض من جانبي أن إخوان الصفا حاولوا برسائلهم صياغة الإنسان، والعالم صياغة جديدة، من خلال خلق إنسان نموذجي متميز بالمعرفة الفلسفية، متمثلة بما ورد في السيرة العادلة لسقراط الحكيم، وليس بصورة الإنسان الكامل التي تخيلها الصوفية للنبي محمد (ص). قالوا في رسائلهم: «فهل لك يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، أن تقتدي (بالفلاسفة الحكماء المتألهين) وبسنتهم وتسلك مسلكهم وتقصد مقصدهم، وتبادر قبل الفوات في فكك نفسك من أسر الطبيعة المحرقة، والغرور بالذات الجرمانية، في جوار الشيطان. وتعمل كما يعمل الناس النجباء، بأن تصحب، إخوان لك

الباب الثالث

نصحاء، وأصدقاء كرماء، تسمع أقاويلهم، وتفهم كلامهم بحضورك مجالسهم، وتنظر في كتبهم، لتعرف إعتقادهم، وتتخلق بأخلاقهم، وتتعلم علومهم، وتسير بسيرتهم العادلة، وتتفقه في شريعتهم العقلية، لتحيا كحياتهم الملكية، وتعيش عيشة السعداء مخلداً أبداً^(٤٥). ومما يدل على أن الفلاسفة الحكماء المتألهين كانوا يرون هذا الرأي ويعتقدونه، تسليم سقراط جسده للتلف بتناوله شربة السم اختياراً منه. وذلك أن هذا الرجل كان حكيماً من حكماء اليونان وفلاسفتها، وكان قد أظهر الزهد في الدنيا ورغب في سرور عالم الأرواح^(٤٦). كما كان أفلاطون حكيم اليونان، يرى هذا الرأي ويعتقده، وهو القائل لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخير، لكانت الدنيا فرصة الأشرار^(٤٧). ومثلها كان فيثاغورس صاحب العدد، وهو من الفضلاء الحكماء، كان يرى هذا الرأي ويعتقده. قال في رسالته الذهبية في وصيته لديوجانس: «إذا فارقت هذا البدن، فإنك عند ذلك تصير نحلاً في الجو سائحاً سالماً ساكناً غير عائد إلى الأنسبة ولا قابل للموت»^(٤٨) في هذا الاعتقاد، تلمح دعوة صابغة حران بالتناسخ واتباع أنبيائهم المذكورين في الرسائل. وهكذا لم تستطع الرسائل بكل وسائل الترميز الكلامي أن تتخلص من تصوراتها الوثنية القديمة.

حددت الرسائل طريق الخلاص للإنسان بالتشبه بالباري تعالى، وبحكمتهم المنقوشة على مدقة باب مجمعهم السري في حران «من عرف ذاته تأله». لم يكن غرضهم سياسياً كما تصور بعض الباحثين الكرام، وتصورهم البعض جماعة ثورية، لها أهداف انقلابية، وقد نظموا من أجل ذلك جماعتهم بشكل خلايا سرية، إن هذه التصورات الوهمية ينقضها إخوان الصفا بقولهم: غرض الحكماء في وضع السياسات ليس هو إصلاح أمور الدنيا فحسب بل غرضهم جميعاً في ذلك إصلاح الدين والدنيا جميعاً، فغرضهم الأقصى هو نجاة النفوس من محق الدنيا، وشقاوة أهلها، وإيصالها إلى سعادة الآخرة، ونعيم أهلها^(٤٩).

وهذا الأمر، هو الذي دعا إخوان الصفا إلى تدوين رسائلهم لخلق حكماء أختيار، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد، ويعقدون بينهم عقداً، وميثاقاً، ولا يتقاعدون عن نصره بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم، فيما يقصدون من نصره الدين، وطلب الآخرة، لا يتغون سوى وجه الله ورضوانه^(٥٠).

ما هي أدواتهم المعرفية؟ إنها كتب الحكمة القديمة، التي ترجمت، وشاعت بين الناس، ولكن أساء الناس تفسيرها، لأنها استخدمت في كتب الفقه، وبين علماء

الكلام، لذلك لابد من إعادة قراءة هذه الكتب قراءة جديدة، لتواكب تطور مجتمع تغيرت فيه الحياة الاجتماعية، وكذلك الأفكار، فلا بد من تفسير جديد. قال الإخوان: «وقد تكلم في هذه الأشياء من قبلنا من الحكماء الأولين، ودونوها في الكتب، وهي موجودة في أيدي الناس، ولكن من أجل أنهم طولوا فيها الخطب، ونقلوها من لغة إلى لغة، أغلق على الناظرين في تلك الكتب فهم معانيها، وضاعت في الباحثين معرفة حقائقها، من أجل هذا عملنا هذه الرسائل، لكيما يقرب على المتعلمين فهمها، ويسهل على المتبدئين النظر فيها»^(٥١).

كانت هذه الرسائل بمثابة الكتب المقدسة عند أصحاب الديانات، يقرؤونها في مجالسهم السرية بحضور معلمهم الذين يفسرونها لهم مبينين أغراضها، ومراميها، وأكثر قصدهم وعنايتهم البحث عن العلوم الإلهية، التي هي غرضهم الأقصى^(٥٢). هذه الكتب يطلقون عليها الكتب الإلهية لايمسها إلا المطهرون، والتي هي بأيدي كرام بررة، لأنها خلاصة الفكر الفيثاغوري الحديث.

قالوا عنها: هي جواهر النفوس، وأجناسها، وأنواعها، وتصاريفها للأجسام، وتحريكها لها، وتديرها إياها حالاً بعد حال في مرور الزمان، وأوقات القرانات، والأدوار، وانحطاط بعضها تارة إلى قعر الأجسام وارتفاع بعضها تارة من ظلمات الجثمان، وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان، وحشرها إلى الحشر والميزان، وجوازها على الصراط، ووصولها إلى الجنان أو حبسها في دركات الهاوية، والنيران، أو مكوثها في البرزخ، أو وقوفها على الأعراف. وهذا حال إخواننا الفضلاء الكرام، فاقتدوا بهم أيها الإخوان، تكونوا مثلهم»^(٥٣).

إن كل أصحاب الديانات، هم ذوو اعتقادات فاسدة، ماعدا النحلة الفيثاغورية، التي تميز أهلها بالحكمة، لإعتقادهم أن طبيعة الموجودات بحسب طبيعة العدد، وهؤلاء هم إخواننا وماذا إلا لأن فيثاغورس، كان رجلاً حكيماً موحداً من أهل حران»^(٥٤).

طبعاً لم يكن فيثاغورس من أهل حران، وإنما هو من جزيرة ساموس على الساحل الغربي لآسيا الصغرى. ولكنه كان نبي أهل حران، فجعلوه منهم، وقد أطلق عليهم المسعودي حكماً صائباً بقوله «وكانوا يذهبون مذهب فيثاغورس، وهؤلاء هم حشوية الفلاسفة وأعوام اليونان والفلاسفة حكماؤهم»^(٥٥). وقال عنهم الغزالي: «وحاصل علمهم شيء ركيك من فلسفة فيثاغورس المحكي في كتاب إخوان الصفا، وهو على التحقيق حشو الفلسفة»^(٥٦).

عندما رأى صابئة حران تداعي مجتمعهم وتلاشيهِ، وإسلام معظمهم بعد وفاة ثابت بن قرة الحراني. سنة (٢٨٨ هـ - ٩٠١ م) أدخلوا موروّثهم الوثني بصورة إسلامية مكيفّة، مستفيدين من التجربة المانوية المريعة التي قام بها عبد الله بن المقفع، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، اللذين قتلًا لأنهم أبقوا تعاليم مانوي على حالها، وحكم على تجرّبتهم بالفشل، أما صابئة حران كما لاحظ لويس ماسينيون «أرادوا ضمان بقائهم داخل المجتمع الإسلامي، فلبجأوا إلى حيلة، أصبحت اليوم معروفة»^(٥٧). ولكن الغزالي منذ مطلع القرن السادس الهجري، حذر من تعاليمهم، لأنهم مزجوا بكلامهم الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ليسارع من يستمعها إلى قبول باطلهم، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم، لما فيها من الغدر والخطر، كما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالت الشطوط»^(٥٨). ولكنهم مع ذلك، استطاعوا التموه على كثير من الناس لاستشهادهم بالآيات الكريمة، والأحاديث المنسوبة إلى الرسول الكريم لاستدراج قلوب الحمقى»^(٥٩).

كان إخوان الصفا يتبرأون إلى الله من كل الملل والشرائع المعروفة، ماعدا الديانة الحرانية (الفيثاغورية) قالوا: إن الديانات من سامري، وعناني، وجالوتي (كل مذاهب اليهود). ونسطوري، ويعقوبي، وملكاني (كل مذاهب المسيحية) وثنوي، مانوي، وديصاني (كل المذاهب الثنوية) وخرمي ومزدكي وبهرمي وشمسي (كل المذاهب المجوسية) وخارجي ورافضي وناجي وقدري وجهمي (كل مذاهب الإسلام) كل مشاكل هذه المذاهب. يكفر أهلها بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم الآخر، ويقتل بعضهم بعضاً. ونحن من كلها براء»^(٦٠). ماعدا القائلين بأن الوجود حسب طبيعة العدد وهؤلاء هم إخواننا أيدهم الله.

كانت رسائل إخوان الصفا دعوة لديانة نجمية، واضحة، لاتخفى عن كل ذي نظرة وبصيرة، وكانت موسوعة لتعاليم وطقوس، وأعياد صابئة حران، ومن خلال الرسائل يمكن تاريخ هذه النحلة التي تلاشت واختفت منذ القرن الخامس الهجري، ولكن أثرهم الفكري لازال سارياً بيننا حتى اليوم.

قال الأخوان: ونقول عمن نقلت إلينا أخبارهم، وبلغنا آثارهم اليونانيين وهؤلاء عندنا أسماء مختلفة فمنها (الصابئون والحرانيون والحنوفون)، وكانوا قد أخذوا أصول علومهم عن السريانيين، وعن المصريين على حسب نقل الضائع والعلوم في البلدان، بما يحدث لها من السياسات والأديان وقد كان من رؤسائهم وأوائلهم أربعة (عاذيرون

وهرمس وواليس واراطس) ثم تفرقت جيوشهم إلى الفيشاغورية، والأفلاطونية، والأبيقورية»^(٦١).

وفي مآدبة (صاحب العزيمية) للحيوان والإنسان. قالوا: نظر الملك، فرأى رجلاً أشقرأ على رأسه مشددة قائماً في الملعب بين يديه آلات رصد. فقال الملك: من هو ذاك؟ فقيل له: رجل من أهل الروم من بلاد اليونان.. اقال: ليتكلم. فقال اليوناني: - الحمد لله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الدائم السرمد، كان قبل الهيولى ذات الصور والأبعاد، كالواحد قبل الأعداد والأزواج والأفراد، الذي تفضل وتفكر وأفاض من وجوده العقل الفعّال الذي هو معدن العلوم والأسرار، والذي نتج من نوره العقل، وانجس من جوهر النفس الكلية الفلكية، ذات القوة والحركات، وعين الحياة، والبركات، وأظهر من قوة النفس (عنصر الأكوان). ذات الهيولى والمكان.

- والحمد لله خالق الأجسام ذوات المقادير والأبعاد، والأماكن والأزمان، وركب الأفلاك والكواكب السيارات، وأوكل بدورانها النفوس والأرواح، والملائكة ذوات الصور، والأشباح، ذوات النطق والأفكار والحركات الدرية والأشكال الكريمة، وجعلها مصابيح الدجى ومشرق الأنوار في الآفاق.

- والحمد لله مرتب الأركان، ذوات الكيان، وجعلها مسكن النبات والحيوان، وخص بلادنا بكثرة الريف، وجعلنا ملوكاً بالخصال الفاضلة والسيرة العادلة، ورجحان العقول، ودقة التمييز وكثرة العلوم والصنائع العجيبة، وعلم النجوم وتركيب الأفلاك، ومعرفة منافع الحيوان والنبات، وعلم الرياضيات والمنطقيات، والطبيعات والإلهيات.

فقال صاحب العزيمية للرجل اليوناني: من أين لكم هذه العلوم والحكم، التي ذكرتها، واقتخرت بها لولا أنكم أخذتم بعضها من علماء بني إسرائيل أيام بطليموس الملك، وبعضها من حكماء مصر أيام ثامسطيوس (شارح كتب أرسطو)، فنقلتموها إلى بلادكم، ونسبتموها إلى نفوسكم..

فقال اليوناني: إنا أخذنا من سائر الأمم، كما أخذوا أكثر علومهم منا. إذ علوم الناس بعضهم من بعض، من أين كان لبني إسرائيل علم الحيل (الميكانيك) والسحر والعزائم، واستخراج المقادير، لولا أن سليمان بن داود، أخذها من خزائن ملوك سائر الأمم، لما غلب عليهم، ونقلها إلى لغة العبرانيين، وبلاد الشام (اللغة الآرامية) وإلى بلاد مملكة فلسطين»^(٦٢).

الباب الثالث

من النص السابق تلاحظ عرضهم لمذهب أفلوطين في التوحيد، أو ما يعرف بنظرية الفيض الإلهي. التي تعتبر العقيدة المحورية لرسائل إخوان الصفا. قال كارل هنريش بكر: «إن رسائل إخوان الصفا، لا يزال أفلوطين يحيا فيها، وبدونه لاستطيع فهم التاريخ الروحي للإسلام، وعلى وجه العموم، أصبحت رسائل إخوان الصفا فلسفة شعبية شائعة، في طبقة محدودة من المثقفين يدعمهم تيار شعبي عبارة عن طائفة من السحر والتنجيم، وضرب الرمل والرؤيا والأعداد المتحابة، وفوائد الحب هذه التصورات النظرية، والتي قالت عنها العامة هذه شرعها الله للناس»^(٦٣).

هذه الديانة الشعبية كانت ديانة أهل حران السرية، أظهروها تحت مبدأ التقية، الذي خلق أشكال من المذاهب عند الإسلام كالْمذهب الإِشراقِي الصوفي عند شهاب الدين السهروردي ومذهب التوحيد الباطني عند العلويين وعند الدروز، وظلت صورة الكون كما رسمها فيثاغورس وبطليموس، والمنطق كما وصفه أرسطو، وطوّره فورفوريوس الصوري، ومواضيع الفلسفة هي نفس المواضيع التي طرحها أفلاطون وأفلوطين وبرقلس، وظلت السيادة في الطب لأبقراط وجالينوس، وكل هذه الكتب، ترجمها، وشرحها، واختصرها ثابت بن قرة الحراني، ثم نقلتها رسائل إخوان الصفا.

كان ثابت بن قرة رجلاً صديقاً عند أهل حران وهو أول من نقل علومهم السرية إلى الملأ، فكان سبب شهرتهم في الدولة العربية وإلا فاذكروا لنا قبله عالماً أو فيلسوفاً واحداً اللهم إلا (بابا الحراني) الذي عده ابن الصليبي نبي حران.

إن علوم أهل حران، هي التي وصفها إخوان الصفا بأنها من إنتاج «الحكماء الفلاسفة البالغون في المعارف الربانية، الناظرون في العلوم الإلهية، المؤيدون من السماء بتأييد الله، والهامه لهم»^(٦٤).

لاحظ المستشرق الهولندي دي بور «أن مدينة حران لم تزدهر إلا بعد الفتح العربي، واتصلت وثنية الساميين القديمة بالأبحاث الرياضية الفلكية، وبنظريات المذهبين الفيثاغوري والأفلاطونية المحدثة»^(٦٥). وهم الذين أدخلوا التفسير المجازي (التأويل) للقرآن الكريم طبقاً لقواعد مدرسة الاسكندرية، وبذلك يردون حكمتهم السرية إلى أنبياء وردت أسماؤهم في التوراة والقرآن ولكن وراءها في الحقيقة أشخاص الفلاسفة الوثنيين»^(٦٦). فالصيام عندهم حفظ أسرار الجماعة، والحج سياحة في الأرض طلباً للعلم»^(٦٧).

كانت لدى صابئة حران، أسرار ورموز، يخاطبون بها أتباعهم، هي ذات المصطلحات التي وردت في رسائل إخوان الصفا، وهي لاتفهم إلا طبقاً، لتعاليم الفلسفة الفيتاغورية. قال إخوان الصفا: فافهم يأخى هذه الإشارات والتنبيهات، وقس على ذلك ونظائرها ولا تفشي الأسرار، لعلك تتنبه من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، قبل أن ينفخ في الصور، وقبل أن ينادي منادٍ للصلاة من يوم الجمعة، وقبل أن يحشر المجرمون إلى جهنم ورداً^(٦٨).

ومن تلك الأسرار قولهم: نرى أيها الأخ البار، أيدك الله، وإيانا بروح منه، إنه قد تناهت دولة الشر، وظهرت قوتهم، وكثرت أفعالهم في هذا الزمان، وليس بعد هذا التناهي، إلا الإنحطاط والنقصان، واعلم أن الدولة والملك، ينتقلان في دهر وزمان، ودور وقران، من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت ومن بلد إلى أهل بلد^(٦٩).

وقد رمزوا لذلك بانتظار القران الأوسط، الذي يتم عندما ينتقل الكوكبان من زحل والمشتري من مثلث إلى آخر، ويتم هذا الأمر في ٢٤٠ سنة^(٧٠)، أما إذا بلغ العقرب ومدة ذلك ٣٣٠ سنة وأربعة أشهر، يحل بالعالم مصائب لاتحصي، وتسقط هبة السلطان الذي في يده زمام الشريعة، ويطمح سائر الملوك به، ويكون الحكم عندئذ، لدولة إخوان الصفا وتكون مدة تسلطهم (١٥٩) سنة^(٧١).

من تلك الرموز التنجيمية، يمكننا تقدير الزمن الذي ظهرت فيه الرسائل، في العهد البويهى، ونذكر الطابع الجماعي لتأليفها، وأفترض أن واضعيها هم (سنان بن ثابت بن قرة الحراني (المتوفي ٣٣٢ هـ) بعد إسلامه على يد عضد الدولة، وقريه، وأبو إسحق الصائبي (إبراهيم بن هلال) (المتوفي ٣٨٥ هـ) وثابت بن سنان بن ثابت الحراني وأبو الخطاب الصائبي، ووهب بن يعيش الرقي، دبجوا تلك الرسائل، ودسوها في دكاكين الوراقين. لأن عملاً فكرياً كبيراً مثل كتابة رسائل إخوان الصفا تقتضي كما قال جان بياجيه «إن كبار الناس، الذين خطوا اتجاهات جديدة، لم تكن إلا نتاج تفاعل وتركيب، لإفكار أعدت، في إطار تعاوني مستمر»^(٧٢).

وكان الدكتور عمر فروخ، قد نبه إلى أن إخوان الصفا، قد نشأوا وانقضوا في عهد الدولة البويهية، التي كانت تعطف عليهم وكانت غايتهم الإصلاح، على المدى الطويل، وقد دعوا إلى فهم جديد للدين، أي تفسيره بالفلسفة والعلوم الطبيعية، لأن من صلح دينه صلحت دنياه^(٧٣). باعتقادي أن آل بويه لا يعرفون من كتب الرسائل؟

الباب الثالث

وإن كانوا يعملون بين أيديهم، فما ذلك إلا لأن آل بويه علويون من أتباع المذهب الإثني عشري، الذي لا يقر التنجيم والكهانة. فما بالك بمن يؤله الكواكب، التي بها القضاء المبرم في حياة الناس، يقول إخوان الصفا «لاتظن يا أخي، أنه قد يقع من أحد فعل، ولا يسر له من عمل، ولا ترك شيء، ما هو مندوب إليه، إلا وقد سبق له في علم الله، يسمى القضاء المبرم، والقدر المحتوم، اللذين هما موجبات أحكام النجوم، وتأثيرات الأشكال الفلكية»^(٧٤). وأقرب المذاهب الإسلامية إليهم مذهب الموحدين الدروز، وأما المذهب العلوي فقد تأثر بهم إلى حد كبير ولكنه ظل ملتصقاً بعلم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وبتعاليم القرآن الكريم.

المراجع:

- ١ - العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٢١٣ جولد تسيهر ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون دار الرائد العربي القاهرة ١٩٤٦.
- ٢ - من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ١٤٩ - ١٥٠ بندلي جوزي بيروت ١٩٨١.
- ٣ - مقدمة رسالة جامعة الجامعة ص ١٠ من تراث الإسماعيلية تحقيق عارف تامر مكتبة دار الحياة بيروت.
- ٤ - المصدر السابق ص ٢٠ - ٢١.
- ٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٦ دار صادر بيروت ١٩٥٧.
- ٦ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧.
- ٧ - الإمامة في الإسلام ص ٦٩ - ٧٠ عارف تامر دار الكاتب العربي بيروت.
- ٨ - تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص ٤٠ مصطفى غالب بيروت.
- ٩ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٣٧.
- ١٠ - الإسماعيلية تاريخ وعقائد (هامش ص ٣٩٩) احسان الهي ظهير الرياض ١٩٨٦.
- ١١ - مقدمة شجرة اليقين ص ٥ للداعي القرمطي عبدان تحقيق عارف تامر دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢.
- ١٢ - جامعة الجامعة ص ١٣.
- ١٣ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٤٨٢.
- ١٤ - المصدر السابق ج ١ ص ٧٧.
- ١٥ - جامعة الجامعة ص ١٦.
- ١٦ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٥٧ دي بور.
- ١٧ - حقيقة إخوان الصفا ص ٥٩ د. عادل العوا دار الأهالي ١٩٩٣.
- ١٨ - الزيج الصابيء ص ٤٧ البتاني كارلو نالينو روما ١٩١١.
- ١٩ - حقيقة إخوان الصفا ص ٦٧.

الباب الثالث

- ٢٠ - المصدر السابق ص ٤١.
- ٢١ - النظام الداخلي لحركة إخوان الصفا ص ١٠ خير الدين سعيد - دار كنعان دمشق ١٩٩٢.
- ٢٢ - المصدر السابق ص ٣١.
- ٢٣ - المصدر السابق ص ١٤٦.
- ٢٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٣٧.
- ٢٥ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٣٧.
- ٢٦ - النظام الداخلي ص ١١.
- ٢٧ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٧٥ - ٧٦.
- ٢٨ - الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ج ٢ ص ١٢٥ د. فرهاد دفتري ترجمة سيف الدين القصير دار البنايع ١٩٩٥.
- ٢٩ - المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٨.
- ٣٠ - تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٩٧ - ١٩٨ هنري كوريان.
- ٣١ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٤٨.
- ٣٢ - النزعات المادية في الإسلام ج ٢ ص ٣٦٤ حسين مروة دار الفارابي بيروت ١٩٧٩.
- ٣٣ - تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٢٩٣ عمر فروخ دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦.
- ٣٤ - إخوان الصفا ص ٧ جبور عبد النور دار المعارف القاهرة ١٩٧١.
- ٣٥ - المصدر السابق ص ١٨.
- ٣٦ - المصدر السابق ص ٢٦.
- ٣٧ - المصدر السابق ص ٢٦.
- ٣٨ - المصدر السابق ص ٢٩.
- ٣٩ - المصدر السابق ص ٣١.
- ٤٠ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٠٤.
- ٤١ - المصدر السابق ج ١ ص ٧٧.

- ٤٢ - حقيقة إخوان الصفا ص ٦ د. عادل العوا.
- ٤٣ - المصدر السابق ص ٤١.
- ٤٤ - مقدمة رسائل إخوان الصفا ص ١٥ طبعة القاهرة ١٩٢٨.
- ٤٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٣٣.
- ٤٦ - المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤.
- ٤٧ - المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥.
- ٤٨ - المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦.
- ٤٩ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.
- ٥٠ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٢.
- ٥١ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٠.
- ٥٢ - المصدر السابق ج ٤ ص ٤٢.
- ٥٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ٤٣ - ٤٤.
- ٥٤ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠٠.
- ٥٥ - مروج الذهب ج ١ ص ٤٦٨ المسعودي كتاب التحرير القاهرة ١٩٥٦.
- ٥٦ - المنقذ من الضلال ص ٤٢ الغزالي.
- ٥٧ - حقيقة إخوان الصفا ص ٣٧٩.
- ٥٨ - المنقذ من الضلال ص ٣٢.
- ٥٩ - المصدر السابق ص ٣١.
- ٦٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٣٠٧.
- ٦١ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٩٥.
- ٦٢ - رسالة الحيوان والإنسان ص ٨٦ - ٨٨ نشر أحمد حسنين مطبعة المعارف القاهرة ١٩١٣.
- ٦٣ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ١٣ عبد الرحمن بدوي دار النهضة العربية ١٩٦٥.
- ٦٤ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٤٥.

الباب الثالث

- ٦٥ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٢ دي بور.
 ٦٦ - المصدر السابق ص ١٥٦.
 ٦٧ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١١٩.
 ٦٨ - المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٢.
 ٦٩ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨١.
 ٧٠ - إخوان الصفا ص ٢٣ د. جبور عبد النور.
 ٧١ - الرسالة الجامعة ج ٢ ص ١٢٦٥،
 ٧٢ - الحرفة والتراث والابداع ص ٦٣ اصدار الاتحاد العام للجمعيات الحرفية دمشق
 ١٩٩٥.
 ٧٣ - تاريخ الفكر العربي حتى ابن خلدون ص ٣٧٩ عمر فروخ دار العلم للملايين
 بيروت ١٩٦٦.
 ٧٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٥٠٠.

الفصل الثالث

الفارابي وصابئة حران وإخوان الصفا

الفارابي وصابئة حران:

لا أعرف في التراث العربي شخصية فلسفية مرموقة، كشخصية الفارابي (أبي نصر محمد بن محمد طرخان) (المتوفي ٣٣٩ هـ - ٩٥١ م). تضاربت حولها الآراء، وتعددت الروايات والأقوال مثل شخصيته.

- اختلفوا حول أصله. أتركي هو أم فارسي؟. ثم رجحوا أنه تركي الأصل.
- واختلفوا حول المدينة التي ولد فيها، ورجحوا أنها مدينة فاراب في بلاد ما وراء النهر (نهر سارداريا).

- واختلفوا في سنة دخوله بغداد. ورجحوا أنه دخلها سنة (٣١٠ هـ - ٩٢١) وكان عمره يناهز الخمسين عاماً.

- واختلفوا في رحيله إلى حران طلباً للعلم. قال صاعد بن أحمد الأندلسي (المتوفي ٤٦٢ هـ): إنه «دخل العراق، واستوطن بغداد، وقرأ بها العلم الحكيم، على يوحنا بن حيلان المتوفي في أيام الخليفة المقتدر (المتوفي ٣٢٠ هـ)^(١). وقال ابن خلكان (المتوفي ١٢٨٢): كان دخوله بغداد وبها أبو بشر متى بن يونس (المتوفي ٣٢٨ هـ - ٩٤٠). وظل تلميذاً لأبي بشر ثم ارتحل إلى مدينة حران، وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني، فأخذ عنه طرفاً من المنطق، ثم أنه قفل راجعاً إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة^(٢) والنحو. وفي رواية لابن أبي أصيبعة (المتوفي ١٢٩٦): كان يقرأ النحو على أبي بكر السراج (المتوفي ٣١٦ هـ - ٩٢٨)، وكان ابن السراج، يقرأ عليه المنطق^(٣). إن المتمعن في الأخبار السابقة يجد فيها خلطاً ووهماً كثيراً.

كيف يترك الفارابي بغداد ويذهب إلى حران لدراسة المنطق على رجل مجهول؟. وفيها إمام العصر والزمان أبي بشر متى بن يونس. وحران في تلك الأيام، خالية من أي رجل له ذكر وشهرة في أي علم من العلوم، ماعداً الحارث بن سباط الأسقف المسيحي، الذي ذكر للمسعودي عام (٣٢٢ هـ - ٩٤٤ م)، أن لا وجود لأي عالم

حراني يعتد به من الصابغة الحرانية، أو غيرهم. وإن مجمعهم عبارة عن بيت فيه أنواع من الصور التي جعلت مثلاً للأجسام السماوية، يقف خلفها الكهنة من وراء الجدران، ويتكلمون كلاماً يصطادون به عقول العامة^(٤).

وقد علق الشيخ مصطفى عبد الرزاق حول سفره الفارابي لحران: «كلام المؤرخين مضطرب في أمر هذه التنقلات»^(٥).

ومن الأقوال والآراء المتناقضة حول الفارابي:

- الحاشية التي وردت في كتاب المطالع لمولانا لطفي: قال: إن المأمون جمع مترجمي مملكته كحنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني، وترجموا له كتباً بتراجم متخالفة، مخلوطة غير محررة، لاتوافق ترجمة أحدهم للآخر. فبعث تلك التراجم غير المحررة، المنصور ابن نوح الساماني (حكم ٣٥٠ - ٣٦٥هـ) إلى الحكيم الفارابي، ثم التمس منه أن يجمع تلك التراجم، ويجعل من بينها ترجمة ملخصة، محررة، مطابقة لما عليه الحكمة، فأجاب الفارابي وسمى كتابه (التعليم الثاني)، فلذلك لقلب بالمعلم الثاني^(٦).

تعليقتنا على هذا الخبر: إن حنين بن إسحق وثابت بن قرة الحراني هما أعظم مترجمين عرفهما العرب.

حنين بن إسحق (٨٠٩ - ٨٧٣):

كان طبيباً ومترجماً من عرب الحيرة، من قبيلة عبّاد المسيحية، وهي من مضر. تضلع باليونانية في أديرة الجزيرة وفي الأسكندرية، وعينه المأمون مترجماً في بيت الحكمة (٨٢٩)، فنقل إلى السريانية والعربية، بعض كتب أفلاطون وأرسطو وديوسقوريدوس وجالينوس. ومما نقله لأرسطو كتاب المقولات العشر، الذي فسره الفارابي، وكتاب العبارة نقله إلى السرياني، ثم نقله ابنه إسحق إلى العربية وعليه اعتمد الفارابي، وكذلك كتاب أنولوطبقا الأولى (القياس)، نقله حنين إلى السرياني، ثم نقله ابنه إسحق إلى العربي، ومثله فعل (بكتاب البرهان)، وعلى هذه الكتب اعتمد الفارابي في كتابه المنطق^(٧).

ثابت بن قرة الحراني (٨٢٤ - ٩٠١):

كان عالماً رياضياً وفيلسوفاً، صابئي المذهب، تخصص في ترجمة كتب الرياضيات والفلك والموسيقى عاش في بلاط المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩). وعندما أنشأ المأمون بيت

الباب الثالث

الحكمة كان عمره خمس سنوات، ثم فسر وشرح كتب أرسطو، التي ترجمها حنين بن إسحق، وعلى شروحه اعتمد الفارابي.

وأما حاكم بخارى والري المنصور بن نوح الساماني الأول، فقد حكم بعد وفاة الفارابي بعقد من الزمن.

يتضح مما سبق، أنه لاصحة لذلك النص الذي ورد في كتاب المطالع.

قصة الدرويش أو الموسيقى العجيب:

أورد إخوان الصفا تلك القصة، قائلين: يحكى أن جماعة من أهل هذه الصناعة (صناعة الموسيقى)، كانوا مجتمعين في دعوة، رجل كبير رئيس، إذ دخل عليهم إنسان، رث الحال عليه ثياب النساك، فرفعه صاحب المجلس عليهم كلهم، فبين الإنكار وجوههم، فأراد أن يبين فضله، فسأله أن يسمعهم شيئاً صنعه. فأخرج خشبات ركبها تركيباً، ومدّ عليها أوتاراً، كانت معه، وحركها تحريكاً، أضحك كل من في المجلس من اللذة والفرح. ثم قلبها، وحرك تحريكاً آخر، فأبكى كل من في المجلس^(٨). ثم قلبها، وحرك تحريكاً آخر، فنوّم كل من في المجلس، وقام، وخرج، فلم يعرف له خبر^(٩).

ولكن هذه القصة تحوّرت إلى روايتين مختلفتين فيما بعد:

١ - رواية ظهير الدين البيهقي (المتوفي ٥٦٥ هـ - ١١٧٠ م): قال: «إن الفارابي استقدمه كافي الكفاة، الصباح بن عباد (٣٢٦ - ٣٨٤ هـ)، ووصل إلى الري، وعليه قباء وسخ، وقلنسوة بلقاء، ودخل مجلس الصباح، متكرراً، وكان المجلس غاصاً بالندامي، وأرباب اللهر.. واستهزؤوا بأبي نصر، ولكنه ظل بينهم صابراً، حتى اطمأنت نفوسهم إليه، وحمل أبو نصر مزهراً، واستخرج لحناً مع وزن، نوّم المستمعين، وصار كل واحد، كالذي يغشى عليه، وكتب على البربط «زاركم أبو نصر الفارابي، واستهزأتم به فنوّمكم». ثم خرج من الري متكرراً نحو بغداد. فلما أفاق الصباح، وندماؤه، تعجبوا من حذقه في صناعته وتأسفوا على فوات مناديته^(٩).

هذه الرواية لاصحة لها، لأن الصباح بن عباد كان له من العمر (١٣) عاماً حينما توفي الفارابي، وعند دخول الفارابي بغداد، لم يكن الصباح مولوداً.

٢ - رواية ابن خلكان (المتوفي ١٢٨٢): روايته محوّرة عن قصة إخوان الصفا، ولكنها تجعل المكان قصر سيف الدولة بحلب، عام (٣٣٣ هـ - ٩٤٥ م). قال: «إن أبا

نصر لما ورد على سيف الدولة، وكان مجلسه يجمع الفضلاء، في جميع المعارف، فأدخل عليه، وهو بزي الأتراك.. وكان ذلك زيمه دائماً، قال له سيف الدولة: اقعد! فقال أبو نصر: حيث أنا أم حيث أنت؟ قال له: حيث أنت... فتخطى أبو نصر رقاب الناس، حتى انتهى إلى مسند سيف الدولة، وزاحمه حتى أخرجه عنه، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان، وحضر كل ماهو في هذه الصناعة، بأنواع الملاهي. فلم يحرك. أحد منهم آلة إلا وعابه أبو نصر. وقال له أخطأت. فقال له سيف الدولة: وهل تحسن من هذه الصناعة شيئاً؟ فقال: نعم. ثم أخرج من وسطه خريطة. وأخرج منها عيداناً، وربكها تركيباً، ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المدلس. ثم فكها وغيّر تركيبها، وضرب بها فنام كل من في المجلس. حتى البواب، فتركهم نياماً وخرج.. ولكن هذه القصة أو الخرافة غير المقنعة، علق عليها الشيخ مصطفى عبد الرزاق: «ولكن كانت هذه الحكاية أدنى إلى الأساطير منها إلى التاريخ، فهي تشبه أن تكون، غلوّاً مجاوزاً لا اختراعاً صرفاً»^(١٠). بل هي في اعتقادي أسطورة لاصحة لها.

إن التاريخ الصحيح لهذه الآلة ما ذكره الفارابي في (كتابه الموسيقى الكبير). عندما روى عن إختراعه آلة (الشاهروود) وهي آلة وترية كالكانون. قال: إن التي أوجدناها - نحن - بهذه الصفة، من الآلات المشهورة، في مملكة العرب، هي الآلة التي تسمى (الشاهروود) وهذه إنما استنبطت في زماننا نحن، ولم تكن تعرف من قبل، وأول من استخرجها، رجل من أهل الصغد، في سمرقند يقال له (خليص بن حكيم)، استخرجها عندما كان في بلاد الجبل سنة (٣٠٦ هـ - ٩١٧م)، ثم حملها إلى بلاد الصغد، فاستعملت هناك، ثم حملت إلى بغداد، وإلى مصر وماوراءها^(١١). وطاف بها على بلدان الجزيرة والشام، وسمع منها جميع الألحان القديمة والحديثة، فلم يكن مما وجد فيها من النغم منافراً لأحد من الناس^(١٢). لم يكن الفضل في اختراعها للفارابي الذي زاد في تحسينها وتطويرها ونقلها إلى بلاد الشام بعد عام (٣٠٦ هـ). ومعنى هذا أن رسائل إخوان الصفا كتبت بعد هذا التاريخ.

الحرانية وعلم الموسيقى:

الموسيقى صنعة من أقدم صنائع البشر، عرفتها الشعوب القديمة، واستعملوها في معابدهم، وقصورهم، وبيوتهم، وفي أحزانهم، وأفراحهم. لما لها من تأثير في النفوس قال إخوان الصفا: «والدليل على أن لها تأثيراً في النفوس، استعمال الناس لها، تارة

الباب الثالث

عند الفرح والسرور، وفي الأعراس والولائم والدعوات، وتارة عند الحزن والغم، في المصائب والمآثم، وتارة في بيوت العبادات والأعياد^(١٣).

وفي مرحلة التدوين والكتابة، أصبحت الموسيقى جزءاً من العلم الرياضي، القائم على نسب عددية. لأنها علم تأليف، ومعرفة ماهية النسب، وكيفية تأليف الأصوات المختلفة الجواهر، المتباينة الصور، المتضادة القوى، المتنافرة الطبائع، كيف تجمع، ويؤلف بينها، كي لا تنتافر، وتأتلف، وتتحد، وتصير شيئاً واحداً (هارموني)، وتعمل فعلاً واحداً، أو عدة أفعال، هذا قول نيقوماخوس الجهراسيني في كتابه الموسيقى الكبيرة الذي ترجمه ثابت بن قرة^(١٤).

ومن أشهر علماء الموسيقى، الذين اعتمد عليهم العرب، أرسطوكسينوس Aristoxenus الفيثاغوري (عاش حوالي ٣٥٠ ق. م). له كتاب الإيقاع^(١٥) ترجمه ثابت بن قرة، ومنه أخذ العرب أساس النغمات والتناغم، ثم عمّقوا السلم السباعي الذي اكتشفه (أرسطقسانس) بعد أن أضافوا إلى درجاته الرئيسية عشر درجات فرعية، لتسهيل للدلالة على أنواع العبارة الموسيقية، وللتقليل من عدد علامات التحويل (البيمول) التي يستلزمها التعبير عن سائر نسب الأنغام، فيما اقتصرنا على درجات السلم^(١٦). واستطاع ثابت، كتابة السلم السباعي بعلامات رمزية رياضية من اليسار إلى اليمين، كما هي في اليونانية (دو. ري. مي. فا. صول. لا. سي) شاهدها القفطي في السريانية، في كتاب لثابت من خمسة ورقة^(١٧).

كانت الموسيقى تلعب دوراً هاماً في معابد الحرائية، لأنها ترافق أدعيتهم، وتضرعاتهم في الصلاة. والتوسل، والدعاء عند تقديم القرابين.

قال ج. هـ. فارمر (في كتابه تاريخ الموسيقى العربية). إن صابئة حران والإغريق، يرون أن كل شيء أرضي، يتأثر بما هو سماوي، فنغمات السلم السبع، تعادل الكواكب السبع، وصور البروج الإثني عشر، تفرق إلى ملاوي العود الأربعة، ودساتينه الأربعة، وأوتاره الأربعة، ويتأثر العدد، بالطبائع الكونية الأربعة، والفصول الأربعة، والأمزجة والقوى العظيمة، والألوان والعطور، وأرباع دائرة البروج، والقمر والعالم^(١٨).

وقال إخوان الصفا «كان أصحاب النواميس الإلهية، يستعملون في هياكلهم، وبيوت عباداتهم، عند القراءة في الصلوات، وعند القرابين والدعاء، والتضرع والبكاء، كما كان يفعل داود النبي، عند قراءة مزاميره، وكما يفعل النصارى في كنائسهم،

والمسلمون في مساجدهم، وكان الحرانية، يستعملون عند الدعاء والتسبيح والقراءة ألحاناً من الموسيقى تسمى (المُحَزَن)، وهي التي ترقق القلوب، إذا سمعت، وتبكي العيون^(١٩).

الموسيقى عند العرب:

كان أهل الجزيرة العربية، مختلفة في معرفة هذه الصناعة، فأهل الحجاز واليمن، كان لهم إلمام بالموسيقى، ولديهم أدوات موسيقية، مما كان يستخدمه أهل الحبشة ومصر وبلاد الشام، وأما أهل البادية، فعلمهم بها قليل، إلا من أصوات يرتجلونها أثناء السفر (الخداء)، ولم تكن آلات الطرب، تتجاوز عندهم الطبل أو المزمار.

ولكن بعد أن فتحوا بلاد الشام ومصر والعراق وبلاد فارس، صارت لديهم حاجة ملحّة إلى سماع الموسيقى، فكثرت الآلات، وتنوعت، وصار تلحين الشعر العربي، وسماع أصواته العذبة في قصور الخلفاء والأمراء وفي الأعراس شيئاً ضرورياً.

وعندما ترجم العرب علوم القدماء، ترجموا معها كتب الموسيقى، ولم تعد تقتصر على العلم الرياضي بل أصبحت ترافق كتب الأدب، وصار تدوين الأغاني فرعاً هاماً من فروع الأدب.

ذكر الأصفهاني (علي بن حسين بن محمد القرشي) (المتوفي ٣٥٦ هـ - ٩٦٧م) في موسوعته العظيمة (كتاب الأغاني)، أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، كان يرسل المعتضد بالله، إذا استراب جواربه، على ألسنتهن، مع ذوي الألسن عنده من رسله مع أحمد بن الطيب السرخسي وثابت بن قرة الحراني، يذكر النغم، وتفصيل مجاريها، ومعانيها، حتى فهم ذلك فصنع لحناً، فجمع النغم العشر على التوالي فجعلها على الصوت الأخير، على التعديم والتأخير في قول دريد بن الصمة:

يأليتي فيها جذع أخبب فيها وأقع

وصنع صنعة جيدة منها، ماسمعناه من المحسنين والمحسنات، وفيها ما لم نسمعه، يكون مبلغاً نحو خمسين صوتاً، وقد ذكرنا ذلك، ماضح في أغاني الخلفاء^(٢٠).

كان ثابت صديقاً ليحيى بن علي المنعم (المتوفي ٣٠٠ هـ - ٩١٢م). كتب له رسالتين في علم الموسيقى وإرشاد ثابت جمع يحيى غناء (عريب البرمكية)، بناء على أمر الخليفة المعتمد من دفاترها وصحفها، التي كانت قد جمعت فيه غنائها، فكان ألف صوت^(٢١).

كان يحيى عالماً بفلسفة الأوائل، كتب رسالة في الموسيقى طبقاً للعلوم الرياضية، قال فيها: «ما يجب أن يكون عليه المغني، من معرفة في أمر النغم، وعددها وما يتألف منها، وما يختلف، ومواقع إصبع من وتر وتر، وموضع كل نغمة من كل دستان وتبين ماسماه إسحق بن إبراهيم الموصلي المجري في الأصوات، التي بعضها بمجري البُنصر، واختلاف ما بين أصحاب الغناء العربي، مثل إسحق ونظرائه، ممن جمع العلم بالصناعة والعمل، وبين أصحاب الموسيقى من الفلاسفة القدماء في عدد النغم»^(٢٢).

كانت الموسيقى علماً رياضياً، أصل أصوله ثابت بن قرة الحراني، وصار كل من جاء بعده يعتمد عليه، ولم تكن عادة المؤلفين العرب ذكر المصادر إلا في القليل والنادر.

مصادر الفارابي الموسيقية:

كان الفارابي عالماً في الموسيقى من الناحيتين النظرية والعلمية. وضع كتاباً لم يعرف مثله في العربية سماه (كتاب الموسيقى الكبير). نال إعجاب العرب والأعاجم، وقال عنه القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي «كان الفارابي في علم صناعة الموسيقى، وعملها قد وصل إلى غايتها، وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه» قَدَّم الكتاب للوزير أبي جعفر محمد بن القاسم الكرخي، الذي كان به ميل إلى علم الأوائل، إلى الموسيقى المنسوبة إليهم، خاطبه الفارابي في المقدمة: «على أن تكميل الصناعة لمن تقدم، وللثاني فضيلة تكملة الرواية والترجمة، وتسهيل ما غمضه الأول فقط. على أي، وجدت في جميعها نقصاً عن عدم تمام أجزاء الصناعة، وإخلالاً في كثير مما أثبت فيها. ومجل مانحي به منها، نحو العلم النظري، فقد استعمل في تبينه أقاويل غامضة»^(٢٣). ثم يكمل مخاطبته للوزير: «إن مانقل منها إلى اللسان العربي، كتباً ناقصة. وعند ذلك رأيت، إجابتك إلى ما سألت عنه من صناعة الألحان التي قال عنها إسحق بن إبراهيم الموصلي «الألحان نسيج، ينسجها الرجال، وتجودها النساء».

إذن هدف الفارابي وغايته، تسهيل ما غمض من الأقاويل، وإكمال بعض الكتب الناقصة. معتمداً على ما جاء به الأوائل، أو المتقدمون عليه. ولكن الفارابي كالكندي، يغير على كتب غيره دون أن يذكرها في مراجعته، ويبدو أن تلك كانت سمة العصر. اعتمد الفارابي على كتاب ثابت بن قرة في الموسيقى، وكتاب الباهر في أخبار الشعراء المولدين، وكتاب النغم، وهما ليحيى بن علي المنجم، لأن أخبار إسحق بن إبراهيم الموصلي وأقواله أخذها الفارابي عن ابن المنجم دون أن يذكره.

حاول الفارابي أن يغمز من ثابت بن قرة، وشيعته الفيثاغورية بقوله: «إن ما يعتقد فيثاغورس في الأفلاك، أنها تحدث بحركاتها نغماً تأليفية، إن ذلك باطل لأن الذي قالوه، غير ممكن وإن السموات والأفلاك والكواكب، لا يمكن أن تحدث لها بحركاتها أصواتاً»^(٢٤). وإن ما يقوله كثير من آل فيثاغورس، وقوم من الطبيعيين في أسباب هذه الأشياء (الأنغام التأليفية) فأكثره باطل، والحق فيه نزر، وقد بينا ذلك، عندما فحصنا آراءهم^(٢٥). عندما يقولون أن الحكيم فيثاغورس، أول من استنبط صناعة الموسيقى العملية، وعنه أثبتت في الجمهور، بجودة فهمه، وقوته على إدراك الأشياء كلها، وليس هذا الظن حقاً على الإطلاق^(٢٦).

وكأنه يرد بذلك على ماورد عند ثابت وإخوان الصفا، الذين قالوا: إن فيثاغورس الحكيم، سمع بصفاء جوهر نفسه، وذكاء قلبه، نغمات حركات الأفلاك، فاستخرج بجودة فطرته أصول الموسيقى، ونغمات الألحان، وهو أول من تكلم بهذا العلم، وأخبر عن هذا السر^(٢٧).

وقالوا أيضاً: «فأما الحكماء الفيثاغوريين، فأعطوا كل ذي حق حقه، إذ قالوا: إن الموجودات بحسب طبيعة العدد، وهذا هو مذهب إخواننا، وبحسب رأيهم، في وضع الأشياء مواضعها، وترتيبهم، حق مراتبها على المجرى الطبيعي، والنظام الإلهي. واعلم يا أخي أيديك الله وإيانا بروح منه إن فيثاغورس، كان رجلاً حكيماً موحداً، من أهل حزان»^(٢٨).

ثم قالوا: «إن فيثاغورس الحكيم سمع بصفاء جوهر نفسه، وذكاء قلبه نغمات حركات الألحان، وأخبر عن هذا السر من الحكماء، نيقوماخوس، وإقليدس، وبطليموس وغيرهم من الحكماء»^(٢٩).

قال الفارابي:

إن الذين أثبتوا عدد القوى والنغم في الكتب صنفان:

- قداماء أهل التعاليم من اليونانيين:

وهؤلاء كانوا، يرون، أنه ليس سبيل الطبيعة من الألحان، سبيل الشرائع والسنن التي ربما حمل الناس عليها، في أكثر الأزمان، ويتبعون بعضهم بعضاً، على ما يستحسن المؤلفون من الأمور، أي أن علم الموسيقى له صفة التراكم، وبالتالي التطور. ثم يذكر ماجرى بينهم من اختلاف وهم:

الباب الثالث

- فيثاغورس وأتباعه: الذين يعدون كل بعد يستعمل، هو من أصل اللحن، وهؤلاء يتخذون المبدأ الطبيعي أساساً في تعريف مقادير الأبعاد الصوتية، بدلالة الحدود الدالة على النغم في الأوتار المهتزة.

- (أرسطقسانس) وأتباعه: كانوا يعدون كل بعد يستعمل في تزايدات اللحن، وتشعبياته، وهذا البعد لا يوجد في أصول الألحان، ولا يكاد، يوجد في تزايداته فلذلك أطرَح عندهم، وصاروا لا يعدونه، في المتلاثمات، ولا يعدونه في الإثناقات.

وعلماء العرب (الذين زمانهم قريب من زماننا، ممن جرى في مملكة العرب).

- فبعض هؤلاء داموا الاقتفاء بقدماء اليونان عن علم ودراية.

- وبعضهم لم يقصدوا، أن ينحو نحو أهل التعاليم، ولكن كانوا مرتاضني السمع بالألحان، وأكثرهم كانوا من مهرة المزاويلين أعمال هذه الصناعة، وأثبتوا ما وجدوه، أو كما أصبح عندهم.

- وأما ما يقوله المحدثون ممن ينحو نحو القدماء، فأولئك لا ارتياض لهم في المحسوس منها، ولا علم القدماء، فهم إذا أعدوا شيئاً من هذا، وأثبتوه في كتاب اعتمدوا على حسن ظنهم بمن سلف من القدماء^(٣٠).

دأي الفارابي:

قال: «أما نحن، فقد تقدمنا، ووفينا بيان صناعة الموسيقى، ولخصناها كلها في كتابنا، الذي ألفناه في المدخل، وفي الأشياء الخارجة، المطبقة بهذا العلم، والمنسوبة إليه بالجهة الأخرى^(٣١)».

أراد أبو نصر أن يخبرنا أنه استنبط طريقة خاصة به، ولم يقلد أحداً، في العزف والممارسة العملية، وكان مثاله ثامسطيوس البيزنطي (٣٢٠ - ٣٩٠) كان شارحاً لأرسطو، ووزيراً مقرباً من الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣)، الذي كان فيلسوفاً بارعاً، وعازفاً غير ماهراً. قال عن نفسه: «إني اعلم مما تعاطيت من التعاليم، أن النغمة، التي تسمى (المفروضة)، والتي تسمى (الوسطى)، لأحسن باتفاقهما لقلة ارتياضي بهذا الباب. قال الفارابي: «وقد خبّر ثامسطيوس، إنه لا يحس باتفاقهما، وإنه قد علم من العلم النظري اتفاقهما»^(٣٢).

إذن كان الفارابي معترفاً بنفسه، لمعرفته النظرية، وخبرته العملية، التي أظن أنه قد تلقاها على أيدي كهنة حران المهرة في العزف. فهو يذكر أنه بعد عام (٣٠٦ هـ -

٩١٧م)، حمل آلة الشاهروود معه، وجربها عندهم. قال الفارابي: «وسمع منها جميع الألحان القديمة منها والحديثة، فلم يكن مما وجد فيها من النغم، منافراً لأحد من الناس»^(٣٣).

- هل كان الفارابي من إخوان الصفا؟

ذكر المستشرق الإنكليزي رينولد نيكلسون: (١٨٦٨ - ١٩٤٥) في كتابه تاريخ أدب العرب: أن حكماء العرب في أواخر القرن الثالث الهجري، إنشقوا إلى فرقتين: الأولى فرقة المتكلمين: التي كان للكندي الفضل في تمهيد سبيلها، وكانوا يتبعون فيثاغورس، ثم مالوا إلى مبادئ الأفلوطينية المحدثه. التي بحثت في مبادئ الأشياء، وتحري المعنى والفكرة والروح، ولا تصف الله بالحكمة في الخلق، أو بالعلة الأولى، ولكن بأنه واجب الوجود وكانتقدر الأشياء بوجودها، فتسعى في إثبات ذلك أولاً، وكان الفارابي رئيس هذه الفرقة وزعيمها والمقدم فيها، وإليه المرجع، وعليه الاعتماد. أما الفرقة الثانية فهي فلاسفة الطبيعة: وكان ظهورها بخران والبصرة. والمقدم فيها أبو بكر محمد بن زكريا الرازي. وقصرت بحثها على ظواهر الطبيعة المادية المحسوسة، مثل تخطيط البلدان وأحوال الشعوب، ثم ترقى في البحث، إلى النفس والروح، فالقوة الإلهية عرفوها بالعلة الأولى «الخالق الحكيم»، الطاهر حكمته في مخلوقاته^(٣٤). هذا الرأي مستمد عن المسعودي حينما تكلم عن صابئة حران قال: كانت بينهم رسائل معروفة عندهم من علوم الأوائل، على مذاهب الفيثاغوريين، والإنصاري لهم، وآخر من صنف في ذلك أبو بكر محمد بن زكريا الرازي^(٣٥).

والفارابي كذلك يؤمن بالفيثاغورية، التي تؤمن أن الله خالق الكون، وبالتناسخ، وتأثير الكواكب في تدبير شؤون البشر.

سأعتمد في تقييم فلسفة الفارابي، على فيلسوفين عظيمين من فلاسفة العرب: هما:

رأي ابن طفيل وابن رشد بفلسفة الفارابي:

أبو بكر بن الطفيل (توفي ١١٨٥):

قال عنه: إن ما اتصل بنا من كتبه في الحكمة الصحيحة، مملوء بالريب والتناقض، لشكوك أبي نصر في خلود النفس، قال في: «كتاب الملة الفاضلة». «إن النفوس الخبيثة تبقى بعد الموت، في عذاب أبدي، ثم ذكر في كتابه السياسة، إن تلك النفوس الخبيثة،

تتحول إلى العدم، ولا تخلد إلا النفوس الكاملة^(٣٦). ثم قال: إن أبا نصر ذكر في شرحه لكتاب الأخلاق لأرسطو: إن أرقى ما يصل إليه الإنسان، هو في هذه الدنيا، وإن الخير الأسمى هو أيضاً في هذه الدنيا، وإن كل ما يقال بوجوده بعد هذه الدنيا ليس إلا تراها أشبه بخرافات العجائز. وهذا هو رأي الحرانية.

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (توفي ١١٩٩):

قال عن الفارابي: «وهذه الاعتراضات، التي دعت أبا نصر في شرحه لأخلاق أرسطو إلى القول: بأن الإنسان، لا يستطيع الوصول إلى درجة أرقى، من التي يصل إليها بالنظر في العلوم العقلية، ثم أضاف إلى ذكر تلك الاستحالة قوله: بأن وصول الإنسان إلى حالة الجوهر الفرد المجرد عن المادة، ليس إلا من تراها العجائز، لأن مايولد ثم يموت، ليس من صفاته الخلود. وقد أدت هذه الفقرة إلى تكفير الفارابي، واتهامه بالتناسخ^(٣٧).

إن اتهام ابن الطفيل وابن رشد للفارابي بالتناسخ له أساس في كتابه المدينة الفاضلة. قال: «وإذا مضت طائفة، فبطلت أبدانها، وخلصت أنفسها وسعدت، فخلفهم ناس آخرون في مرتبتهم بعدهم، قاموا مقامهم وفعلوا أفعالهم». ونقل عن كتابه (الملة الفاضلة): إن نفوس الدهريين، والمنافقين والأشرار، التي تفقه معنى الخير الأعلى، ولا تحاول بلوغ شأوه، تبقى بعد موته محيطة بما ينقصها، لترتقي لدرجة الكمال، ثم لا تستطيع أن تكمل، ولا أن تهلك، بل تبقى معلقة بين يين، وهي تقاسي في ذلك الأمرين. أما النفوس الجاهلة، التي لم يصل علمها في الحياة الدنيا إلى معرفة الخير الأسمى، فإنها تعود إلى العدم المطلق^(٣٨).

- أليس هذا هو اعتقاد صابئة حران؟ وإخوان الصفا في الحياة وما بعدها؟

وهذا كتابه «السياسة المدنية» أو كتاب «الموجودات». يبحث فيه مبادئ الموجودات الستة الروحانية:

١ - المبدأ الإلهي، أو السبب الأول، وهو فردي - أي واحد لا يتعدد. ٢ - الأسباب الثانوية أو عقول الأجرام السماوية. ٣ - العقل الفعّال. هذه الموجودات ليست أجراماً، وليس لأحدها علاقة مباشرة بالأجرام.

٤ - النفس ٥ - الصورة ٦ - المادة المعنوية. وهذه الثلاثة الأخيرة ليست بذاتها أجراماً ولكنها متعلقة بها.

والأجرام على ستة أنواع هي: ١ - أجرام الدوائر الفلكية ٢ - الحيوان العاقل ٣ - الحيوان غير العاقل ٤ - النبات ٥ - المعادن ٦ - العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب).

ومجموع هذه الأنواع يكون الوجود.

دعاء الفارابي الأفلاطوني:

وفي شرحه لهذه المبادئ، لا يخرج عن التصورات الأفلاطونية المحدثة، وما جاء في رسائل إخوان الصفا، وهذا دعاؤه الأفلاطوني: الذي ورد في كتاب ثابت بن قرة الحرائفي، القراءات في الصلوات قال الفارابي:

- اللهم إني أسألك يا واجب الوجود. وياعلة العلل، يا قديماً لم يزل. أن تعصمني من الزلل، وأن تجعل لي من الأمل، ماترضاه لي من عمل.

- اللهم امنحني مااجتمع من المناقب، وارزقني في أموري حسن العواقب، ونجح مقاصدي والمطالب، ياإله المشارق والمغارب. رب الجوار الكنس، السبع التي انبجست عن النفس الكلية، انبجاس الأبهـر. هن الفواعل عن مشيئتها، التي عمت فضائلها جميع الجواهر، أصبحت أرجو الخير منك، وأمتري زحلاً ونفس عطارد والمشتري.

- اللهم ألبسني حلل البهاء، وكرامات الأنبياء، وسعادة الأغنياء، وعلوم الحكماء، وخشوع الأتقياء.

- اللهم أنقذني من عالم الشقاء والفناء، واجعلني من (إخوان الصفا، وأصحاب الوفاء) وسكان السماء، مع الصديقين والشهداء.

- أنت الله الذي لا إله إلا أنت، علة الأشياء، ونور الأرض والسماء، امنحني من العقل الفعّال، ياذا الجلال والأفضال. هدّب نفسي بأنوار الحكمة، وأوزعني شكر ماأوليتني من نعمة، أرني الحق حقاً، وألهمني اتباعه، والباطل باطلاً واحرمني اعتقاده واستماعه. هدّب نفسي من طينة الهيولى، إنك أنت العلة الأولى.

- اللهم رب الأشخاص العلوية، والأجرام الفلكية، والأرواح السماوية، غلبت على عبدك الشهوة البشرية، وحب الشهوات والدنيا الدنيّة، فاجعل عصمتك مجني، من التخليط، وتقواك حصني من التفريط، إنك بكل شيء محيط.

- اللهم أر نفسي صور الغيوب الصالحة، في منامها، وبدلها من الأضغاث برؤيا الخيرات، والبشرى الصادقة في أحلامها، وطهرها من الأوساخ، التي تأثرت بها عن

محسوساتها، وأوهامها، وأمط عنها كدر الطبيعة. وأنزلها في عالم النفوس المنزلة الرفيعة.

- اللهم الذي هداني، وكفاني، وآواني^(٣٩).

هذا الدعاء الأفلاطوني هو نفس التوسل الإدريسي (أو الهرمسي)، الوارد في كتب ثابت بن قرة الحراني. وفيه تجد خلاصة اعتقاد صابئة حران، وغاية قول إخوان الصفا. وهل من الصدفة، وحتى بعد أن أصبحت حران مدينة تدين بالفكر الباطني الإسلامي، ما يورده القفطي: «إن عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي الأندلسي (٣٦٧ - ٤٥٨ هـ)، رحل إلى ديار الشرق، إلى حران ثم رجع إلى الأندلس، واستوطن مدينة سرقسطة، وجلب معه الرسائل المعروفة «برسائل إخوان الصفا»، ولم يعلم أن أحداً قبله، أدخلها إلى بلاد الأندلس^(٤٠).

لاشك أنه، كانت ثمة علاقة واضحة بين إخوان الصفا وأهل حران حتى بعد إسلامهم.

المراجع:

- ١ - طبقات الأمم ص ٨٣ - ٨٤ القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي دار السعادة بمصر.
- ٢ - الفارابي ص ٢٣ عباس محمود العقاد القاهرة ١٩٤٤.
- ٣ - المصدر السابق ص ٢٠.
- ٤ - مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٥ المسعودي قاسم وهب دمشق ١٩٨٨.
- ٥ - فيلسوف العرب والمعلم الثاني ص ٦٠ مصطفى عبد الرزاق دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٤٥.
- ٦ - المصدر السابق ص ٦٩.
- ٧ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ٣٥ نشر دار المثنى - بغداد.
- ٨ - تاريخ حكماء الإسلام ص ٣١ - ٣٣ ظهير الدين البيهقي - تحقيق محمد كرد علي دمشق ١٩٤٩.
- ٩ - فيلسوف العرب والمعلم الثاني ص ٦٦.
- ١٠ - كتاب الموسيقى الكبير ص ١١٦ لأبي نصر الفارابي تحقيق غطاس عبد الملك خشبة - دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٧٣.
- ١١ - المصدر السابق ص ١١٧.
- ١٢ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٩.
- ١٣ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.
- ١٤ - الفهرست لابن النديم ص ٣٣٠ تحقيق رضا تجدد طهران ١٩٧٦.
- ١٥ - تراث الإسلام ص ٥١٧ ترجمة جرجس فتح الله دار الطليعة ١٩٧٤.
- ١٦ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ١٢٠.
- ١٧ - تاريخ الموسيقى العربية ص ١٧٨ جورج فارمز ترجمة جرجس فتح الله دار الطليعة ١٩٧٤.
- ١٨ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٧.
- ١٩ - كتاب الأغاني ج ٩ ص ٥٩ - ٦٠ لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق الحاج محمد الساسي التونسي الوراق تونس ١٩٣٦.

- ٢٠ - المصدر السابق ج ١٨ ص ١٧٦ طبعة تونس.
- ٢١ - رسالة ابن المنجم في الموسيقى ص ١٨٩ - ١٩٠ تحقيق د. يوسف شوقي مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٦.
- ٢٢ - تاريخ فلاسفة الإسلام ص ٣٠ محمد لطفي جمعة القاهرة ١٣٤٥ هـ.
- ٢٣ - كتاب الموسيقى الكبير للفارابي ص ٣٦.
- ٢٤ - المصدر السابق ص ٨٩.
- ٢٥ - المصدر السابق ص ٩٩.
- ٢٦ - إخوان الصفا ج ٣ ص ٢١١.
- ٢٧ - المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٩.
- ٢٨ - المصدر السابق ج ١ ص ٢١٠.
- ٢٩ - كتاب الموسيقى الكبير ص ١٣٨.
- ٣٠ - المصدر السابق ص ١١٨٩.
- ٣١ - المصدر السابق ص ١٠٣.
- ٣٢ - المصدر السابق ص ١٣٨.
- ٣٣ - تاريخ فلاسفة الإسلام ص ١٥ - ١٦.
- ٣٤ - المصدر السابق ص ١٣٨.
- ٣٥ - المصدر السابق ص ٢٤.
- ٣٦ - المصدر السابق ص ٢٥.
- ٣٧ - المصدر السابق ص ٢٥.
- ٣٨ - المصدر السابق ص ٣٠.
- ٣٩ - الفارابي ص ٦٩ - ٧٠ سعيد زايد أعلام الفكر العربي دار المعارف القاهرة ١٩٦٢.
- ٤٠ - تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٤٣.

الفصل الرابع

أهم المرتكزات النظرية في رسائل إخوان الصفا

أولاً - طريق المعرفة:

سادت في رسائل الأخوان حرية الفكر وعدم التعصب المذهبي، حيث قالوا لأتباعهم: «ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى أن لا يعادوا علماً من العلوم، أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم كلها»^(١). وكان شعارهم: «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطتها».

كيف يُحصّل الإنسان علمه؟. هناك ثلاثة طرق:

- طريق الحواس - وفيه تعرف النفوس ما هو أخس من جوهرها، ونحصل بها على العلوم الطبيعية.

- طريق البرهان - وفيه تعرف النفوس ما هو أعلى منها وأشرف، ونحصل بها على العلوم الفلكية والرياضية.

- طريق التأمل العقلي - وفيه تعرف النفوس ذاتها وجوهرها، أو إدراكها إدراكاً مباشراً^(٢) للعلوم الربانية.

وكان مكتوباً على باب مجمع الصابئة في حران «من عرف ذاته تأله».

وكانوا يؤكدون على دور المعلم الخبير في تعليم جماعتهم. مما دفع أبو حامد الغزالي في نقده لهم على هذه الناحية. قال: «إذا قيل لأحدهم هات علم معلمكم وأفدنا من تعليمه، وقف وقال: الآن إذا سلمت له هذا فاطلبه. وعلم لو أنه زاد على ذلك لا افتضح وعجز عن حل أدنى الإشكالات»^(٣).

كان الإسماعيلية مثلهم يسمون بالتعليمية؛ لتأكيدهم أن العلم يجب أن يؤخذ عن إمام موثوق بعلمه. وطبقاً لذلك جزم هنري كوربان أن هذه الرسائل هي من التراث الإسماعيلي. قال «يمكننا أن نقر بما قال به إيفانوف من أنه منذ عهد الإمام أحمد كان

هناك نواة لهذه الرسائل مالبث أن توسعت مع الزمن حتى أصبحت مجموعة رسائل الإخوان^(٤). ثم يذهب إلى أبعد من هذا مقررًا: إن الجماعة لم يؤلف بين قلوبهم المذهب الشيعي، وحسب بل كانوا جماعة فكرية ذات نزعة إسماعيلية خالصة، بالرغم من أن كتاباتهم الحذرة لا تكشف الأمر إلا لأولي العلم والإدراك^(٥) وإلى هذا الرأي ذهب الدكتور عارف تامر ومصطفى غالب.

هل الديانة الإسماعيلية ديانة نجمية، تعزو تدير هذا العالم، ومافيه إلى أحكام النجوم؟ أم أن هذه هي دعوة الحرانية؟ وإخوان الصفا هم طليعتهم الفكرية، وهم القائلون: «ومن شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الرضا بالفضاء والقدر، وهو طيب النفس بما يجري عليها من المقادير، وهو موجبات أحكام النجوم والقضاء، وهو العلم السابق بما توجهه أحكام النجوم، مثلما رضي به الرسول (ص) يوم أحد لما قتل خيار أنصاره وفضلاء المهاجرين وكسرت رباعيته وجرى عليه من المقادير الفلكية ماجرى»^(٦) هذه التعاليم لا يقرها الإسلام، ولا المذهب الإسماعيلي.

يدافع إخوان الصفا عن تعاليم ديانتهم النجمية قائلين: «اعلم أن أحكام النجوم هي إحدى أمهات الخلاف بين الناس مذ كانوا. والعلماء في حكمها على ثلاثة أقاويل:

القول الأول (للحرانية):

الذين يعتقدون أن للأشخاص الفلكية دلالة على الكائنات قبل كونها في هذه الأشخاص السفلية، ولها فيها أفعال وتأثيرات، وإنهم أحياناً ناطقون، وهم ملائكة الله وملوك أفلاكه، وسكان سماواته، عرفوا ذلك بعد النظر في العلوم الإلهية وأحكامها، العلوم الإلهية عرفوها بعد النظر في العلوم الطبيعية، وأحكامها، فسموا المؤثرات روحانية الكواكب في الكائنات. ثم أضافوا قولهم: «لا يعرف كيفية تأثيرات هذه الكواكب وأفعالها إلا الراسخون في العلم من الحكماء والفلاسفة البالغون في المعارف الربانية المؤيدون من السماء بتأييد الله وإلهامه»^(٧). وهذا اعتقاد الحرانية في الكهانة التي افتخر بها ثابت بن قرة.

القول الثاني (لأصحاب كتب التنجيم):

وهؤلاء يعتقدون أن للنجوم دلالات، وليس لها فعل ولا تأثيرات؛ وإنما عرفوا ذلك لطول التجارب وكثرة الاعتبار قرناً بعد قرن، كما يتبين ذلك في كتب الأحكام^(٨). وإذا كان المنجمون يخطئون في بعض استدلالاتهم أو في أكثرها، لا تبطل صناعة علم

النجوم، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لإدريس النبي^(٩). وهو هرمس الحكيم بني الحرامية.

القول الثالث (لأهل الديانات السماوية):

الذين أنكروا دلالات الأشخاص الفلكية وأفعالها، لتركهم النظر في علم أحكام النجوم، وإغفالهم تعاليمها، وإعراضهم عن البحث عنها^(١٠). أما الرسالة الجامعة التي تنسب أحياناً إلى أئمة المذهب الإسماعيلي. جاء فيها ما يناقض مما جاء في رسائل إخوان الصفا قالوا: واعلموا أن للمنجمين تمويهات لاتنفق إلا على الجهال والعوام والنساء والصبيان والحمقى، واعلم أنه لا يعتبر بقول المنجم إلا الطغاة البغاة ممن ملوكهم الجبابرة والفراسة المنكرون أمر الآخرة ودار المعاد، الجاهلون بالعلم السابق والعدر المحتوم^(١١). ثم أضافوا: «يقتل المنجمون الذين لا يعرفون خالق النجوم ومدبرها. وعلى هذا القياس تجري أحكام النجوم لا ينفعهم ذلك من قضاء الله وقدره شيئاً»^(١٢). وكيف يجوز أن يستعان بالفلك على مدير الفلك؟^(١٣).

ماسبب هذا التناقض بين رسالة الحيوان والإنسان وبقية الرسائل؟. أرى أن السبب أن هذه الرسالة الأخيرة أعيد تحريرها تحت إشراف أئمة الإسماعيلية، بما يجعلها تتفق والإسلام. على عكس المذهب السني الذي وقف منها موقف الرفض جملة وتفصيلاً، وقد أمر الخليفة العباسي عام ٥٥٤ هـ / ١١٥١ م بأن تحرق رسائل الإخوان جميعها سواء الموجود منها في المكتبات الخاصة والعامة مع مؤلفات ابن سينا^(١٤). يقول هاملتون جب: «إن النظام السني السياسي ظل شديد الخوف من التفكك، واحتاجت الحكومة إلى رعاية الأمور الدينية، وحيثما توحدت مناطق غرب آسيا إزدادت ضروب الصلات بين مدنها؛ مما بعث الموروث الثقافي الهلينيستي فدخلت حومة الثقافة العربية العلوم الفيزيائية والطبيعية والتنجيم والموضوعات الهلنستية التي تحتويها القصص والحكايات»^(١٥). وبعد تولي الفاطميون لحكم مصر أقاموا مذهباً دينياً على أساس المزاوجة بين الإسلام والثقافة الهلينيستية، وكتب إخوان الصفا رسائلهم في العلوم الطبيعية^(١٦). ثم اعتمد المذهب الفاطمي عليها في دعوتهم السرية؛ خصوصاً في تنظيم مراتب الدعوة التي اعتمدت على فلسفة الإشراف الأفلاطونية الحديثة، وكانوا يسمون بالتعليمية لوجود إمام يزود الناس بالتعليم المعتمد الموثوق به، المعتمد على التأويل الرمزي الذي يكشف المعنى الباطني للقرآن، والوسيلة التي يبررون بها النظام الإسماعيلي^(١٧). يجعلهم الأمور السياسية

صابقة حراف هم اخوان الصفا

مراتباً، وجعلوا لكل مرتبة سلطة عليا بمثابة الراس للبدن، تسوسه وتدير شؤونه وهذه المراتب هي:

١ - السياسة النبوية: وهي التي تخضع وتدعوا الناس إلى ترك الديانات الفاسدة وهجر العادات السيئة.

٢ - السياسة الملوكية: وهي التي تقوم على حفظ الشريعة وتطبيق الحدود وترك المظالم.

٣ - السياسة العامة: وهي التي تتحقق برئاسة الأمراء على البلدان والمدن، ورئاسة الدهاقين وعلى أهل القرى، ورئاسة الجيوش على العساكر، ومهمتها رعاية هذه الطبقات وتفقد أحوالها.

٤ - السياسة الخاصة (التدبير المنزلي)، وهي رعاية الإنسان لشؤون منزله، وأمر معيشته وأحوال عائلته وأولاده.

٥ - السياسة الذاتية (رعاية المرء لنفسه)، وهي أن ينظر الإنسان إلى نفسه، يراعي أخلاقه ويتفقد أفعاله وأقواله في حالتي الرضا والغضب^(١٨).

لقد جمعت رسائل الإخوان بين حرية فكر المعتزلة، واتجاه المذهب الإسماعيلي، نحو الجمع بين شتى الآراء والمذاهب، وقد صيغت رسائلهم بأسلوب قريب من إفهام العامة في ضربهم الأمثال والقصص الجذابة والحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان^(١٩) وكانت تُدرّس هذه الرسائل في مدارس الدعاة؛ ليتعلموا منها «كيفية مخاطبة الناس».

وكان منهجهم النفسي والتربوي في التعليم يعتمد على:

علم الطبائع:

وهو علم يعتمد على عوامل طبيعية ثلاثة:

أ - أحكام النجوم: التي تؤثر في الجنين قبل الولادة ومابعدھا، حتى عمر أربع سنوات فهو في تدبير فلك القمر تشاركه سائر الكواكب، ثم يصير التدبير لعطارد ثلاثة عشر سنة وهو صاحب النطق والحركة والتعاليم، ثم يصبح التدبير للزهرة ثمان سنوات، وهي صاحبة الحسن والزينة والإنهماك في الشهوات والنكاح والحرص على جمع المال^(٢٠). ثم يصبح التدبير للشمس عشر سنوات تظهر من المولود (الكخدائية) أي (بلوغ الحلم أو العقل) في المنزل وتربية الأولاد فيها خصال الملوك والدهاقنة في

الباب الثالث

القرى^(٢١). ثم يصبح التدبير للمريخ (سبع سنوات) ؛ صاحب الحزم والعزم ومن مدبري الملك والناموس، ثم يصبح التدبير للمشتري (أثنى عشر سنة)، وهو صاحب الدين والورع والرجوع إلى الله^(٢٢).

ب - اختلاف نسب العناصر في الجسم والأخلاق.

ج - فعل البيئة الطبيعية وتأثيرها.

علم التربية المكتسبة بالتقليد والتلقين والتشكير:

كان الإخوان يفضلون التوجه بدعوتهم نحو الشباب، لأن نفوسهم مهتأة لتقبل الدعوة الجديدة، وكانوا يستبعدون الكهول والنساء، وكانوا يندبون لهذه المهمة دعاة ذوي بصيرة بطبقات المجتمع، فهناك من يحسن مخاطبة أولاد الملوك والأمراء والعمال والكتاب والتجار والعلماء والفقهاء والصناع والعرافين^(٢٣). وقد قسموا الناس إلى أعمار مختلفة.

- الشباب الذين هم دون العشرين يدعونهم لحفلة عامة، هو وأتراب له من سنه، أما من هم فوق سن العشرين فإنهم يرسلون لكل واحد منهم رجلاً من صناعته يعاشره مدة من الزمن دون علم منه بغرضه، ثم يعرض عليه أهداف الجماعة عندما تحين الفرصة المناسبة.

- وإن كان المدعو صاحب مركز إجتماعي أرسلوا له رجلاً يتناسب ومركزه، يعقد معه أواصر الصداقة، فإن أنس عنده استعداداً للانضمام فاتحه بالأمر في الوقت المناسب^(٢٤). فإذا انضم إليهم، وصار داخل الجماعة قسموهم حسب أعمارهم وقدمهم وتحمسهم للدعوة، إلى أربعة مراتب.

١ - مرتبة الإخوان الأبرار الرحماء:

وهم ممن أتموا الخامسة عشرة سنة من العمر ممن تنبّهت فيهم القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات الواردة على القوة الناطقة، وتقابل مرتبتهم ذوي الصنائع في المدينة.

٢ - مرتبة الإخوان الأخيار الفضلاء:

وهم ممن بلغوا ثلاثين سنة وتنبّهت فيهم القوة الحكيمة الواردة على القوة العاقلة، ويتميزون بمراعاة الإخوان وسخاء النفس والعطاء والجود والشفقة والرحمة على الإخوان، ومرتبته مرتبة الرؤساء ذوي السياسات.

٣ - مرتبة الإخوان الفضلاء الكرام:

وهم ممن بلغوا سن الأربعين وهؤلاء يعرفون النواميس، ويدونون العقائد، ويوضحون المناهج ويدافعون عن الحقائق، ويعملون على نشرها وعلى بث الدعوة، وهذه هي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي وحل الخلاف عند ظهوره بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه^(٢٥).

٤ - مرتبة الكمال:

وهي مرتبة ممن بلغوا خمسين سنة، وهي المرتبة الحائزة لجميع رياضيات النفس والممهدة للمعاد والمفارقة للهيولي، وعليها تنزل قوة المعراج، وبها تصعد إلى ملوك السماء فتشاهد أحوال القيامة من البعث، والنشر والحشر والحساب والميزان والجواز على الصراط والنجاة من النيران ومجاورة الرحمن ذوي الجلال والإكرام^(٢٦).
كان دعاة الإخوان في المرحلة الأولى بدأوا بالاتصال الشخصي، فلما زاد عددهم وتنبه الجميع لخطرهم استعملوا الرسائل في دعواهم الجرائية^(٢٧).

المراجع:

- ١ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٠٥.
- ٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٣٣٤.
- ٣ - المتقذ من الضلال ص ٤٣ الغزالي.
- ٤ - تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٣ هنري كوربان.
- ٥ - المصدر السابق ص ٢١٠.
- ٦ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٧٣ - ٧٤.
- ٧ - المصدر السابق ج ١ ص ١٤٥.
- ٨ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٠.
- ٩ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٢.
- ١٠ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٠.
- ١١ - رسالة الحيوان والإنسان ص ١٤٥.
- ١٢ - المصدر السابق ص ١٤٦.
- ١٣ - المصدر السابق ص ١٤٩.
- ١٤ - تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١٥٧.
- ١٥ - دراسات في حضارة الإسلام ص ٢٤ هاملتون جب ترجمة إحسان عباس دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٤.
- ١٦ - المصدر السابق ص ٢٥.
- ١٧ - حضارة الإسلام ص ٢٥٢ جوستاف جروينباوم ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٥٦.
- ١٨ - مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٩ سعيد زايد دار القلم القاهرة ١٩٦٩.
- ١٩ - تاريخ الفكر الأندلسي ص ٥٥٨ انخل جنثالث بالثيا ترجمة حسين مؤنس مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٥.
- ٢٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٤٤٦.

- ٢١ - المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٧.
- ٢٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٤٤٨.
- ٢٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢١٤.
- ٢٤ - مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٣.
- ٢٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١١٩.
- ٢٦ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٠.
- ٢٧ - مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٤.

ثانياً - المباحث التي تضمنتها رسائل إخوان الصفا:

إن أصحاب فلسفة أرسطو من اليونان، والمفسرين لأفكاره من علماء مدرسة الإسكندرية أمثال أمونيوس وسميليقيوس وثامسطيوس ويحيى النحوي قسموا العلوم العقلية إلى ثلاثة أنواع هي:

١ - مباحث في الحكمة الطبيعية.

٢ - مباحث في الحكمة الرياضية التعليمية

٣ - مباحث في الحكمة الإلهية أو مابعد الطبيعية.

وزاد إخوان الصفا عليها مبحثاً رابعاً هو:

٤ - مباحث في الحكمة النفسانية والعقلية. وهذا مفصل لمواضيع الرسائل:

النوع الأول - مباحث الحكمة الطبيعية:

يتعلق وجودها بالمادة الجسمانية (الهيولى) والحركة، كالأجرام السماوية والعناصر الأربعة والآثار العلوية، والنبات والمعادن، والنفس الحيوانية، والقوى الدراكية، وما يوجد بالأحوال خاص بها. مثل الحركة والسكون والكمون والفساد، وأقسامها الفرعية، وهي سبعة (الطب وأحكام النجوم والفراسة، والتعبير والرؤيا والنيرنجات والكيمياء^(١)) وكل ما ينظر في الوجود المتغير وتضم تلك المباحث سبع عشرة رسالة هي:

رسالة الهيول والصورة، ورسالة السماء والعالم، ورسالة الكون والفساد، ورسالة الآثار العلوية، ورسالة في كيفية تكوين المعادن، وعلة اختلاف جواهرها، وكيفية تكوينها في باطن الأرض، ورسالة في ماهية الطبيعة، ورسالة في أخيار النبات، ورسالة في أصناف الحيوان، ورسالة في تركيب الجسد، ورسالة في الحاس والمحسوس، ورسالة في مسقط النطفة، ورسالة في معنى قول الحكماء (إن الإنسان عالم صغير)، ورسالة في كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية والأجسام الطبيعية، ورسالة في

طاقة الإنسان في المعارف، ورسالة في ماهية الموت والحياة، ورسالة في ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية، ورسالة في علل اختلاف اللغات.

النوع الثاني - مباحث الحكمة الرياضية والتعليمية:

وهي أمور وجودها متعلق بالمادة والحركة، وحدودها غير متعلقة بهما ضرورياً كالعدد وخواصه، ومثل الكروية والتدوير والتربيع وغير ذلك، وأصولها أربعة (علم العدد وعلم الهندسة وعلم الهيئة وعلم الموسيقى^(٢)) والعلم الرياضي هو العلم الذي ينظر في الكمية مجردة عن الهولي^(٣).

وتحتوي الرسائل على أربع عشرة رسالة، تبحث في العدد والنجوم والموسيقى والجغرافيا، والنسب العددية والصلات الروحية بين الأعداد والصنائع العلمية، والمداخل إلى المنطق (الإيساغوجي)، والمقولات العشر والعبارة والقياس والبرهان.

علم الحساب:

العلم عند إخوان الصفا، هو صورة المعلوم في نفس العالم، والجهل هو تصور الشيء غير صورته^(٤)، ولنفس العلماء علاقة بالفعل، ولنفس المتعلمين علاقة بالقوة، والتعلم والتعليم إخراج مافي القوة (الإمكان) إلى الفعل، فإذا نسب ذلك إلى العالم سمي (تعليماً)، وإذا نسب إلى المتعلم سمي (تعلماً). والعقل الإنساني يتميز به الإنسان دون سائر الحيوان^(٥). وللعلم البشري مصدران هما:

أ - ما يستخرجه الإنسان بقوة نفسه وفكره ورويته وإجتهاده. كما يزعم الفلاسفة.
ب - ما يتعلمه الإنسان بالوحي كما يقول الأنبياء عليهم السلام. قالوا: واعلم يا أخي علماً يقينياً أنه ليس من البشر من يحيط بعلم من العلوم، لا الأنبياء ولا الفلاسفة، ولا غيرهم (لأن المعرفة نسبية ضمن حدود الزمان والمكان)، وإن زعم بعضهم أنهم استخرجوا العلوم والصنائع بقوة عقولهم، فذلك أنهم شاهدوا مصنوعات الطبيعة، ولولاها لما اهتمدوا إلى شيء منها، لأن الطبيعة مؤيدة للنفس الكلية، والنفس الكلية مؤيدة بالعقل الكلي الذي، هو أول الموجودات من الباريء سبحانه المؤيد للكل^(٦).

والمعلم الذي اعتمد عليه، إخوان الصفا، هو فيثاغورس الساموسي (٥٨٢ ق.م - ٥٠٢ ق.م)، وهو خزانة حكمتهم وفلسفته قائمة على تفسير الوجود، على أساس أن الأشياء كلها أعداد، والعدد الذي يرد في ذهنه على شكل أشكال، كما تبدو في زهر

الباب الثالث

اللعب، وهذه الأعداد مقدسة لا تتحمل الشك؛ والفكر عنده أسمى منزلة من الحواس، وإن كل ماندركه بالتفكر هو أقرب إلى الحق مما ندركه بالحواس، وإن كل ما يبدو أفلاطونياً هو مستمد عند التحليل من فيثاغورس في جوهره، وإن الفكرة القائلة بوجود أزلي ينكشف للعقل ولا ينكشف للحواس، مستمد من فكر فيثاغورس أيضاً، إذ لولاه لما فكر المسيحيون في المسيح على أنه اللوغوس (الكلمة)^(٧).

أما فيثاغورس فهو عند إخوان الصفا كان رجلاً حكيماً من أهل حران، وكان تحديد الغاية بالنظر في علم العدد، وكيفية نشوئه من الواحد الذي قبل الإثنين ومعرفة معرفة وحدانية الله - عز وجل - وفي معرفة خواص العدد وكيفية ترتيبها ونظامها، معرفة لموجودات الباري تعالى، وإن العدد مركز في النفس، يحتاج إلى أدنى تأمل، ويسير من التذكار حتى يستعين ويعرف بلا دليل^(٨). ولا يبحث الإخوان في العدد من حيث هو، وإنما يبحثون في دلالاته وخصائصه، ويعلمون الأشياء بما يتفق والمذهب الفيثاغوري الذي هو عندهم علم إلهي، وهو أشرف من المحسوسات التي كونه على مثال الأعداد، والمبدأ المطلق لكل وجود مادي، أو ذهني هو الواحد الذي تتجلى لهم منه، إتيان الحكمة الإلهية، فمن أجل ذلك قالوا: إن الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه، فكان الكواكب السيارة سبعة مطابق الأول عدد كامل (٣ + ٤)، وكون الأفلاك تسعة مطابق الأول عدد فرد معذور (٣ × ٣) أو (٩ = √٣). وكون البروج إثني عشر مطابق الأول عدد زائد (٣ × ٤)، وكون النازل ثمانية وعشرين مطابق العدد تام (٧ × ٤) أو (٧ + ١٢ + ٩). هذا ما ذكره تنبيهاً لنفوس المتعلمين المرتاضين في خواص العدد، ومطابقة الموجودات لخواص العدد وطبيعته على رأي الحكماء الفيثاغوريين^(٩). وقد ترجم ثابت بن قرة كتاب برقلس المسمى خواص العدد.

علم الهندسة:

هي من عالم معقول فوق مستوى الحس، تبحث في دوائر مضبوطة، ثم جاء أفلاطون بعد فيثاغورس وجعل الله محيط بعالم الهندسة، لذا قال عنهما برتراند رسل «كانا من أهم من شهدت الدنيا من رجال من الوجهة العقلية»^(١٠). وما الأشكال الهندسية المنظورة بالعين المجردة، فهي مجرد وسيلة تسهل فهم الفلسفة على المبتدئين، والحساب هو وحده العلم العقلي الصحيح، لأن الهندسة منها ما هو حسي كالخطوط والسطوح، ومنها ما هو عقلي كالأبعاد من طول وعرض وعمق، وهي تهدي النفوس من المحسوسات إلى المعقولات، ومن ذوات الهيولى إلى المجردات^(١١).

علم التنجيم:

غايتة - عند إخوان الصفا - إرشاد النفوس وهدايتها إلى النظر في الكواكب وعلم التنجيم الذي يتنبأ بالمستقبل^(١٢). قالوا: اعلم أن الفقهاء، وأصحاب الحديث، وأهل الورع والمتسكين قد نهوا عن النظر في علم النجوم، وإنما نهوا عنه لأنه جزء من علم الفلسفة، وهم يكرهون النظر في علم الفلسفة للأحداث والصبيان وكل من يتعلم علم الدين، ولا يعرف من أحكام الشريعة، ما يحتاج إليه. أما من تعلم علم الشريعة وعرف أحكام الدين فإن نظره في علم الفلسفة لا يغيره بل يزيده علم الدين تحقّقاً^(١٣).

بعد قرنين من الزمن نهى الإمام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ) عن تعلم الفلسفة، لأن الفلاسفة أصناف، ولكن حاصل علومهم لها سمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم، والأوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه^(١٤).

كما نهى عن تعلم الرياضيات؛ لأنها علوم براهنية تولد آفتان:

الأولى: من ينظر فيها يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسببها اعتقاده في الفلاسفة، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم، ويكفر بالتقليد المحض^(١٥) - أي الدين -.

الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينظر بإنكار إلى كل علم منسوب إليهم، فأنكر جميع علومهم، وادعى جهلهم فيها، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، فيزداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً^(١٦).

علم المنطق:

يحتل هذا العلم مكاناً وسطاً بين الطبيعيات والإلهيات عند إخوان الصفا، وله أقسام عندهم هي: المدخل أو الإيساغوجي والمقولات، والعبارة والقياس والبرهان، يقتصرون على ذلك ولا يسرون حتى نهاية الفرع، كالجدل والسفسطة والخطابة والشعر، كما هو الحال عند أرسطو، وأضافوا إلى الكليات الخمسة في الإيساغوجي (لفظة الشخص)، فأصبحت الكليات عندهم مادل على الأعيان والموصوفات (كالشخص والنوع والجنس). والمعاني والصفات يدل على (الفصل والخاصة

الباب الثالث

والعرض). قالوا: واعلم أن الألفاظ التي يستعملها الفلاسفة في أقوالهم وإشاراتهم إلى المعاني التي في أفكار الناس ستة أنواع: ثلاثة منها دالات على الأعيان التي هي موصوفات (الشخص والنوع والجنس). وثلاثة منها دالات على المعاني هي صفات (الفصل والخاصة والعرض)^(١٧).

فالشخص - كل جملة يشار إليها دون غيرها، متميزة من غيرها بالأفعال والصور، ولا يطلق إلا على الجسم، وهو الجوهر الممتد في الجهات، ومنه البسيط (كجسم الفلك)، والمركب والمؤلف من أجسام مختلفة الطبائع كالجماد والنبات والحيوان^(١٨).
النوع - ماهية الشيء، وله الاسم والفعل والقيامة.

الجنس - صفة جماعية متفقة بالصور يعمها معنى واحد.
الفصل - هو القول الواضح البين الذي ينفصل به المراد عن غيره، أو الفرد الذي تتم به ماهية النوع، والفصل يدل على الجوهر المحدود المعروف، لأنه خاصة.

الخاصة - صفة مخصوصة لما دون غيره، بطيئة الزوال.
العرض - صفة حالة في الجوهر لا كالجزء منه^(١٩).
وقد لعب المنطق عند إخوان الصفا دوراً هاماً في ترجمة العلوم إلى العربية.

علم الموسيقى:

للموسيقى تأثير في النفوس، والدليل على ذلك استعمال الناس لها في الأعراس والولائم، وفي الحزن والمصائب، وفي المآتم وفي بيوت العبادة، وفي الأعياد وفي الأسواق والمنازل وفي الأسفار، وفي الحضر، وعند الراحة والتعب، وفي مجالس الملوك، ومنازل السوقة، وجميع طبقات الناس^(٢٠) وللموسيقى - عند الإخوان - صفة كونية؛ لأن الموجودات أعداد تعيش في نسق موسيقي، وأن للأفلاك السامية والكواكب الشريفة والجواهر اللطيفة وفي دورانها واحتكاكها نغمات مطربة عجيبة وألحاناً بديعة، كنغمات العידان، ومجاوبة المزامير، ونقر الطناير^(٢١). وهذه هي نظرة فيثاغورس إلى الموسيقى. وقد أنكرها عليهم الفارابي.

الصنائع وفن الرسم:

الصناعة هي إخراج الصانع للصورة من فكره، ووضعها في الهيولى، فيصبح المصنوع مركباً من هيولى وصورة^(٢٢). لقد درس إخوان الصفا المجتمع دراسة دقيقة، وقد حددوا شرائحه الاجتماعية. وأهم الصناعات فيه وحاجات الناس اليومية. وقالوا:

(الناس كلهم إما صنّاع أو تجار)، وإن الخوف من الفقر يدفعهم للعمل. وبالتالي الحصول على الرزق، وقد رتبوا هذه الصناعات، ووجهوا دعائهم إلى التغلغل فيها، وأهم هذه الصناعات:

- ١ - صناعات شرفها من جهة الهيولى فيها، مثل (صناعة الصاغة والعطارين).
 - ٢ - وصناعات شرفها من حاجتها الضرورية للحياة، (كالحرث والطبابة والبناء والحياكة).
 - ٣ - وصناعات شرفها من جهة النفع العام، مثل (صناعة الحمامين والسماطين) لهم أهمية لخير المدينة.
 - ٤ - صناعات شرفها من جهة مصنوعات، كصناعة آلات الرصد (كالاسطرلاب والرخامة).
 - ٥ - صناعة تقتضي مهارات خاصة بغض النظر عن منفعتها (كالمصورين والموسيقين).
 - ٦ - صناعات ليست سوى سرعة الحركة وإخفاء الأسباب التي تضحك السفهاء وتعجب العقلاء، كالمشعوذين والخواة^(٢٣).
- وكان الإخوان يذهبون إلى أن صناعة الآباء والأجداد، أنجع في الأولاد من صناعة الغرباء، وكان قدماء الحرانية في قديم الزمان، إذا أرادوا تسليم الصبي، إلى معلم صنعة، اختاروا له يوماً من الأيام، وأدخلوه إلى هيكل الصنائع، وصور سائر الكواكب، وقربوا قرباناً لصنم ذلك الكوكب الذي دلّهم على صناعة الصبي، ثم يطلعون على أحوال تلك الصنعة، ثم يسلمونه إلى شيخ الصنعة^(٢٤). وكان الصنائع في الإسلام يعيشون ويرتزقون من بيع سلعهم، وهم أربع فئات: (أهل الفنون الجميلة، ورجال الآداب، والتجار، والصنائع)^(٢٥) وهؤلاء هم نخبة العامة، وكان أكثرهم من أهل الذمة ممن أسلم ونزل المدن^(٢٦). وكان الفنان قبل الإسلام يعيش في أرض الجزيرة صانعاً حرفياً ينال تقديره من حرفته، ومدى إتقانه لها^(٢٧).

وكان الفنان يرتبط بورشة منظمة تحمي حقوقه، وصار في العهد الإسلامي يبيع منتجاته في أسواق المدن الكبيرة، وهو يخضع لإشراف شيخ السوق والمحاسب معاً.

كان الفنان التشكيلي يرسم صوره على جامات من الزجاج، أو على جدران المنازل، أو على الأواني الخزفية. أو يعملون في المعابد والكنائس فيرسمون الإيقونات، والصور التي تمثل حياة السيد المسيح وتلاميذه، أو صور تزين الأناجيل والتوراة، وبعض

الباب الثالث

الكتب القصصية أو الطبية، وينحتون التماثيل النذرية للقبور، وهي مهنة قديمة متوارثة في أسر معينة منذ العهود الوثنية السابقة. وكانت لهذه الصنعة أسرار وتقاليد في الرسم وتحضير الألوان والأحبار، وقد طوّرت هذه الصنعة بفضل تعاليم ماني وأتباعه، وإلى الصابغة الحرائية وأتباع وبرديسان. وفي الإسلام انتقل أثرهم إلى قصور الأمراء، ودور الكتب العامة والخاصة، رغم أن الإسلام لا يشجع كثيراً على رواج هذه الصنعة. إلا أنها كانت رائجة نتيجة تراكم الثروة وشيوع الرفاهية بين أفراد الطبقات الثرية، وسأذكر نصين من رسائل إخوان الصفا تبين مهارة الصانع في تخصصه من جهة، واستخدامه في تزيين البيوت والمقصورات الخاصة.

النص الأول: يروي حكاية: أن رجلاً عمل صوراً وتماثيل مصورة بأصباغ صافية، وألوان حسنة براقّة، وكان الناظرون إليها يتعجبون من حسنّها، ورونقها، ولكن كان في الصنعة نقص، حتى مرّ بها صانع فارّه حاذق، فتأملها فاستزرى بها وأخذ فحمة من الطريق، ومثل بجانب تلك التصاوير صورة رجل زنجي كأنه يشير يديه إلى الناظرين، فانصرفت أبصار الناظرين، بعد ذلك عن النظر إلى تلك التصاوير والأصباغ، وبالنظر إليه، والتعجب من عجب صنّعه، وحسن إشارته وهيئته وحركته^(٢٨).

النص الثاني: عندما زاد الترف في المجتمع العباسي، وتفنن الشعراء والفنانون والأطباء في تقوية سبل اللذة، فوضعت الكتب الكثيرة من أجل تقوية الباه، فوصفت الأطباء الأدوية المقوية، وقص الأدباء والمؤلفون حكاية المرأة الألفيّة، وكانت من أهل الهند، قال الجاحظ: قد وطأها ألف رجل، وكانت أعلم أهل زمانها بأحوال الباه وآثاره الشهوة، وإن جماعة من النساء اجتمعن إليها وقلن لها:

- أيتها الأخت: أخبرينا عما نحتاج إليه ونعمله، وما الذي يثبت محبتنا في قلوب الرجال.

- قالت: سألتن عن شيء لأقدر أن أكتمه، ولا يحل لي أن أخفيه، وأنا واصفة لكن الأبواه التي يستعملها الرجال^(٢٩). وإن الأوضاع الجنسية المجسدة على المرمر في معبد (كاجوراو) في الهند تشهد على ذلك، فهي مثيرة لمن يتأملها، وقد وصفه الشاعر السوري عمر أبو ريشة بقصيدة طويلة. أذكر منها قوله:

من منكما وهب الأمان	لاخيه أنت أم الزمان
كاجرو عفوك ليس لي	مني على حلمي إئتمان
ياهيكلا نشر الفنون	ورنح الدنيا إفتتان

وتكلمت أحجارك	الصماء مشرقة البيان
كم دمية ذل الرخام	على إنتفاضتها وهان
مرقت أقنعة الحياء	وما عليها من دهان
شفة على شفة تفتح	برعماً وتلف بان
وبنات لذات مطرحة	عناقاً واحتضان
ومراهق مستسلم	لقيام غانية عوان
لولا خلاخيل الكعوب	لقليل عانية وعان
وأنامل عشر على	كتفيه دامية البنان
خلخال كاحلها وتاج	جبينها متقاربان

لقد وصف إخوان الصفا هذه الصور بقولهم: إن رجلاً من المتهمين في الشهوات وطلب اللذات، كان أكلوا شرياً شبقاً من كثرة ما كان يأكل، ويشرب ويجمع، حرقت معدته، وضعفت قوته الهاضمة، واسترخت آله (عضوه التناسلي) من كثرة الجماع، وصارت الشهوات عادة، وكان ممن يداوي ويحتال في إنعاض آله، أن أمر حتى صوّر له في بيت الخلوة، على الحيطان والسقوف صور الجامع اللباه، وكتب بين تلك الصور أخبار المرأة الألفيّة، وينظر إلى تلك الصور ليستنهض بها آله، وصار ذلك دأبه وعادته، حتى أنه يهيج ويصيح كالسنانير وينهق كالحمير^(٣٠).

وما أراده إخوان الصفا هو تحذير إخوانهم من هذا السلوك المشين، وهو الإفراط في اللذة، والتهالك عليها. وغاية كل رجل حكيم، زجر النفس عن الشهوات المحرقة.

النوع الثالث - مباحث الحكمة الإلهية أو مابعد الطبيعة:

هذه المباحث أمور لا وجودها ولا حدودها مفتقرة إلى المادة والحركة، كالذات الإلهية والجواهر الروحانية والمعاني لجميع الموجودات (المقولات العشر)، كالجوهر والعرض والهوية والوحدة والكثرة والعلة والمعلول والجزئية والكلية وما أشبهها، وتضم رسائل إخوان الصفا منها على إحدى عشرة رسالة، تبحث في الطريق إلى الله وماهية الإيمان، وشرائط النبوة وكيفية الدعوة إلى الله وصورة العالم، والسحر والعزائم.

الله وخلق العالم:

لا يحتاج الله في نظر إخوان الصفا إلى برهان، لأنه معروف بالبداهة، ولأن كل

الباب الثالث

ما في الوجود يخبر به، وهو منزّه عن الجسميّة، وليس له شبيه في الخلق، وما ينسب إليه من صفات هو لإرضاء ذوق العامة والجهال. قالوا: اعلم أيها الأخ أن صفات الله تعالى لا يشركه فيها أحد من خلقه، ومعرفة التي لا يعرف بها إلا هو، إنه مبدع مخترع خالق مكوّن قادر عليم حي موجود قديم فاعل، وإنه المعطي من وجوده الوجود، وإنه مبدئ -أي قادر مخترع عالم، فاعل، موجود، فالفعل مبدئ لما بدا منه، وفاعل بمعنى مفعول، ومحدث بمعنى أنه محدث معلول، ومعطي الحياة لمن دونه لما أعطى، وموجود بوجود أفعاله الصادرة عنه^(٣١). ترى الديانات السماوية كلها إن الله قديم وهو خالق العالم، والخلق عند إخوان الصفا هو إيجاد الشيء من شيء آخر. قال تعالى: «خلقكم الله من تراب» كخلق آدم، والإبداع هو إيجاد شيء من لاشيء، والمكونات تتكون بقوله «كن فيكون»^(٣٢).

وخلق العالم عند إخوان الصفا، ليس كالخلق الموجود في التوراة والقرآن. يقول الإخوان: إن كان المراد بالقدم، أنه قد أتى عليه زمان طويل، فالقول صحيح! وإن كان المراد بالقدم أنه لم يزل ثابت العين على ماهو عليه، بينما العالم متغير فيه الكون والفساد والأجرام الفلكية دائمة والحركة والنقلة^(٣٣). فالقول صحيح أيضاً.

ويرى الإخوان أنه عن الله تفيض كل الموجودات، فهو المبدع لجميع الكيفيات، والمظهر لصور الكائنات، والموجود في كل شيء من غير مخالطة، ومع كل شيء من غير مازجة، مثله مثل الواحد في كل عدد. وهو القائل: كن فيكون! ثم قالوا: إنه ليس بشخص ولا صورة، بل هوّة وحدانية ذو قوة واحدة، وأفعال كثيرة، وصنائع عجبية، لا يعلم أحد من خلقه ماهو؟ وأين هو؟ وكيف هو؟ وهو الفائض منه وجود الموجودات، وهو المظهر لصور الكائنات في الهيولى، المبدع لجميع الكيفيات بلا زمان ولا مكان. بل قال: كن فكان^(٣٤). وقالوا: كما قال الصابئة الفيثاغوريين: الباري جل ثناؤه نسبه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد. والعقل كالأثنين، والنفس كالثلاثة، والهيولى كأربعة، وسائر الخلائق، مركبة من الهيولى والصورة المخترعين من النفس الكلية، المنبثقة من العقل الكلي بأمر الباري جل ثناؤه أبدعه لامن شيء أو صورة، وجعل فيه جميع الأشياء بالقوة والفعل^(٣٥).

هذه النظرة إلى الخلق هي مزيج من الفلسفة الأرسطوية والأفلوطينية الحديثة. فالله سبحانه تعالى هو باري للعالم؛ أي معطي صورة فاضت عن العالم من النفس الكلية للهيولى الأولى التي هي جوهر روحاني بسيط، يقبل من النفس الصور والأشكال بالزمان شيئاً فشيئاً، وأول صورة قبلتها للهيولى الأولى هي

(الطول والعرض والعمق)، فابدع بذلك الجسم المطلق والهيولى الثانية التي فاض عنها وصور عالم الفلك (الذي لا يقبل الكون والفساد)، ثم العناصر الأربعة ثم الأجسام الجزئية العامة^(٣٦).

فأله في نظر إخوان الصفا قديم، والمادة معه قديمة، وهذه نظرة الطائفة الحرائية.

النبي أو صاحب الشريعة وكيفية دعوته:

النبي في الأصل صفةٌ لرجل اصطفاه الله من بين عباده وخصه بأن أوحى إليه الشرع ليدعو الناس إلى توحيد الله، وتنزيهه عما لا يليق بالألوهية، وكرامة النبي. إما تفضل من الله تعالى على من يشاء، وإما أفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص^(٣٧). هذا هو الرأي الشائع عند جمهور الصوفية من المسلمين. ويضيفون بأن الوحي يحصل للنبي بواسطة الملك (جبريل)، وهو من خواص النبوة، وهو مشروط بالتبليغ^(٣٨). ومن أنكر ذلك أنكر الإسلام ذاته. قال الدكتور إبراهيم مذكور: «لا شيء أكثر إلحاحاً على الفيلسوف المسلم، من أن يخص في مذهبه مكاناً للنبوة والوحي، إذا شاء أن تقبل فلسفته»^(٣٩).

فكيف كان تصور الإخوان للنبوة؟

احتلت فكرة النبوة والوحي مكاناً مرموقاً. في رسائل إخوان الصفا، إلا أنهم عكسوا فيها مذهبهم الخاص البعيد كلياً عن الإسلام، لأن صاحب التاموس عندهم يحتاج إلى ست وأربعين خصلة من الفضائل البشرية، الملكية جميعاً، وأي إنسان عاقل يمكنه الحصول عليها بالرياضة الروحية، وإذا توفي النبي بقيت الخصال وراثية في أصحابه وأنصاره الفضلاء في أمته، ولا يخلو أحد من شيء منها، فإذا تنازعوا وتخاصموا وتفرّد كل واحد برأيه معجباً بنفسه، تفرقت جماعتهم، وضعفت قوتهم^(٤٠). وإذا اتحدوا كلهم كرجل واحد ونفس واحدة، صار واضح الشريعة لهم بمنزلة الرأس من الجسد وهم له كسائر الأعضاء، غلبوا من رام غلبهم وقهروا كل من يخالفهم ويعاديهم^(٤١).

هذه الرؤية للنبوة هي رؤية المذهب الصابئي الحرائي، وهم يقسمون أتباعهم إلى خمس فئات:

- ١ - فئة الصديقين لتصديقهم الشريعة بالطلب والإجتهد، ونصرتهم واضح الشريعة ومعاونته بالطلب والإجتهد.

الباب الثالث

٢ - فئة الشهداء - لمشاهدتهم الأمور الروحانية المفارقة للهوى؛ يعني به جنة الحياة ونعيمها.

٣ - فئة المسلمين - وهم من أقروا بما أخبر واضع الشريعة، وصدقوه على ما قاله. قال تعالى عنهم: «قالت الأعراب آمنا قل بل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا». وهؤلاء لم يتصوروا تلك الأمور الروحانية بحقائقها.

٤ - فئة المنافقين - وهم من أقر بلسانه وشك فيما يقول بقلبه، وهؤلاء هم المنافقون الذين قال عنهم القرآن الكريم: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار».

٥ - فئة الكفار - وهؤلاء ينكرون دعوة صاحب الشريعة في الظاهر، ويكذبونه في السر والعلن ويعادونه جهراً، وقد ناصبهم النبي الحرب والقتال وأكثر لهم الوعد والوعيد والزجر والتهديد^(٤٢).

وقد يحصل الوحي أو الإلهام الرباني للصادقين منهم. «يقدر في نفوسهم من غير قصد منهم ولا تكلف». أو يحدث في نفوسهم إلهام ملائكي فيقول أحدهم: «أجد قلبي كالمرآة تتراعى فيها حقائق الأشياء، وأجد لسان يجري على الصواب من غير تكلف»^(٤٣). وللوحي عندهم درجتان:

١ - ما يحدث في الرؤيا الصادقة: قال الرسول الكريم: «الرؤية الصادقة جزء من النبوة، وهي لا تقع إلا للصادقين والأتقياء الذين هم ملائكة بالقوة، وهؤلاء زاهدون في الدنيا، والفضيلة عندهم أحسن من المال.

٢ - الوحي الذي يحصل في اليقظة عند سكون الجوارح. ويحصل:

- إما استماع لصوت من غير رؤية شخص بإشارات دائمة.

- وإما استماع كلام، من غير رؤية من وراء حجاب.

وأسمى أنواع الوحي والإلهام، هو الشريعة الإلهية (التي هي عند إخوان الصفا)، جبلة روحانية تبدو من نفس جزئية، في جسد بشري بقوة عقلية، تفيض عليها من النفس الكلية، بإذن الله تعالى في دور من الأدوار، لتجذب بها النفوس الجزئية، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة (حصلت عليها) بالتناسخ. ليفصل بينها يوم القيامة^(٤٣).

يفرق إخوان الصفا بين العلم والإيمان، وهم يرمون علماء الكلام، في عصرهم بالجهل؛ لأنهم يسمون الإيمان علماً، ويقولون هو علم من طريق السمع، وما يعلم بالقياس، هو علم من طريق العقل. أما الحكماء (الفلاسفة) فيرون أن العلم هو تصور

النفس رسومات المعلومات ذاتها، فإذا ما كان العلم هو هذا فليس كل ما يرد به الخبر عن طريق السمع تتصوره النفس بحقيقته، فإذا لا يكون ذلك علماً بل إيماناً وإقراراً وتصديقاً، ثم يقرر إخوان الصفا: «إن العلم صورة المعلوم في نفس العالم، وإن الإيمان هو التصديق لمن هو أعلى منك، بما يخبرك عما لا تعلمه، لأنه رب صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الهيولى، ورب مخبر بخلاف ما في نفسه، فيكون كذاباً وإن كان قاصداً، لذلك ورب مصدق أيضاً لكذاب»^(٤٥).

نلمس في رسائل إخوان الصفا نقد لما يجري في حلقات القصاصين وعند بعض الفقهاء الجهلة، الذين يحدثون عن طيور الجنة وأدوية جهنم، من خوف العذاب الذي لا تنفق وتصورات الحس السليم، وكانوا يستندون إلى الفكر الفلسفي السائد في بيئة حران الوثنية وماحولها.

قال دي بور: «إن تعاليم إخوان الصفا في صورتها الأخيرة هي فلسفة الدين، غايتها التوفيق بين الفلسفة والدين»^(٤٦) نعم إن غايتهم التوفيق بين ديانتهم النجومية وتعاليم الدين الإسلامي.

وللمعرفة الروحية عند إخوان الصفا طريقان لثالث لهما:

الطريق الأول: طريق المشاهدة بالقلب الصافي من الشوائب، بعد تأمل المحسوسات ودقة النظر في المعقولات، ودراية بالرياضيات وبحث عن القياسات، كما فعلت القدماء الحكماء الموحدون الربانيون. وهذا ما نجده في الفلسفة الاشراقية عند السهروردي، وابن عربي، وابن سبعين وبعض المتصوفة المتأخرين.

الطريق الثاني: طريق الطاعة والإقرار للأنبياء الموحى إليهم، كإقرار المؤمنين للأنبياء إيماناً وتسليماً، أو كإقرار العامة والأتباع للخواص والعلماء تقليداً وقولاً، أو كإقرار الصبيان للآباء والمعلمين تعليماً وتلقيناً^(٤٧).

والطريقة الثانية: هي طريق العوام وطريق علماء الكلام المسلمين. وكان جمهور المسلمين ينظر إلى تعاليم إخوان الصفا بدعاً مخالفة لروح الإسلام، حيث كان الجمهور يكفر كل من المعتزلة والشيعة: لإنكار الأولين رؤية الله يوم القيامة، وإنكار الشيعة المسح على الخفين^(٤٨) فما بالك بمن يحكم عقله في هذا الكون، ويؤمن بأن الكواكب مدبرة لأحداثه؟.

النوع الرابع - الرسائل النفسانية والعقلية:

عددها عشر رسائل، تبحث في مدار الموجودات، والعالم والعقل والمعقول والأدوار والأكوار، وماهية العشق والبعث والقيامة، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم. وهي في رأي الأستاذ سعيد زايد «صورة للحياة العقلية في القرن الرابع الهجري، وهي أول مجلد ضخم ضم في دفتيه جميع أقسام الفلسفة، وهي أخيراً محاولة لتثقيف العامة علمياً وفلسفياً»^(٤٩). أعتقد أن تعاليم إخوان الصفا هي بعث لفلسفة وثنية شاعت في القرن الرابع الميلادي. بين أوساط مثقفي مدرسة الإسكندرية، فتصدى لها علماء الكنيسة وحاربوها، فانكفأت إلى معابد حران الوثنية، حتى منتصف القرن الثالث الهجري، فبدأت تشرأب أعناقها على أثر علو مكانة الصابئة في المجتمع العربي الإسلامي....

واشتملت على وصف للعالم بأنه انبثق من الله، وكذلك الروح الإنسانية، وأنها تسعى للرجوع إلى الله والفناء فيه، وهذا التلاشي طريقة الحكمة (الغنوص)، وقد مزجوا بين تعاليم فيثاغورس والأفلاطونية المحدثة، وفسروا آيات القرآن الكريم بطريقة مجازية معتمدين على ماقامت به مدرسة الإسكندرية من تفسيرها للكتب المقدسة بهذه الطريقة»^(٥٠).

نظرية الفيض الإلهي:

تنسب هذه النظرية ذات التأثير الفكري الخطير على الفلسفة الشرقية إلى أفلوطين المصري (٢٠٤ - ٢٧٠م) الذي درس مبادئها على يدأمونياس سكاس، ثم رافق الإمبراطور جورديان الثالث في حملته على فارس، وعندما اغتيل الإمبراطور على يد جنوده (٢٤٤م) توجه أفلوطين إلى روما وفيها نشر مذهبه، ثم نقله عنه إلى الشرق تلميذه فرفوربوس الصوري، الذي صبغها بالفكر الفيثاغوري الميتافيزيقي^(٥١). وصار ولاء الحكيم ليس لهذا العالم المحسوس بل للعالم الآخر، عالم المثل الأزلي الأبدي، العالم الحقيقي بالقياس إلى عالم الظواهر الوهمي.

يبدأ الفكر الأفلوطيني بثالوث مقدس، هو (الواحد، والعقل الإلهي، والنفس). والواحد غامض بعض الشيء، فتارة يسميه الله، وأحياناً بالخير المطلق، وهو يعلو الكون، وهو حاضر في كل شيء ولا يمكن عليه حمل أي صفة من الصفات. وعنه صدر (العقل الإلهي) في بحثه عن نفسه، فهو كالضوء الذي مكن الواحد من رؤية

نفسه^(٥٢). وعن العقل الإلهي فاضت النفس الكلية التي خلقت الكائنات الحية جميعاً، فهي خلقت الشمس والقمر والنجوم وسائر العالم المرئي. وللنفس الكلية جانبان:

أ - جانب باطني يمس العقل الإلهي (الناوس).

ب - وجانب آخر يواجه العالم الخارجي، وهذا الجانب مرتبط بنزولها من عالمها الأول، خلالها صورة لذاتها هي الطبيعة، أو عالم الحس، وهو عالم جميل وموطن الأرواح المباركة، لأن النفس عندما خلقت العالم، خلقت من خلال تذكرها عالمها الإلهي، بينما يقول الغنوصيون: إن العالم المرئي هو شر^(٥٣). أما النفس وإن كانت في أحط كائن بشري لا يعتريها الفناء، وهي إلهية خالدة على عكس الجسد الفاني المركب من العناصر الأربعة. والنفس ليست بالصورة للجسد كما يقول أرسطو، وإنما هي جوهر أبدي^(٥٤). لا تزول بزوال الجسد.

اقتبس إخوان الصفا نظرية الفيض الإلهي من الفلسفة الأفلوطينية المحدثه وإلى هذا يشيرون إلى أن الحكمة انتقلت إليهم من مصر. قالوا: واعلم يا أخي أن الباري - جل ثناؤه - أول شيء اخترعه وأبدعه من نوره وحدانية جوهر بسيط، يقال له العقل الفعّال، كما أنشأ الإثنين من الواحد بالتكرار، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل، كما أنشأ الثلاثة بزيادة الواحد على الإثنين، ثم أنشأ الهولي الأولى من حركة النفس، كما أنشأ الأربعة بزيادة الواحد على الثلاثة، كما أنشأ سائر الخلائق من الهولي، ورتبها بتوسط العقل والنفس، كما أنشأ العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها^(٥٥). ثم قالوا: وكل موجود تام يفيض منه على مادونه فيض ما، وإن ذلك الفيض من جوهره، أعنى صورته المقومة التي هي ذاته، وهكذا تفيض من النفس الحياة على الأجسام؛ لأن الحياة جوهرية لها وهي المقومة لذاتها^(٥٦).

النفس والفيض الإلهي:

النفس عند أفلاطون وإخوان الصفا جوهر بسيط لا تركيب فيه، وهي قديمة، بينما هي عند أرسطو محدثة، وهي صورة الجسد، وهي تتسم عند علماء الكلام والأطباء المسلمين إلى قسمين:

١ - النفس الحيوانية أو الروح: وهي بخار لطيف مكوّن من ألطف أجزاء الأغذية، وهي سبب الحس والحركة وقوام الحياة (عند الطبيب أبي بكر الرازي)، وهي باقية من

الباب الثالث

أول العمر إلى آخره من غير أن يتغير فيها شيء، من انحلال أو زيادة أو نقصان. وهي عند علماء الكلام شيء استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

٢ - النفس العاقلة (الآنا): وهي الشيء الذي يشير إليه كل أحد بقوله (أنا). قال ابن لقمان والذي يرجح هو أن الإنسان له نفسان، نفس حيوانية، ونفس روحانية، فالنفس الحيوانية لاتفارقه إلا بالموت، والنفس الروحانية هي التي من أمر الله، وهي التي تعقل وهي التي تفارق الإنسان عند النوم. لقوله تعالى: «يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها». وقد مثل لها النظام بقوله: «إنها جسم لطيف مشتبك بالبدن، كاشتباك الماء بالعود الأخضر». ومثل لها الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) بقوله: «الروح في الجسم كالمعنى في اللفظ». وقالت الصوفية وأبو حامد الغزالي: «ليست الروح جسماً ولا عرضاً، وإنما هي مجردة عن المادة قائمة بنفسها غير متحيزة، متعلقة بالبدن للتدبير والتحريك»^(٥٧).

بينما النفس - عند إخوان الصفا والحرائية - جوهر بسيط روحانية حية علامة فعالة، وهي صورة من صور العقل الفعال^(٥٨). وهي باقية بعد مفارقة البدن في نعيم أو شقاء حسب عملها في الحياة الدنيا، والنفس الجزئية، هي إحدى القوى المنبثقة من النفس الكلية، ولكنها ليست منفصلة عنها، ولا هي إياها بعينها، سبقت الجسد في الوجود، ونزلت من عالمها العلوي وحلت في الجسد نتيجة لنسيان أو لخطيئة، كخروج آدم عليه السلام من الجنة، رمز إلى معصية هذه الأنفس الكلية. قالوا: إعلم إن الأمور الإلهية هي الصور المجردة من الهولي، وهي جواهر باقية خالدة لايعرض لها الفساد والآفات، كما يعرض للأمور الجسمية، فاجتهد في معرفة نفسك لعلك تخلصها من بحر الهولي، وأسر الطبيعة، التي وقعنا فيها بجناية كانت من أيينا آدم عليه السلام^(٥٩).

النفس والخطيئة والتاسخ:

كان فيثاغورس يؤمن بالتناسخ، ومؤداه أن النفس إذا فارقت الجسد، وكانت حياتها فيه صالحة كريمة صعدت إلى عالم الأفلاك، أما إذا كانت حياتها فيه فاسدة، سيئة فلا تفتح لها أبواب السماء بل تبقى تحت فلك القمر، تنقلب بين الكون والفساد، متخذة أجساداً بشرية أو حيوانية.

قال ديكارياكوس: «إن فيثاغورس علم أولاً: أن الروح خالدة، وأنها تتحول ضرورياً أخرى من الكائنات الحية، ثم علم أن كل مظهر في الوجود يعود فيولد في دورة

معلومة، فلا شيء جديد كل الجدة وإن كل مايولد وفيه ديب الحياة، ينبغي أن ننظر إليه جميعاً نظرتنا إلى أبناء الأسرة الواحدة»^(٦٠).

وقد آمن إخوان الصفا طبقاً لفلسفتهم الفيثاغورية بالتناسخ الذي هو حلول روحاً إذا فارق البدن إلى جنين قابل للروح. وقد أعطى أفلوطين في كتابه التاسوعات مثلاً على ذلك.

قال: إذا قتلت أمك في الحياة الدنيا، أصبحت في الحياة التالية امرأة ليقهلك ابنك»^(٦١). وتظل النفس البشرية (الجزئية) إذا لم تنهذب بالأخلاق الجميلة، تتخبط في هذا العالم، دون أن تنهض إلى الملأ الأعلى من نقل أوزارها، ولا يعرج بها إلى ملكوت السماء، ولا تستحق الدخول في زمرة الملائكة، وتغلق دونها أبواب السماء، وتبقى مقر الأجسام المدلهمة، وتدفعها أمواج الشهوات، المحرقة المؤدية إلى أودية الهاوية. حيث لأنيس لها، وتجرها الشياطين كما تجر العميان، والزمني متجنبين طرقات الناس»^(٦٢).

هذه الرواية للروح عند إخوان الصفا تناقضها النصوص القاطعة، من الكتاب والسنة، وإن كان العقل لا يدل على امتناع التناسخ، ويحتج عليهم علماء الكلام، لو كان التناسخ واقعاً لتذكرت نفس ما أحوالاً مضت عليها في البدن السابق، كما أن الإيمان بالمعاد ينفي التناسخ، بل إنهم ليكفرون من يقول به»^(٦٣).

البعث والمعاد:

إذا كان المعاد هو رجوع النفس الجزئية، إلى النفس الكلية، والثواب هو ما تجده كل نفس من الراحة واللذة والسرور والفرح بعد مفارقتها للجسد»^(٦٤). فإن القيامة أو الحشر الأكبر لا يتحقق بمفارقة النفس للجسد، ولكن عند مفارقة كل النفوس أجسادها، وعندما لاتدعو الضرورة لبقاء النفس الكلية، ولا لبقاء العالم نفسه، فتعود النفس الكلية إلى الله فيبطل الوجود ماعدا الله، وبذلك يتحقق الحشر الأكبر، أو القيامة الكبرى، ويتحقق خراب العالم»^(٦٥).

هذا التصور للبعث والقيامة يخالف التصور العام للمسلمين؛ إذ البعث هو إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن لبس يختص به البارئ تعالى، أو هو الإحياء والنشر من القبور بأمر الله تعالى»^(٦٦).

كان تصور إخوان الصفا للبعث والمعاد يتفق وديانتهم النجمية، وهم القائلون: وكما يعمل أصحاب المجسطي عند طلبهم معرفة عظم جرم الشمس، إذ يميزون

الباب الثالث

ويدرسون جميع الحلول الممكنة عقلياً حلاً بعد حل كذلك تحل الصعاب المتصلة بمشكلة البعث، اعمل يا أخي مثل هذه المسائل، مثل ما عمل هؤلاء في مسألتهم، وهي أن تقول لا يخو أمر البعث ومعنى القيامة من أن تبعث الأجساد دون النفوس والنفس دون الأجساد، أو الجميع إذ كان ليس في القسمة غير هذه الوجوه الثلاثة، ثم ابحث حقيقة هذه الوجوه الثلاثة^(٦٧). وأما قول رسول الله: «من مات قامت قيامته». إنما أراد قيام النفس لا الجسد، لأن الجسد لا يقوم بعد الموت^(٦٨).

ولإخوان الصفا طبقاً لتعاليمهم لا ينتظرون الآخرة.

قالوا: واعلم يا أخي أن المنتظرين للآخرة طائفتان من الناس:

* أحدهما: ينتظر كونها وحدثها في الزمان المستقبل، عند خراب السماوات والأرضين، وهم لا يعلمون من الأمور إلا المحسوسات، ولا من الجواهر إلا الجسمانيات، ولا من الأحوال إلا ما ظهر^(٦٩). وإن دار الجزاء تكون بعد فناء الخلق، وإن الله يعيدهم مرة ثانية، خلقاً جديداً، وهذا جيد للعامة، ولمن لا يعرف شيئاً، ويرضى بالدين تقليداً وإيماناً^(٧٠) وهؤلاء هم المسلمون.

* الثانية: ينتظرونها كشفاً وبياناً واطلاعاً عليها، وهم الذين يعرفون الأمور المعقولة والجواهر الروحانية، والحالات النفسانية، وإن كثيراً من العقلاء الحكماء ينكرون خراب السماوات، ويأبون ذلك إباء شديداً، وإن الآخرة لها وجوداً عن الكون في الرحم، كأيام الشيخوخة متأخرة عن أيام الشباب^(٧١). وهؤلاء هم صابئة حران.

الجنة والنار:

الجنة هي عالم الأرواح، وهي صورة روحانية لاهيولى جرمانية، بل حياة محضة وراحة ولذة وسرور وغبطة لا يعرض لها الكون والفساد، لا التغير والبلى، ويسخرون من تصورات المسلمين لاعتقادهم أن الجنة شبه بساتين فيها أشجار عليها ثمار وقصور بينها أنهار، وفي تلك القصور حور وغلمان وولدان مردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها. يقول الإخوان: واعلم يا أخي أن الجنة إنما هي عالم الأرواح، كله صورة روحانية لاهيولى جرمانية، بل هي حياة محضة وراحة ولذة، وسرور وغبطة، لا يعرض لها الكون والفساد، ولا التغير والبلى، لأنها هي دار الحيوان^(٧٢) ويستشهدون على ذلك بقول الرسول الكريم: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

ويسخرون من تصور المسلمين بأن جهنم هي خندق محفور كبير واسع مملوء من نيران تشتعل في ذلك الخندق، وأنه كلما أحرقت أجسادهم صارت فحماً ورماداً،

أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانياً، كما اشتعل أول مرة محتجين بقوله تعالى: «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب»^(٧٣).

ويقول إخوان الصفا: إن هؤلاء المسلمين لا يفقهون معنى قوله تعالى: ولا يحسنون تأويل كتابه، بأن أهل جهنم هم النفوس المتعلقة بأجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والأوجاع دون سائر الموجودات. وأن لجهنم سبع طبقات؛ لأن الأجسام التي هي دون فلك القمر سبعة أنواع، أربع منها هي الأركان الأربع (الهواء والنار والماء والتراب)، وثلاث هي المولدات الكائنات الفاسدات وهي (المعادن والنبات والحيوان)^(٧٤).

يطالب إخوان الصفا بالتفسير الرمزي الإشاري للكتب المقدسة، مستبدين التفسير الحرفي، وسوف أقدم مثلاً من تفسيرهم قالوا: إذا كان السيد المسيح قد وصف الجنان ونعيم أهلها بأوصاف غير جسمانية، فلأن خطابه كان مع قوم هذبهم التوراة، وكتب الأنبياء والحكماء، وأما سيد الأنبياء وخاتم المرسلين (محمد صلى الله عليه وسلم) فقد اتفق بعثه مع قوم أميين من أهل البوادي، غير مرتاضين بالعلوم فجعل أكثر صفات الجنة في كتابه جسمانية، ليقربها من فهم القوم، ويسهل تصورها عليهم، وترغب نفوسهم بها^(٧٥) ولأن هؤلاء القوم - أي المسلمين - أميين جهلة، فهم يطالبون أتباعهم بتفسير جديد للقرآن الكريم يتفق وتعاليمهم. قالوا: واجتهد يا أخي في معرفة طلب ما أشار إليه أنبياء الله تعالى في الكتب المنزلة على ألسنتهم، المأخوذة عن الملائكة معانيها في وصف نعيم الجنان، سعادة أهلها، وصفة النيران وشقاوة أهلها، وما أشار إليه الفلاسفة والحكماء في رموزهم من وصف عالم الأرواح ومدح أهلها، وذمهم عالم الأجسام، ولعلك تتصور بعقلك ماتصوروا، وتشاهد بصفاء جوهر نفوسهم (ماشاهدوا)، فتنبه نفسك من نوم الغفلة، ورقدة الجهالة، وتعيش عيش السعداء، وترتقي في المعارف، وتعلو همتك نحو ملكوت السماء، وتكون في الآخرة من السعداء^(٧٦).

وبعد مكوث أهل الجنة مدة لا يعلمها إلا الله يعود الفيض الإلهي من جديد، ويخلق دنيا جديدة وأقواماً أخرى في العالم الأرضي.

لا أعلم في الفكر الإسلامي السني أحداً أخذ بتفسير إخوان الصفا إلا الشاعر الباكستاني محمد إقبال (١٨٧٦ - ١٩٣٨) الذي اعتبر الجنة والنار حالتان لا مكانان. أما الأوصاف التي يتناولها القرآن فهي عبارة عن تخطيط مجسد ملموس، يقع تحت النظر لتقريب ماهو من الأشياء الباطنة، وإن جهنم - حسب الآيات القرآنية - هي النار التي تصهر ما في قلوبهم وجلودهم، هي تبيكت الضمير المؤلم للإنسان حين يحبط

عمله ويسوء فعله كإنسان. وجهنم لم يصورها القرآن بئراً عميقة للعذاب والكمال يفرضهما إله ثائر يحب الانتقام، بل هي تجربة تظهر الذات وتجعلها منيعة، تحس ألم الضمير وتشعر بلذع الجرم، وتؤمن بشكر الله والرضوخ له أما الجنة عند إقبال - فهي السرور واللذة بعد الظفر والانتصار على قوى الإنحلال. والجنة ليست عيداً احتفالياً دائماً، بحيث تكون الحياة واحدة مستمرة على نسق واحد، بل كل فعل للذات الحرة يخلق وصفاً جديداً، ويتيح الفرص لامتداد خلاق^(٧٧).

مذهبهم الأخلاقي:

تحتل الأخلاق مكاناً مرموقاً في تعاليم إخوان الصفا، وهم يريدون أن يحيا الإنسان وفق السيرة الفلسفية العادلة التي عاشها سقراط الحكيم، والذي كانت نفسه تشتاق دائماً إلى العالم الأعلى فلا ترهب الموت. والمحبة عندهم أسمى الفضائل؛ لأن غايتها الفناء في الباري تعالى المحبوب الأول. قالوا: إن الإنسان على الحقيقة هو النفس، ويجب أن تكون أسمى غايتها أن نعيش مع سقراط واقفين أنفسنا على العقل^(٧٨).

وعلى الإنسان العاقل أن يتبصر دائماً في عيوب نفسه ليصلحها، وهم يعلمون أن ذلك مهمة صعبة لأن الإنسان أعمى عن معرفة عيوبه، وهو أقدر على معرفة عيوب غيره. قالوا: اعلم أن الإنسان العاقل قد تخفى عليه عيوب مذهبه، كما تخفى عليه مساوئ أخلاقه وقبائح أفعاله، وتسبح له عيوب غيره، كما قيل في المثل (يا ابن آدم لك محلان، أحدهما فيه عيوب نفسك، وفي الآخر عيوب غيرك). وهي قدام وجهك لاتزال تتطلع عليها، والتي فيها عيوب نفسك تجعلها خلف ظهرك فلا تلتفت إليها.

وعش كما قال حكيم اليونان في وصاياه الذهبية: «الإنسان يعمي ويصم عن عيوب نفسه؛ لأن نفسه أحب الأشياء، وحب الشيء يعمي ويصم»^(٧٩).

إن المثل الأعلى والقذوة المثلى عند إخوان الصفا، هو سقراط الحكيم، وفيثاغورس وتعاليمهما وليس تعاليم الستة الغراء، ولا سيرة سيّد المرسلين ولا سيرة الأئمة الطاهرين، بل سيرة الحكماء الإلهيين، والفلاسفة المعظمين عندهم.

المراجع:

- ١ - علم الفلك (تاريخه عند العرب في القرون الوسطى) ص ٢٧ كارلوا نالينو روما ١٨٩٩.
- ٢ - المصدر السابق ص ٢٧.
- ٣ - تلخيص مابعد الطبيعة ص ٢ ابن رشد تحقيق عثمان أمين القاهرة ١٩٥٨.
- ٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٩٢ تحقيق بطرس البستاني دار صادر بيروت ١٩٥٨.
- ٥ - المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٥.
- ٦ - المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٥.
- ٧ - تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٧٤ برتراندرسل ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٧.
- ٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٢٠٠.
- ٩ - المصدر السابق ج ١ ص ١٤٠.
- ١٠ - تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٦٣.
- ١١ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٥٠.
- ١٢ - تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ١٦٦ دي بور ترجمة أبو ريدة القاهرة ١٩٥٧.
- ١٣ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٥٧.
- ١٤ - المنتقى من الضلال ص ١٧ الغزالي تحقيق محمد جابر مكتبة الجندي القاهرة.
- ١٥ - المصدر السابق ص ٢٣.
- ١٦ - المصدر السابق ص ٢٥.
- ١٧ - المصدر السابق ص ٨٢.
- ١٨ - كليات أبي البقاء ج ٢ ص ١٥٨.
- ١٩ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٨٥.
- ٢٠ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٥.

- ٢١ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٦.
- ٢٢ - المصدر السابق ج ١ ص ١٨٥.
- ٢٣ - حضارة الإسلام ص ٢٧٦ و ٢٧٩.
- ٢٤ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٩١.
- ٢٥ - حقيقة إخوان الصفا ص ١٠ د. عادل العوا، دار الأهالي، دمشق ١٩٩٣.
- ٢٦ - المصدر السابق ص ١١.
- ٢٧ - الفن والمجتمع عبر التاريخ ج ١ ص ٤٧ إيرلد هاورز ترجمة فؤاد زكريا القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٨ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٨٩.
- ٢٩ - رجوع الشيخ إلى الحياة ص ٦١ - ٦٢ أحمد بن سليمان الشهير بن كمال باشا طبعة الرباط.
- ٣٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ١٦٩.
- ٣١ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٢.
- ٣٢ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥١٧.
- ٣٣ - المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٨.
- ٣٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٠ - ٥١.
- ٣٥ - المصدر السابق ج ١ ص ١٤٦.
- ٣٦ - مجلة تراث الإنسانية مجلد ٧ ج ٤ ص ٣٤٨.
- ٣٧ - كليات أبي البقاء ج ٢ ص ٣٥٤.
- ٣٨ - المصدر السابق ج ٤ ص ٢٨٦.
- ٣٩ - حقيقة إخوان الصفا ص ٢٥٧.
- ٤٠ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٧.
- ٤١ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٤.
- ٤٢ - حقيقة إخوان الصفا ص ٢٦٧ - ٢٦٨.
- ٤٣ - رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ١٤٤.

- ٤٤ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٢.
- ٤٥ - المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٦.
- ٤٦ - تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٠ هنري كوريان.
- ٤٧ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٤٢٣.
- ٤٨ - كليات أبي البقاء ج ١ ص ٤٢٢.
- ٤٩ - مجلة تراث الإنسانية ص ٣٤٦.
- ٥٠ - مسالك الثقافة الاغريقية ص ٢٧ أوليري ترجمة تم حسان مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٧.
- ٥١ - تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٤٥٤ براتراندرسل ترجمة زكي نجيب محمود القاهرة ١٩٥٧.
- ٥٢ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٧.
- ٥٣ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٥٩.
- ٥٤ - المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٣.
- ٥٥ - رسائل إخوان الصفا ج ٤ ص ٢٥٢.
- ٥٦ - المصدر السابق ج ٣ ص ٣٢٩.
- ٥٧ - كليات أبي البقاء ج ٤ ص ٣٤٩.
- ٥٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٨٥.
- ٥٩ - المصدر السابق ج ٢ ص ١٧.
- ٦٠ - تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص ٦٧.
- ٦١ - رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٤٦٢.
- ٦٢ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧.
- ٦٣ - كليات أبي البقاء ج ١ ص ٩٠.
- ٦٤ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣٩٢.
- ٦٥ - كليات أبي البقاء ج ١ ص ٤٢٣.
- ٦٦ - مجلة التراث الإنسانية ص ٣٤٨.

الباب الثالث

- ٦٧ - حقيقة إخوان الصفا ج ١ ص ٢٧١.
- ٦٨ - رسائل إخوان الصفا ج ص ٤٢.
- ٦٩ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٣.
- ٧٠ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠٣.
- ٧١ - المصدر السابق ج ٣ ص ٢٩٣.
- ٧٢ - المصدر السابق ج ٢ ص ٥٢.
- ٧٣ - المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦.
- ٧٤ - المصدر السابق ج ٢ ص ٧٩.
- ٧٥ - المصدر السابق ج ٢ ص ٩١.
- ٧٦ - المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠.
- ٧٧ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٣٩ - ١٤٠ هاملتون جب دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٥٤.
- ٧٨ - رسائل إخوان الصفا ج ٣ ص ٣١٦.
- ٧٩ - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٠١.

المحتويات

الباب الأول: الحرائية - تاريخ وعقيدة	٥
الفصل الأول: حران في مسارها التاريخي	٧
الفصل الثاني: الصابئة - الحرائية والمندائية	٢٥
الفصل الثالث: أهم قواعد العقيدة الحرائية	٤٣
الفصل الرابع: أهم الشعائر والطقوس والعادات	٥٥
الفصل الخامس: أعياد الصابئة واحتفالاتهم	٦٧
الباب الثاني: موروث الحرائية الفلسفي	٨٥
الفصل الأول: حياة ثابت بن قرة الحرائي، وأهم أحداث عصره	٨٧
الفصل الثاني: تراث الحرائية الفلسفي	٩٩
أول: علمهم الإلهي	٩٩
ثانياً: علم ظواهر الطبيعة	١١٨
الباب الثالث: إخوان الصفا هم صابئة حران	١٤٣
الفصل الأول: إخوان الصفا (التاريخ والعقيدة)	١٤٥

الفصل الثاني: هل الرسائل من إنتاج الفكر الإسماعيلي أم الحراني؟ ..	١٦٥
الفصل الثالث: الفارابي وصابئة حران وإخوان الصفا	١٨٧
الفصل الرابع: أهم المرتكزات النظرية والمواضيع الفكرية في الرسائل ..	٢٠٣
أولاً: طريق المعرفة	٢٠٣
ثانياً: المباحث التي تضمنتها رسائل إخوان الصفا	٢١١
المحتويات	٢٣٥

صابئة حرّان وإخوان الصفا

يعرض الكتاب فكر صابئة حران وعلاقتهم بإخوان الصفا، ويستنتج أن الصابئة الذين كانوا قبل قيام الدولة العربية الإسلامية، هم أنفسهم أخوان الصفا الذين اشتهروا بعد قيام الدولة بعدة قرون.

لقد تكوّنت الثقافة الحرائية في مدينة «حران» ملتقى الطرق في الحضارة القديمة. وجمع «الحرائيون» حصاد ثقافات متعددة هي خلاصة الفكر السوري والآرامي واليوناني. وبقوا جماعة فيثاغورية سرية حتى مطلع القرن التاسع الميلادي، فعرفوا بالصابئة الحرائية، واتصلوا بالدولة العربية الإسلامية، وترجموا وألفوا في العلوم الرياضية والفلسفية والطب.

من شخصياتهم البارزة في الحضارة العربية الإسلامية المترجم والفيلسوف ثابت بن قرة الحرائي، والعالم الفلكي محمد بن جابر البتاني الذي أطلق عليه الغرب اسم بطليموس العرب، ومن تأثر بهم الفيلسوف والطبيب أبو بكر الرازي، والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي.

يعتمد الكتاب في عرضه واستنتاجاته على الوثائق، وي طرح عدّة إشكاليات يحاول حلّها.

الناشر

الغلاف: سنان باصا